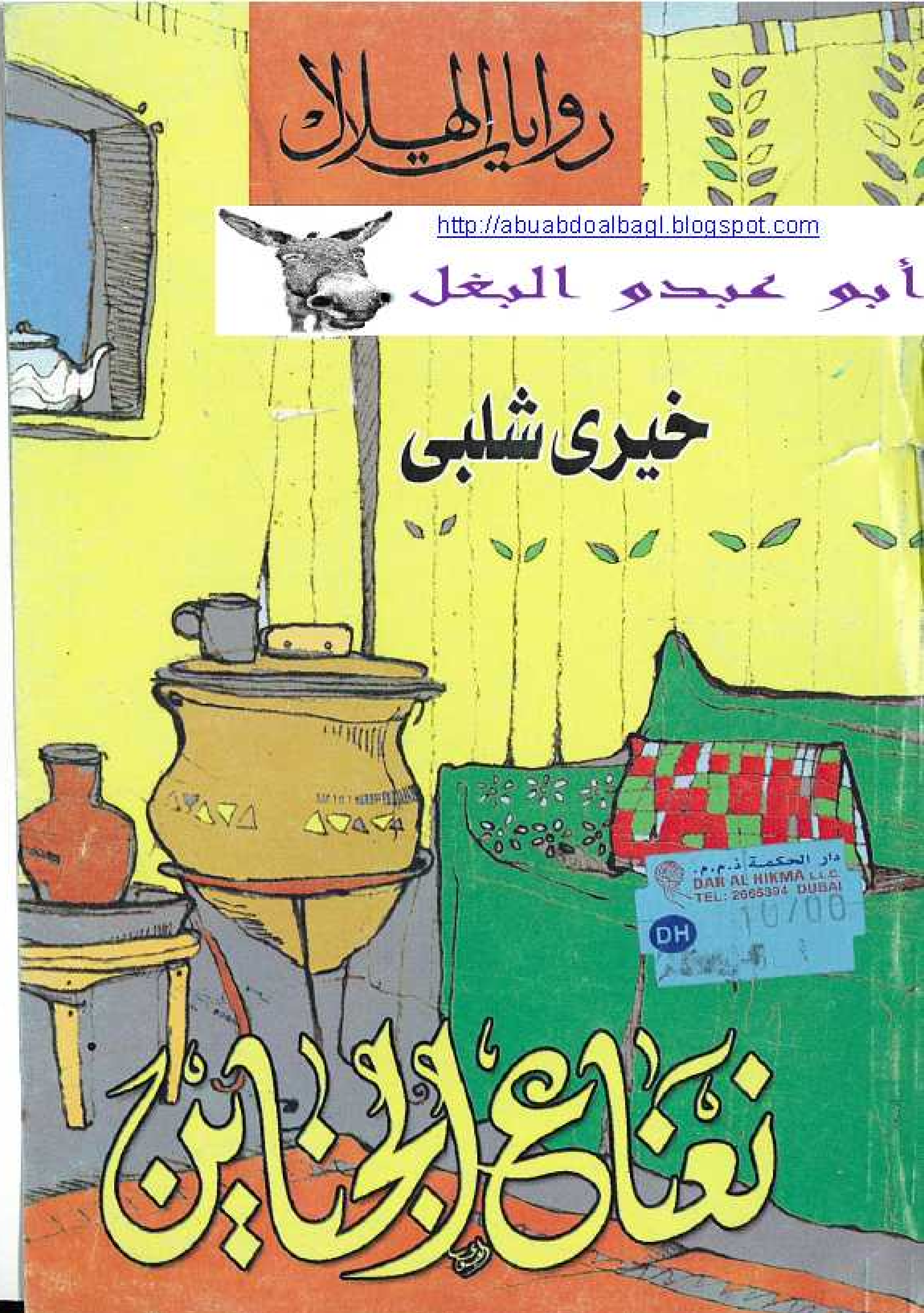
روايات الهلال

خيري شلبي

نعناع الجناين



نعناع الجناين

خيري شلبي

دار الهلال



الغلاف للفنان: أحمد أبو السعود

الخطوط للفنان: محمد العيسوى

الإشراف : ياسر شعبان

إهداء

إلى الفنان محمود حميدة ..

أول فرحتى الأبوية

«خيــرى»

(١) ربطة المعلم

عائلتنا بدون عمى أبوالسعود أفندى عقل تصبح عائلة بائسة من عموم العائلات التى يوقرها علية القوم وأسافلهم على سبيل برو العتب، حتى وإن كانت من أصل نقى طيب العنصر، وعميدها الأكبر جدى شيخ مشايخ البلدة كلها حسن أبوالسعود عقل صاحب أقدم وأشهر كُتّاب لتحفيظ القرآن الكريم ربما فى بلاد محافظة كفر الشيخ بأكملها ، قد علم أجيالاً كثيرة من أبناء الناحية وكلهم يدينون له بالفضل العميم. كما وأن عائلتنا تزرع فى ثلاثة أفدنة ونصف الفدان من أملاكها الموروثة عن الجد الأكبر، وفدانين تستأجرهما من مالك يمت إلينا بصلة قربى وثيقة وقد هجر الفلاحة والبلدة وراح يعيش فى مدينة الإسكندرية ويعمل حارساً خاصاً لخاله الهلباوى بك صاحب المحالج الكثيرة.

جدى الشيخ حسن عقل رجل حكاء بارع ويعتبره الناس - لخفة ظله الفاقعة - أظرف من شهدت بلدتنا على طول تاريخها . ولعل اتفاق الموعد فى ميلاده وموته يعتبر فى حد ذاته اتفاقاً طريفاً كأنه مزاح بين القدر والطبيعة إذ إنه ولد فى عام ألف وثمانمائة وخمسين ومات فى نفس يوم مولده ولكن فى عام ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين وحين كنت أتأهب للالتحاق

بالمدرسة الابتدائية فى منتصف أربعينيات القرن العشرين كان هو بسم الله ماشاء الله عفى البدن والذاكرة . كان مفتوناً بغرس يده فى شخصية عمى أبو السعود، فحاول بكل مواهبه التعليمية العريقة أن ينقل إلى جميع نسل العائلة هذا الافتتان ليبقى على طول الزمان فرعاً مخضوضراً يتوالد متجدداً متكرراً فى كل جيل ..

المصطبة البحرية الملتحقة بالجنينة هى قعدته الحميمة التى تتسع لجمعنا وقت الأصيل، حيث الشمس الآفلة قد صبغت شواشى النخيل والأشجار بالحناء القرمزية الحجازية لا شك . تلك أروق لحظات جدى حسن، تنتشى منها جدَّتىِ معزوزة وبخاصة إذا رأت أن القعدة قد استقطبت أولادها، أعمامى وعماتى، فيحلو لها – وهى مقاربة لجدى حسن فى السن – أن تطبخ لنا زردة الشاى بنفسها ثلاثة أدوار، فيما نحن جميعاً ننصت فى شغف إلى حكايات جدى حسن المليئة بكل مثير للخيال والأخلاق من مواعظ وعبر قد صارت فى حكاياته أناساً مثلنا من لحم ودم ومثل كل كائنات الأرض تخطئ وتصيب وكلها أمم مثلنا تتعلم من الخطأ كيف تلتزم بالصواب..

يعرج الحديث دائماً على عمى أبى السعود أفندى عقل، الذى يعتبر الآن عمدة رجال التعليم والتربية فى محيط المديرية. هو الذى أسس مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات فى بلدتنا ويتولى الآن نظارتها منذ سنوات كان فيها حديث الناس وموضع احترام وتقدير المفتشين وجميع المسئولين فى مديرية التعليم بالمحافظة . ولئن كان هذا الجد والإخلاص فى العمل قد لقى تقديره من المسئولين فإن تقديره عند الله سبحانه وتعالى أفضل وأبقى، فبتوفيقه سبحانه قفز اسمه على قائمة المرشحين للترقية إلى درجة مفتش فى العام الدراسى القادم . وذلك ما كان يتوقعه جدى حسن الذى وافته

المنية منذ أشهر قليلة قبل أن يسمع هذا الخبر الذى استقبلنا به الشهر الخامس من عام ألف وتسعماية وخمسة وخمسين، فإذا برحيله يكرس لاستمرار الحياة فى قعدته اليومية على هذه المصطبة التى يحتلها من بعده عمى أبوالسعود، بمجرد أن يجلس الواحد منا فى رحاب هذه المصطبة فإن جدى حسن يشخص إليه فى الحال ماثلاً يتحرك ويحكى ويرن صوته الرفيع الحاد بجرس الكلمات الفصيحة رنيناً جاذباً يشعر المستمع إليه بجمال اللغة العربية ..

قال جدى حسن :

– «عمكم أبوالسعود أول أفندى فى عموم الناحية !»

عائلتنا أصبح فيها أفندى ! رفع اللقب قدرنا فى نظرة القوم يعنى باختصار نقلنا إلى الصف الأول من أعيان الناحية ! .. نروح بقى للبدلة ! يعنى عمكم أبوالسعود هو أول من لبس بدلة فى بلدان الناحية وليس فى عائلتنا فحسب ! .. أقصى ما ارتقت عائلة مثل عائلتنا كان الجبة والقفطان والعمامة يوم التحاقى بالمعهد الدينى فى مدينة دسوق ! صحيح أننى لم أكمل ثانوية المعهد وعدت إلى البلدة لكننى لم أخلع ثياب المشيخة مطلقاً إلى اليوم ! وحتى لو مشيت عرياناً والعياذ بالله دون حتى ورقة توت تستر عورتى فلن يجعل الناس بالهم منى ! .. إن ثوب المكانة ليس ينخلع إلا بإعصار مدمر والعياذ بالله ! ..

«أقول إن أول بدلة دخلت بلدتنا كانت تتلألأ على كتفي عمكم أبوالسعود وتنزل سابغة على جسده الضخم المهيب !.. يا سلام يا أولاد على ذلك اليوم! ذاك حدث كان فاروقاً فى تاريخ العائلة أولا ثم البلدة ثانياً ثم الناحية ثالثاً!.. وبانتقال العائلة إلى مرتبة الأفندية حظيت بما تحظى به طبقة الأفندية من احترام وتبجيل وتمييز فى المعاملة !! حقاً يا أولاد ! ..

إكراماً للبدلة والطربوش جاملنا صاحب هذه الأرض فباعها لنا بثمن بخس لنقيم فوقها هذه الدار بهذه الجنينة ! .. توقيراً للبدلة وهى رمز للحكومة وملبس رجالها الأشداء جاملنا البناءون والمحارون والنجارون والمبلطون والجناينية ! .. نعم هم جميعاً أخذوا حقوقهم كاملة أربعة وعشرين قيراطاً وفوقها بوسة شكر إلا أنهم عملوا بإخلاص وذمة وضمير فيما ليس من خبرتنا أن نستكشفه أثناء العمل ! .. ولئن كان جميع أهالى بلدتنا والبلاد المجاورة مدينين لنا بالفضل فى تعليمهم ، هم وعيال عيالهم بالمجان، تعليماً قد راعينا حقوق الله فيه ! فإن خصلتنا يا أولاد العرب قذرة : نخاف ولا نختشى ! نقدر المعروف أى نعم لكننا نقدر جانب الخوف أكثر !!

نبادر بخدمة من يملك تخويفنا قبل أن نرد الجميل لمن خدمنا بالفعل ! .. ومن هنا قيمة البدلة وأخيها الطربوش ! .. فلابس البدلة إن لم يكن من الحكومة فإنه قريب منها كحبل الوريد ! .. إن دخل اثنان أحدهما بجلباب أو جبة يطلبان مقابلة مسئول حكومى سينفتح الباب أولاً للابس البدلة حتى وإن لم يكن ذا علم أو قيمة أو أصل ! فما بالكم لو كان ملء هدومه كعمكم أبوالسعود أفندى ؟»

أيقنت منذ وقت مبكر أن جدى حسن يتوهج ويصهلل حين يتكلم عن عمى أبوالسعود ؛ لكننى لم أفهم السر فى ذلك على وجه الدقة إلا من عبارة قالها جدى حسن ذات لحظة صفاء إذ هو يتسامر مع جدتى معزوزة على مصطبة الجنينة فى ضوء القمر فيما أنا راقد ، سانداً رأسى على ركبة جدتى معزوزة، قال :

– «تربيتى لولدى أبو السعود يا معزوزة كأننى اشتريت لكم ألف فدان من أرض زراعية ! بل هو أهم منها إذ الأرض يمكن أن تضيع أو

تغتصب أما العلم فى الرجال فلا يضيع ولا يغتصب ! .. أفرأيت إذن لماذا كنت أقتر عليكم فى المصروف كى أوفر له نفقات تعليمه فى البنادر ؟!»

عمى إذن هو التاريخ الراهن المشرق لجدى حسن، ويحق له أن ينحته فى قلوبنا تمثالاً حياً باقياً يُناطح الأبد. هذا التمثال الحى المتحرك الماثل فى مخيلتى وأبناء عمومتى قد ارتدى بدلة من الصوف الهيلد الإنجليزى المعتبر كما هو مبين فى صورة زفافه المبروزة على الحائط فى حجرة نومه فوق مرآة البوريه فى مواجهة فتحة ناموسية السرير ذات اللون الإردوازى. ليس من أبناء العائلة من لم يتفرج على هذه الصورة واختطفت منه قبل أن يكسرها . كذلك ليس منا من لم يسمع من زوج عمى أبوالسعود، خالتى تفيدة سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو، قصة زفافهما وسفرهما إلى دسوق لالتقاط هذه الصورة، ومن لم يسمع من جدتى معزوزة قصة هذه البدلة التى أسبغت على عمى كثيراً من الأبهة والعراقة كأنه الخديوى إسماعيل شخصياً .

(٢) أجاويد المواوية

كل الكتاتيب في بلدتنا متواضعة الحال، جزء من مندرة فقدت كبار قومها فعفا عليها الزمان فانفضت لياليها، أو ربما في كوخ مبنى من الطين المخلوط بالتبن أعدت فيه مصطبة للشيخ - الذى عادة ما يكون ضريراً وعلى درجة بشعة من الخشونة والقسوة - حيث يتكوم أمامه على الأرض رهط من عيال تعساء فى حال من التشتت والتوتر خوفاً من خيزرانة الشيخ التى دأبت على أن تفاجئهم بلسع الظهور والأكتاف والأرداف بغير سبب واضح فى معظم الأحيان إلا أن يكون عدد كبير منهم لم يأت لسيدنا بالجراية المتفق عليها كل يوم : بعض خبز وإدام مما يأكلونه فى دورهم فعندئذ يكون العقاب مغلن الأسباب قوياً . الويل - فى ظل هذا الاضطراب المشحون بالتوجس والرعب - لمن يخطئ عند التسميع بنسيان مفردة من آية فما بالك لو التبس عليه الأمر وسرح فى آية أخرى من الآيات المتشابهات ؟ أو نسى الآية كلها؛ الموت لحظتئذ أحب إلى الولد من انتظار العقاب : يجئ العريف بالفلكة، أو الفلقة ، وهى عبارة عن حبل مصنوع من ليف النخيل مربوط من طرفيه فى طرفى شومة غليظة كالنبوت، يأخذ الحبل شكل قوس الرباب؛ يمسك العريف بقدمى الولد من الكاحلين، يدخلهما فى هذا القوس، يبرم الشومة فيذهب كل طرف

من طرفيها مكان الآخر فيتوثق الحبل حول القدمين، يمسك العريف بطرف الشومة ، ويمسك مساعده بطرفها الآخر، يرفعانها على الكتفين، يصير الولد مصلوباً من قدميه المرفوعتين وقد سقط جلبابه كله عن عورته القبيحة الشكل من خلف ومن أمام سيما إذا كان الرعب قد زلزل أعماق الولد وكركب بطنه مقدماً فراحت صواريخ النتن تندلع من مؤخرته المشرعة فى الهواء مضمومة الساقين، مع صواريخ أخرى من صراخ وجعير يصدران عن دماغ الولد الذى راح يكنس الأرض بوجهه خلال انتفاضة تحت نيران خيزرانة سيدنا التى راحت تنهال على القدمين بعنفوان الفأس عند العزيق .. العيال يشخون على أنفسهم من هول المنظر أما الذين تقرر عقابهم فقد راحوا يطلقون الصراخ مقدماً وهم فى حال من الرعب والشحوب لو رآها الشيخ الضرير لسقطت الخيزرانة من يده بل ولسقط قلبه فى قدميه إشفاقاً على العيال وندماً على ما فعل؛ إلا أنه ليس يراهم إلا من أصواتهم، ولديه خط دفاع راسخ وعتيق ضد صراخ العيال مهما ارتفع بنبرات تفتت الأكباد؛ ذلك أنه – مثل أقرانه – اعتاد أن لا يأكل من هذه الأونطة الصاخبة إذ هو يعرف أنها مبالغة فى تضخيم الألم لجذب الإشفاق هرباً من واجب العقاب؛ والعقاب واجب فى رأى عمى أبوالسعود حينما يشكو إليه الناس الغلابة الذين رزئ عيالهم بهذه النوعية السائدة من المشايخ القساة أصحاب الكتاتيب الكُشْنكان؛ إلا أنه يتحفظ على رأيه ذاك فى الحال منددأ – فى انفعال عميق – بهذه القسوة الغاشمة التى أورثت عيالنا خوفاً مقيماً من القرآن الكريم جعلهم يتوجسون منه إذ هم يقبلون على حفظه فإذا بالخوف من العقاب يشتت أذهانهم فيغلطون بالفعل فتصيبهم من القرآن الكريم عقدة تقف فى حلوقهم زمناً طويلاً ..

على أن عمى أبوالسعود أفندى سرعان ما يشعر بقليل من الحرج فيمسك لسانه عن الاستطراد فى الهجوم على أصحاب الكتاتيب العشوائية الرخيصة التى لا يلجأ إليها سوى المعدمين الذين يملكون بالكاد رغيف خبز بإمكانهم التنازل عنه لشيخ الكتاب مقابل أن يحفظ عيالهم القرآن أو حتى أجزاء منه تنفعهم فى الصلاة وتفيدهم فى الحياة . مصدر الحرج أن عمى أبوالسعود على جلالة قدره ابن واحد من أصحاب الكتاتيب هو جدى حسن عقل؛ صحيح أنه لا وجه للمقارنة بين جدى وبينهم على جميع المستويات إلا أنهم فى النهاية زملاء له يتعين على عمى أن يحترمهم بنفس القدر الذى يحترم به أباه، إنه - كما يبادر بالتوضيح فى لباقة - يحترم موقع المعلم ، مكانة المعلم أياً ما كان الرأي فى مستواه العلمى والثقافى والاجتماعى . ما أجمل وجهه حينئذ وهو مشرق بقوة الزهو والفخار ثقة منه فى حقيقة ماثلة تعتبر إرثاً رئيساً فى تاريخ بلدتنا : ما هكذا جدى حسن ولا هكذا كتاب العقالوة الذى نملكه منذ تاريخ لم يدركه أحد من الجيل الراهن كما أن أدبيات فولكلور بلدتنا يؤرخ لبلدتنا بثلاثة معالم ثلاثة أحداث جليلة ساهمت فى شهرة بلدتنا وارتفاع صيتها : الحدث الأول هو قيام محطة السكة الحديد باسم البلدة حتى وإن بعدت عنها بعشرة كيلو مترات؛ فمنذ أن بدأت القطارات تتوقف عندها لتربطها بدسوق ودمنهور والأسكندرية من جانب، وكفر الشيخ وطنطا فالقاهرة من جانب آخر تضاعف الوعى بين الناس، نشطت التجارات، تشجعت عائلات كثيرة على تسفير عيالهم للتعليم الثانوى والجامعى .

غير أن فريقاً من المستنيرين فى بلدتنا يعتبرون قيام محطة السكة الحديد فى بلدتنا هو الحدث الثانى؛ أما الحدث الأول بحق فى أنظارهم

فيؤرخ له بأول بدلة تفصيل معتبرة ارتداها واحد من أبناء الفلاحين لابس الجلابيب والقفاطين؛ حيث كان لابس البدلة - يعنى عمى - إذا مشى بها أو حملته الركوبة فى شوارع بلدة من البلاد قيل إنه أبوالسعود أفندى عقل كبير المعلمين فى بلدة (الضبعة) ؛ ولأن معظم من تعلموا من أبناء بلدان المركز قد تلقوا علمهم الأولى والابتدائى فى مدرستى بلدتنا فإن أهاليهم يهتفون دائماً بالثناء على العائلة فى كل مناسبة واصفين رجالها بأنهم أجاويد بلدة الضبعة، مما أسهم فى تجميل صورة بلدتنا فى أنظار البلدان الأخرى سيما والمصريون من فرط ظرفهم ولطفهم يتندر كل أبناء بلدة على أبناء البلدة الأخرى، حيث للبلاد صفات كصفات البشر، أحياناً تحمل البلدان أوزار أهلها كما يحمل أهلها أوزار سمعتها . بلدتنا كانت مشهورة باسم المواوية؛ مفردها : مواوي ؛ والمواوي لون من المداحين الجوالين فى القرى للتكسب بحلاوة حسهم أو لباقتهم ودُربتهم على ضرب الدفوف والعزف على الأرغول والسلامية، غير أنهم ليسوا متخصصين فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بل فى مدح أعيان البلاد ؛ الواحد منهم موهوب فى سرعة البديهة وملكة النظم وسليقة السجع وزخرفة العبارات وقوة الذاكرة وكفاءة المخبر الناجح ؛ قبل أن ينزل بركوبته ورهطه إلى بلد من البلدان يستطلع أسماء أشهر أعيانها، يجرى تحرياته الذكية البريئة عن كل عين من الأعيان، عن أشهر مناقبه وأوصافه وأعماله الخيرية فإن لم تكن له أعمال خيرية معلنة يؤلف له ما يناسبه من هاتيك الأعمال. يتخذ طريقه إلى بيت هذا العين أو ذاك؛ هو ومن معه - وهم فى العادة من عياله أو صبيانه الذين يحبون المهنة - مدربون بالخبرة العملية وحدها على مهارات مبهرة ، ليس فى العزف على الآلات الشعبية فحسب بل على حفظ واختراع

العبارات والمسكوكات اللغوية وإعادة ملئها بأسماء جديدة تنطبق عليها نفس الأوصـاف أو لا تنطبق لا بأس فى ذلك؛ إنهم لبـارعـون فى مـعـرفـة ألوان المدائح التى يطرب لها أشخاص بأعيانهم، وأنواع الأمنيات التى يكرسون لهـا أعـمـارهـم ؛ يقف المداح أمـام الدار، فى الحـال يتكون حـوله سـامـر من الأطفال المنبهرين على الدوام سرعان ما تدب البهجة بمجرد انطلاق الطبلة مع الدف والأرغول وربما الصاجات، تنفتح الشبابيك ، تخطر النسوان فوق الأسطح ينظرن على استحياء . تلك مقدمة موسيقية فحسب، يخفت صوتها شيئاً فشيئاً بعد أن تكون قد لعبت دورها فى لفت الأنظار والانتباه لما سيحدث ؛ يصعد صوت المدَّاح مجلجلاً فى أداء توقيعى منغم، أو فى نغم ممثل أو ممسـرح، كـلام على بحـر الموال المطاط المسـاعـد على رحـرحـة الأوصاف ودندشة المدائح، يعدد مناقب صاحب الدار المشهور بالكرم والعزة والإباء والقلب الكبير، ينوه المداح عن أنه قد ذكر صاحب هذه الدار بالخير عند فـلان وعـلان من أجـاويد بلدان زارهـا قـبل أن يجئ إلى هنا .. ولربما استـمر المداح يصدح بذكر المآثر لوقت طويل دون أن يأبه به أحـد من أهل المدوح ، إلا أن المداح لا ييأس بسهولة، إنه بخبرته الدوبة يدرك على الفور أن مثل هذا المدوح شبعة بعد جوعة يستمرئ استمرار مشهد المدح إلى أن يراه أكبر عدد ممكن من الناس ليتأكدوا أنه من الأجاويد وأن صيته ضارب إلى بعيد ؛ وفى النهاية يبعث إلى المداح بحفنة قمح أو شعير أو عدة أرغفة طرية أو ملء حـجـر من الذرة . يعـرف المداح كـذلك أن مـثل هـذا المـدوح العـويل أخف وطـأة من المـدوح الخـسـيس الذى لابد وأن يصطدم به المداح فى نهر الحياة، إنه - المدوح الخسيس - غير واثق من أنه أهل للمديح ولقد يتصور أن مادحه يسخر منه فيعاجله بلطمة بدلاً من أن يمنحه كسرة خبز،

غير الشرير من هذه النوعية الخسيسة يترك المداح يواوي كيف يشاء حتى تنفلق رأسه دون أن ينفتح باب أو درفة شباك . من هنا يطلق الناس على المداح لقب : المواوي ، ومعناه: الذى يوأوىء، ذلك أن حرف الواو قاسم مشترك فى جميع عباراته ومسكوكاته الشعرية، ولأن هذا الاشتقاق يرتبط فى أذهان الناس بمعنى: الذى ينادى ولايسأل فيه أحد، مع أنه فى النهاية لابد أن يعطف عليه أحد إما من جيران الممدوح الخسيس وإما من عابرى السبيل المتوقفين للفرجة بدافع الفضول..

كثرة عدد هؤلاء المداحين في بلدتنا، واشتهارهم بالبراعة في العزف على الرباب وتصنيعها في بيوتهم، ومنهم من يعتبر مرجعاً موثوقاً في رواية الهلالية وعنترة والبهلوان والملك سيف بن ذى يزن، تأتيهم الدعوات من بلدان بعيدة لإحياء الأمسيات ، كل ذلك جعل أهالى البلدان المجاورة، وخاصة أصحابنا منهم، يطلقون على أهل بلدتنا جميعاً لقب: المواوية . لكن للحقيقة أشهد أن جيلنا الذى بدأ يتشكل وعيه الحقيقى فى خمسينيات القرن العشرين لم يوصف منه أحد بهذا الوصف وإن سمعناه يتردد فى أدبيات بلدتنا.. ذلك أن عمى أبو السعود أفندى، كما يردد أبناء جيله والباقون من الجيل الأسبق، ومنذ أن ارتدى البدلة التفصيل المُعتبرة فى زمن لم يكن يلبس فيه البدلة إلا كبار موظفى الميرى، رفع شأن البلدة باعتبارها قد أنجبت أفندياً، وباعتباره بحكم مركزه وعلاقاته الواسعة واحترامه ورهبته قد صحح الفكرة عن بلدتنا وأحاط اسمها فى أذهان القوم بحالة من التقدير والرهبة.

أما الحدث الثالث المهم فى تاريخ بلدتنا آنذاك فإنه قيام مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات، وذلك حدث يقاسمه عمى أبو السعود فى المجد

والفخار باعتباره أحد أهم مؤسسيها وأول ناظر لها. بسعيه لإنشائها وتجميع قطعة أرض بالمجان والسهر على بنائها وتصنيع أثاثها واستقدام المدرسين وجذب أولاد الأعيان من جميع البلدان المحيطة بنا، أضاف إلى بلدتنا فرجة يومية مبهجة، من باكورة الصباح تمتلئ الشوارع والطرقات الزراعية والمدقات التخريمية بولدان كالورود الطازجة يرتدون البنطلونات القصيرة والسترات والأحذية ذات الأبزيم النحاسى اللامع والجوارب الصاعدة إلى تخوم الركبتين ويمسكون حقائب من جميع الألوان والأنواع، منهم من يجئ ماشياً من بلدة مجاورة ومن يجئ راكباً كارتّه أو ركوبة، يصير منظر البلدة فى الصباح كقرص من الشمع يشغى بأعداد هائلة من نحل العسل..

بجهود بذلها عمى أبو السعود تطوعت أميرة من حفيدات الوالدة باشا رفضت ذكر اسمها ببنائها على جزء متقطع من أرض زراعية من أملاكها فى بلدتنا ووافقت على أن يكون الزعيم محمد فريد اسماً لها تعبيراً عن حبّ أمها لهُ قائلة - كما لايزال الناس يرددون فى بلدتنا إلى اليوم - قولتها الشهيرة:

- «الفلاحون المصريون الذين ارتوت أرضى وأرض أجدادى من عرقهم يستحقون مدرسة ابتدائية لصبيانهم وبناتهم على السواء ! تخفف الضغط على مدارس دسوق وكفر الشيخ وطنطا! وفى نفس الوقت تشّجع الفلاحين الفقراء على تعليم عيالهم النابغين فوق التعليم الأولى! والمستعدين لمواصلة التعليم العالى فى مدرسة قريبة من منازلهم!»

يقال همساً إن عمى أبو السعود أفندى هو الذى كتب لها تلك الكلمة وألقاها نيابة عنها. لقد صرفت الأميرة بسخاء على المدرسة لأنها كانت

زوجاً لأحد نبلاء العائلة المالكة ذى نشاط سياسى يسارى يقف فى صف العمال وله إلى ذلك نشاط فى الصحافة والفكر والأدب، وكانت المدرسة فرصة تكرس لصدق توجهات النبيل وزوجه التى كانت من فرط الطيبة والإنسانية تكاد تكون سيدة ملائك الرحمة فى أساطير بلدتنا، بناء المدرسة على نحو شبيه بالقصور الملكية، التخت والأرائك والسبورات الفاخرة تثير أحقاد عيال المدرسة الأولية وتحفزهم على التفوق للانتقال بسرعة إلى المدرسة الابتدائية، حوش صالح لكى يستوعب جميع أنواع اللعبات الرياضيّة، خديقة مقتطعة من غابة الكافور والجزورين تغرى الأولاد بالبقاء فى المدرسة طول النهار بغير ملل أو ضجر..

هذه المدرسة باتت أهم معلم من معالم بلدتنا، يتضاءل أمامه مبنى محطة السكة الحديد برصيفها المهيب وحجراته وتنداته ولافتاته المفشوخة الساقين بقامة عالية تحمل اسم بلدتنا ساطعاً بالخط الثلث الكبير ذى الحروف السابغة الغنية العملاقة المبهجة كعواميد النيون الملون. أما المدرسة الإلزامية العتيقة التى بنيت فى أواسط العشرينات على نفقه الحكومة فقد اعتلتها مسحة من الكآبة حيث تساقط الطلاء عن كل جدرانها من الداخل والخارج معاً، تاركاً أشكال خرائط وسراديب وهضاب شوهاء، الرطوبة جعلت الجدران تتصبب عرقاً يتمركز فى المساحات السفلية، والأبواب والشبابيك فقدت لونها الذى كان أزرق مبهجاً ذات يوم بعيد، حتى الجرس النحاسى المعلق أعلى سطح المراحيض قد صدئ جنزيره وثقلت حركته وبح صوته الذى كان نافذ الدقات عميقها فبات متحشرجاً غوغائى الإيقاع فاقداً لرهبته القديمة المهابة فلم يعد يحترمه العيال.. صار المقبل على المدرسة من بعيد نحو بابها العمومى يشعر بالامتعاض كأنه مقبل على مقبرة..

جار الزمن كذلك على نقطة الشرطة مع أنها والمدرسة الابتدائية من جيل واحد تقريباً بفارق لا يتعدى العامين يضاف إلى عمر النقطة .

أما صندوق البريد الكبير فلولا أنه فى حراسة النقطة لنطق حديده مطالباً بضرورة رفعه عن جدار النقطة وتعليقه فى حائط مدرسة محمد فريد الابتدائية، حتى أصحاب الخطابات يتمنون ذلك ليصبح الذهاب إلى صندوق البريد نزهة فى رحاب حدائق الأميرة، أما البوسطجى نفسه، الطواف الذى يأتى كل يوم من المركز ليضع البريد الوارد إلى البلدة فى حوزة البلوكامين النوبتجى حيث يجئ الناس إليه يسألونه أو يتولى هو إرسالها لهم مع من يلتقيه من أقاربهم أو جيرانهم، ثم يدس البوسطجى إطار الكيس المعدنى تحت الصندوق فينزاحُ قعر الصندوق فتسقط الخطابات فى الكيس فيشد إطاره إليه فيعود قعر الصندوق إلى وضعه، ثم يقفل عائداً إلى المكتب الرئيسى فى المركز، (الودُ وده) لو ينتقل الصندوق ليعفيه من التوغل فى أحشاء البلدة بحماره المرهق من طول اللف بين البلدان، ما أحب على قلبه من أن يأخذها من قصيره فى مدخل البلدة على الطريق الزراعى المرصوص بأشجار الصفصاف والكافور والجزورين على مسافات طويلة تحدد أملاك النبيل وزوجه الأميرة، لكنه مع ذلك - البوسطجى - لا يرحب رسمياً بنقل الصندوق لأنه حينئذ لن يجد شخصاً يأتمنه على خطابات الناس بما تحويه من أسرار وأخبار..

(٣) مرضع الأطفال قرآنا

ولد جدى الشيخ حسن عقل عاجزاً أو شبه عاجز . كان ذا قتب مزدوج، من الصدور الظهر معا ، لكأنه قربة ماء قد توسطها رأس دقيق بدون رقبة ، كأنه مجرد حلق القربة للملء والتفريغ؛ وجهه محتقن البشرة حاد الملامح التى تنضح ثقة بالنفس تبدو عالمة بكل كبيرة وصغيرة فى الحياة، يمشى بقامته القصيرة وجسده الضئيل بسرعة واتزان كأنه آلة بشرية من كوكب آخر، تبدو العصا العوجاية فى يده محض عياقة وأبهة فى طفولته – كما حكى لنا بنفسه – كان صدمة لأبيه ناظر وسية الأمير محمد على القريبة من زمام بلدتنا ، سيما وأبوه ، الذى يحمل عمي أبو السعود اسمه، كان يحلم بولد ذكر يكون أخاً جيداً لشقيقتيه زينب ورقية ، أما وقد أعطاه الله هذا الولد المعوق الذى ربما يصير هزأة بين العيال بسبب هذه العاهة فقد رضى بنصيبه عن طيب خاطر، عهد به إلى فقيه لتحفيظه سوراً من القرآن الكريم لعلها تنفعه فى أكل عيشه إذا ما ادلهمت فى وجهه الدنيا . إلا أنه أقبل على حفظ القرآن بسليقة مرهفة وبرغبة قوية فى إثبات الوجود بات أصغر طفل حفظ القرآن كاملاً عن ظهر قلب فى زمنه، تشجع أبوه فألحقه بالمعهد الدينى، فواصل التقدم بنبوغ مذهل فى علوم القرآن والحديث والشريعة حتى حصل على ثانوية المعهد؛ بقى أن يسافر إلى الأزهر الشريف فى القاهرة

ليكمل تعليمه العالى بحصوله على العَلمية ؛ والتعليم الأزهرى فى ذلك الحين جباله طويلة مطاطة لاتنتهى إلا لتشبك فى مراحل يطول فيها الحفظ والتسميع .

ولم يكن بمقدور أبيه أن يتشحطط وراءه فى بلد بعيد ولا أن يتركه وحده فى بلاد الغربة سنوات طويلة وهو فى احتياج لمن يرعاه ، على أن جدى حسن كان قد قنع بهذا القدر من التعليم . وإذا نوى أبوه أن يكلم واحدا من رجال الأمير أو الست هانم فى واسطة تلحقه بوظيفة فى وزارة الأوقاف أو حتى فى إدارة الوسية ، فاجأه الشيخ حسن بأنه قد نذر حياته لخدمة القرآن الكريم لا لخدمة أى أحد كائناً ما كان شأنه؛ لقد قرر أن يتوظف فى معية القرآن نظير راتب من رضاء الله، يا ابنى يهديك يرضيك، لا فائدة ، وقال لأبيه على سبيل الحسم النهائى :

– « أنا خلاص تلقيت جواب التعيين من هاتف هاتفنى
باسم الله فى غفوة ساعة السحر ! »

من غده صار يفكر فى استقطاب العيال الأذكياء النجباء لتحفيظهم القرآن الكريم . لقد رأى فى المنام أنه يرضع طفلاً من ثديه الذى فوجىء لحظتها بأنه كبير كثدى الأنثى ، وكان يضغط بأصبعيه على ثديه كما تفعل المرضعة فإذا به يستمع إلى خرير اللبن صوتاً يرتل القرآن الكريم؛ ولم يكن هذا المنام فى تفسيره الشخصى له إلا بمثابة أمر تلقاه بأن يرضع الأطفال قرآناً .

اقشعر بدن الأب والأم والأخوات من روعة المنام وقرر أبوه فى الحال أن ينزل عند رغبته، وبدأ دماغه يفكر فى البحث عن مكان يصلح لهذا الغرض بشرط أن يكون واسعاً ومحترماً وآمناً حتى يأمن الناس على عيالهم فيه، كما وأنه لايرضى لابنه الأزهرى الحافظ المجود بأن يكون صاحب كتاب من

هذه الكتاتيب المخنوقة فى دكاكين وعشش ويديرها جهلاء؛ ولكن أين يوجد هذا المكان ؟ إن دارهم فى سرة البلد من الداخل، وإن كانت داراً بالطوب الأحمر مستورة إلا أنها مقفولة على نفسها وبالكاد تتسع لهم، ثم إنه رجل متحفظ لايقبل أن يدهس داره رجال من أولياء الأمور يحبسون حرية حريمه. لحظتها كان جالساً على دكة من الخيزران تحت صفصافة في مواجهة مبنى الديوان، ذاك الذى يضم مكتب الناظر فى الطابق العلوى مع مكاتب الباشكاتب والكاتب والمهندس الزراعى، أما الطابق الأرضى فيضم زريبة كبيرة ومخازن للمحاصيل وباحة واسعة تتكوم فى أركان منها نوارج ومحاريث وقصابيات وطنبور؛ فى قعدة الأب تلك تكون السراية على يساره عبارة عن فيلا محندقة تزدهى الألوان على حوائطها وشبابيكها ما بين البنفسجى والوردى والأزرق والأخضر تحيطها غابة من الكافور والجزورين ودقن الباشا؛ تمتلىء بالحياة والحركة فى أزمنة الحصاد لأيام طويلة، فيما عداها نادراً ما تفتح إلا أن يكون أحد الأمراء غضباناً من شىء أو ربما من نفسه فيجىء ليمكث فيها بضعة أيام كما لعله سيحدث اليوم حيث تلقى الناظر الأب خبراً بأن تكون السراية جاهزة لاستقبال زائر مهم؛ لهذا جلس على هذه الدكة يترقب جميع الطرقات . وراء مبنى الديوان تركع بيوت العزبة، بيوت من الطوب الطين المخلوط بالتبن، عدة صفوف متوازية ظهورها للخارج، يسكنها عمال الوسية الدائمون : الباشخولى والخوله ، الغفر والحراس وفراشو الديوان والسراى، نجار السواقى والطنابير والنوارج ، علاف الماشية .. الخ ، لكل منهم عياله. الطريق الزراعى الآتى من كفر الشيخ إلى السراية أكل من أرض الوسية مساحة كبيرة بإرادة أصحابها من أجل توسيع الطريق وتمهيده وإيجاد باحة عريضة جدا كأنها الميدان تسمح للسيارات التى تجرها الخيول بالدوران على راحتها. وهناك على مدد

الشوف تقف - كالخازوق - بناية على مساحة كبيرة ، مجرد جدران مبنية بالحجارة ومسقوفة كانت قد بنيت منذ زمن بعيد جداً ولا أحد يعرف ماذا كان الغرض منها على وجه التحديد، زريبة ؟ فعلاً تشبه الزريبة، إسطبلاً ؟ ممكن ، عشة تستريح فيها الثيران الساهرة كي تأخذ دورها معلقة في شعبة الساقية؟ ربما ، أغلب الظن أنها كانت هكذا، المهم أنها تبدو بلا صاحب على الإطلاق، فطوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان في خدمة الوسية لم يسمع عن أحد يدعي ملكيتها، حتى المفتش وهو خبير بأملاك الوسية ولديه خرائط بكل سنتيمتر مربع في أرض الضيعة قال بعضمة لسانه إنها ليست من أملاك الوسية لأن المساحة التي تحتلّها ليست تدخل في أرض الوسية. رقص قلب الناظر الأب إذ وقعت عينه على هذه البناية المجهولة، قال في عقل باله : لن يظهر صاحبها الأصلي بالفعل إلا إن احتلها أحد وباشر الانتفاع بها ، وعلى كل حال فإنه لن يشغلها في بيع أو شراء أو تخزين أو ما شاكل ذلك من صور الانتفاع ؛ إنما سيجعل منها بيتاً لله لتحفيظ القرآن الكريم فإن ظهر لها مالك أصلي فيا دار ما دخلك شر وهذه دارك يا عم والسلام عليكم، ومن يدري؟ لعله يرعوي حين يرى أنها استخدمت في مثل هذا الغرض النبيل العظيم فيسكت أوحتى يقبل تأجيرها، ثم إنه طرب لفكرة بيت الله هذه وقال لنفسه : نعم ولماذا لاتكون اسما على مسمى؟ إن هذا يكون هو المدخل الطبيعي المضمون. وقد كان، من غد أرسل نفرا من العزبة قاموا بتنظيفها من الداخل والخارج وهم في غاية من الاستغراب من إهمالهم لهذه البناية على طول الزمن حتى باتت مرحاضاً لكل عابر مزنوق، ومخبأ للصوص المواشي، ودروة لرجل سافل مع امرأة خاطئة؛ جاء النجار فوفق لها باباً وبضعة شبابيك كانت فراغاتها مفتوحة في الجهات الأربع تصفر فيها الريح بتيارات الهواء المتصادمة فتحدث زئيراً مرعباً يوهم سكان كل

من العزبة والبلدة – وهى على بعد كيلو متر واحد من العزبة – بأن هذه البناية الخربانة تسكنها العفاريت والذئاب الجائعة. أنفق الأب الناظر بعض الأموال فى فرشها بالحصائر الجديدة، ودكة لابنه الفقيه، وبضع مساند وشلت وتكآت دبرها من ديوان العزبة ومن بيته ومن تبرعات أهل الله من رجالات الوسية ، أقام فى ركن منها تقفيصة مبنية بالطوب الأحمر بمثابة كنيف لقضاء الحاجة وفحت له بئراً تحته يتم نزحه من خارج الجدار الخلفى، صار شكل البناية مفرحا كأنما الأنس كله قد ملأ هذه البرحاية التى يعبرها الطريق الزراعى بثلاث تفريعات عريضات، واحدة تقود إلى باحة السراية، الثانية تمتد طولياً أو أفقياً فى طريقها إلى بلطيم ، الثالثة تنحرف يساراً إلى بلدتنا . ثم بدأ هو نفسه يقف على بابها واضعاً كفيه على أذنيه رافعاً عقيرته بالأذان للصلاة فى مواقيتها، فيجئ أهل العزبة وأهل البلدة المتواجدين فى الغيطان وقت الأذان لأداء الصلاة جماعة فيها ، وفى ظرف شهر واحد كان أطفال بلدتنا يتناثرون فى مجموعات تتلاقى مع أطفال البلدان المجاورة فى طريقهم إلى هذه البناية حيث جدى الشيخ حسن فوق الدكة فى انتظارهم ليحكى لهم – وإنه لأعظم الحكائين الذين عرفتهم – حكايات جاذبة مثيرة لخيال الأطفال ذات مغاز دينية وأخلاقية ، لفرط براعته فى الحكي – يقول أبى – كان الأطفال يعرفون المغزى دون أن يشرحه لهم من خارج الحكاية، وإذ تكون أدمغة الأطفال قد انتعشت بالحكايا القصيرة السريعة المشرقة يبدأ فى تحفيظهم سورة القرآن آية بعد آية ؛ وكان لشكله الغريب – يقول عمى زكريا – تأثيراً كبيراً فى جذب انتباه الأطفال إليه كأنه لعبة بشرية ممتعة، هو أيضاً كان على وعى بذلك فيمعن فى تلطيف نفسه حتى صادقوه وأخذوا عنه بشغف وحميمية . لم يكن فى الناحية كلها – يقول عمى أبو السعود – ثمة من مدارس على الإطلاق ، كما لم تكن كل الكتاتيب جاذبة

للأطفال فانهمرت قوافل الأطفال من كل حدب وصوب على الكتاب الجديد المقام في مكان صحى تحت الشمس وفى الهواء الطلق فى هدوء منقطع النظير . شيئاً فشيئاً علقت لافتة كبيرة بالخط الثلث بعنوان : دار المصحف الشريف لتحفيظ القرآن الكريم لمنشئها وحامل مسئولية التحفيظ والتجويد فيها خادم القرآن الكريم العبد الفقير إلى ربه تعالى الشيخ حسن أبو السعود حسن عقل الأزهرى .

المدهش حقاً - يقول أبى - أن أحداً لم يظهر على الإطلاق ليدعى ملكية هذه الدار، بل أن الدار أصبحت تعرف بكُتّاب العقالوة ، مما شجع الأب وابنه على تعديل الدار وتحويلها إلى ثلاث حجرات ينقسم عليها الأطفال بمستويات ثلاثة : المبتدىء في الحفظ .. الموشك على إتمام الحفظ .. التجويد . وكانت مباني البلدة تقترب من هذه الدار عاماً بعد عام إلى أن أحاطت بالسراى وبالعزبة بعد قيام ثورة يوليو وتوزيع الأرض على الفلاحين . وقد لعبت هذه الدار فى حياة هذه المنطقة دوراً عظيما، فما من إنسان نابغ فى علمه من نواحينا إلا وتلقى تدريبه الأول فى هذه الدار على يد الشيخ حسن عقل ، وما من إنسان يعرف القراءة والكتابة ويجيد قراءة القرآن فى صلواته إلا وقد تعلم فى كتاب العقالوة على امتداد أجيال وأجيال حتى بعد انتشار المدارس الإلزامية والابتدائية فى القرى ، كان الطفل لايصلح تلميذا حقيقياً إلا أن خرج من كتاب العقالوة إلى المدرسة الابتدائية مباشرة نظامية كانت أو أزهرية .

(٤) يوم الفرح الأعظم

يوم تخرج عمى أبو السعود فى دار المعلمين بتقدير متقدم نظراً لتفوقه فى مادتى التربية والحصص التجريبية ، قامت دارنا ودار القرآن معاً على قدم وساق. أبى فى دارنا وعمى زكريا فى الكتاب يستقبلان وفود المهنئين من أعيان البلاد الذين حفظوا القرآن على يد جدى الشيخ حسن عقل كما نبغ عيالهم فى الجامعة والأزهر بفضله ، ناهيك عن أهل بلدتنا وكلهم بلا استثناء ممن جلسوا أمام جدى حسن ولسعت خيرزانته الربراية أكتافهم ومؤخراتهم . الفحل الجاموس المذبوح فى حوش دارنا القديمة كان مبروكا فى نظر جدتى معزوزة، أكلت منه بلدان بأكملها وفاض .

ذلك يوم من أيام بلدتنا قد سجلته الذاكرة وتوارثته الأجيال شأن الحواديت التى تمكث فى الأرض لأن فيها ما ينفع الناس يحفزهم على النجاح جلبا للأفراح والليالى الملاح وتصديراً للزهو والفخار .

أما يوم تعيينه مدرساً فكان يوما عظيماً ارتفعت فيه الزغاريد مرفرفة كالأعلام فوق أسطح الدور من نسوان الحبايب والأقارب والجيران والرجال فى المساجد والغيطان والشوارع ودكاكين الخياطين والبقالين . وحتى فى سرادق العزاء . يومها راحوا يصافحون بعضهم بعضاً فى أريحية وسرور طافح على لحاهم وشواربهم وتقاطيع وجوههم الطفولية الإنسانية برغم تقدمهم فى السن، يباركون لكل من يلتقونه ، حتى العيال زأطوا فى الأجران كيوم العيد تتوفر فيه أعداد كبيرة تصلح للألعاب الجماعية التى

تبين لى فيما بعد أنها - حتى هى - ذات أغراض تربوية وأخلاقية عظيمة ولعلها كانت لوناً من المسرح الشعبى موروثاً من مصر القديمة مثل لعبة (لاينزل ولا يتزلزل) أو لعبة (الغراب النوحى) . كان العيال ، فيما يصف عمى موسى الذى كان طفلاً آنذاك، فرحين حقاً لفرحة أهاليهم، فحين يفرح الأهل لسبب من الأسباب تلين جنوبهم القاسية ويسهل عليهم تمرير المطالب وسرسبة الملاليم. يقول عمى جبريل تاجر المحاصيل لحساب العائلة تعليقاً على أخيه موسى خادم الثور إن أهالينا إذ يفرحون هكذا بنجاح ابن بلدتهم إنما هم فى الواقع يقيمون طقسا سحريا من أجل أن تتكرر الفرحة مرة أخرى لعلها تكون بشيراً بواحد من عيالهم؛ إنهم بفرحتهم بنجاح واحد من بلدهم يحرضون عيالهم على النجاح ..

كم من تعليقات دارت فوق مصطبة دارنا الداخلية فى الليالى المقمرة حين يتجمع الأعمام وكبار أبناء الأعمام والعمات القريبات من دارنا بعد صلاة العشاء؛ تنفجر الذكريات بعشوائية حميمة ساحرة وإن ضقنا بها أحياناً لقطعها تدفق الحديث عند نقطة غير مقصودة بسؤال من طفل أو بكلمة عابرة من أحد الجالسين أو لمجرد أن أحد الجالسين أراد عن عمد تغيير مجرى الحديث بذكر حادثة أو نادرة أو طرفة سرعان ما تستدعى مثيلات لها أكثر عمقاً أكثر طرافة أشد عبرة وموعظة. مع ذلك فإن هذه التفجرات العشوائية كانت مصدراً مهما لمعرفة الكثير من المعلومات التاريخية المهمة عن عائلتنا ولولاها ما قدر للعيال معرفة أى شىء عن تاريخ كبارهم الذين لايحبون لعيالهم أن يعرفوا عن تاريخهم أى شىء على الإطلاق اللهم إلا ما يريدون لهم أن يعرفوه وهو فى الغالب ليس يمت للحقيقة بأية صلة، أما هذه الذكريات المتفجرة فى تلقائية عبر حكايات وطرائف فإنها أقنعتنى منذ الصغر بأنها أدق منفذ لمعرفة الحقيقة الحقيقية كما أنها تحدث ما يشبه اللغط الثقافى أو المعرفى تعلق آثاره المفيدة - كالتمثيل الغذائى تماماً - بأذهان الحضور فتصيبهم جميعاً بعدوى اللباقة وسبك الكلام وانتقاء المفردات .

أما يوم الفرح الأعظم - يقول عمى زكريا - فكان يوم البدلة التفصيل حينما لبسها عمى أبو السعود فى دكان الخياط فى طنطا، الذى اشترى له القميص الافرنجى الحرير اليابانى ورباط العنق المسمى بالببيون الشبيبة بغصن الوردة، مع الحذاء الأسود على أبيض وهو تفصيل أيضاً ؛ إن لكلمة التفصيل احتراماً كبيراً فى أنظار أهالينا، لأنها تؤكد أن البدلة مقاسة على صاحبها بإحكام وليس ثمة من شبهة فى أن يكون استعارها أو شحذها أو اشتراها من سوق الكانتو .

يومها دخل بها البلدة فى زفة كبيرة، مكونة من جدى حسن وأبى وعمى جبريل الذين حرصوا على مرافقته فى السفر إلى طنطا على اعتبار أن الحدث عائلى بالدرجة الأولى ويجب أن ينال كبار العائلة شرف المشاركة فيه، ثم كان عمى موسى فى انتظارهم على محطة كفر الشيخ بالركايب؛ ولقد أسهب عمى موسى فى وصف النساء اللائى كن يحملقن فى شخصية الراكب ظناً منهن أنه واحد من الحكومة أو أحد باشوات وسية محمد على توفيق، وإذ يلاحظن فى محيط الركب جدى حسن بشكله المميّز يتعرفن على شخصية الراكب فيزغردن . حينئذ تعلق جدتى معزوزة مشوحة بذراعها المعروق فى فروغ بال :

- « النسوان فى بلدتنا يزغردن عمال على بطال ربنا يبارك
فى أصواتهن فإنهن شربات الفرح ! .. ولا فرح بغير
زغاريد كما لاطبيخ بغير ملح ! »

جدتى معزوزة برغم كهولتها لاتزال هى الأخرى قادرة على الزغردة غير أنها لا تزغرد إلا إن هزها حدث جلل ، ونجاح أى حفيد من أحفادها ولو فى أعمال السنة الدراسية هو عندها ذلك الحدث الجلل، فإذا بخيال المأتة حى فى عنفوان صحته، وإذا بالزغرودة كلاسيكية فى رنتها المجلجلة المبهجة وفى طول نفسها ، زغرودة كصوت الشوكة الرنانة يبقى فى الأذن طويلاً بعد انداحه فى الأفق البعيد .

(٥) مديونية الربان

ما أن التحقت بالمدرسة الابتدائية حتى صرت تابعاً لعمى أبو السعود أفندى، فى كعبه أينما ذهب، أقضى له مشاويره الخاصة . إن صاحب دكان البقالة لن يصدق أحداً غيرى إذا جاءه يطلب علبة سجائر كوتاريللى على حساب أبو السعود أفندى؛ ذلك أن التقييد في دفتر الشكك يقتضى مرسالاً رسمياً معتمداً من العائلة ومنه وكنت أنا هذا المرسال. أما أعمامى فلكل واحد منهم نصف ربع أوقية دخان فرط كل يوم ولابد أن يذهب بنفسه إلى البقال ليقيدها بخط يده إذ إن المحكمة - لا قدر الله - تأخذ بدفتر الشكك هذا كأنه صك أو كمبيالة يترتب عليها استصدار أمر أداء من المحكمة على يد محضر يقوم بتسليمه للمدين يداً بيد، فإن لم يدفع بالتي هى أحسن يتم توقيع الحجز على ممتلكاته ثم بيعها فى مزاد علنى فإن أوفى البيع بحق الدائن كان بها وإن نقص عاود الحجز عليه مرة أخرى وثالثة ورابعة إلى أن يأخذ حقه على داير مليم فوق هذه البهدلة والفضيحة . أما طلبات الدار من سكر وشاى وشطة وكمون وفلفل وزيت وجاز وزجاج وشرائط لمبات الجاز، وإبر بوابير وحلاوة طحينية فى شهر رمضان.. إلى آخر هذه الاحتياجات اليومية العاجلة فإنها كلها من اختصاص أبى وهو أكبر إخوته وإن لم يكن عميد العائلة؛ به يضمن الجميع أن أحداً لن ينتهز دفتر الشكك

ويجرّ لحسابه طلبات شخصية خاصة به تدفع العائلة ثمنها فتختل الموازين في الدار..

ذلك أن عمى أبو السعود أفندى منذ تعيينه معلماً فى مدرسة الحكومة رصد مرتبه الشهرى لاحتياجات الدار من كافة المشتريات طوال الشهر؛ لا يقتطع منه إلا النذر اليسير لمصروفه الشخصى الضرورى كأجرة السفر إلى المديرية أو زنقة حرجة على مقهى فى البندر أو ما إلى ذلك؛ فى مقابل أنه يأكل ويشرب ويكتسى من محصول الدار فضلاً عن أنه قد أنفق على تعليمه الكثير مما يعتبر حقوق إخوته الذين لم يكملوا تعليمهم لسبب أو لآخر وذلك دين فى عنقه لابد أن يرده الصاع صاعين . والواقع أن جدى حسن كان حصيفاً حينما تنازل له عن قيادة الدار فى حياته ، منها توقير لولده الذى أصبح باسم الله ما شاء الله شخصية مرموقة ، ومنها خلاص من وجع الدماغ ، ومنها كذلك اطمئنان على حسن قيادة الدار بعد رحيله .

هذا ما قد حدث بالفعل؛ فحينما رحل جدى حسن بعد استمتاعه – كما كان يردد باستمرار أثناء وعكته الأخيرة – بطول العمر حتى رأى الثورة الأكبر من ثورتى عرابى وتسعتاشر ، وشاهد بعينيه الملك يتنازل عن عرشه ويغادر البلاد ، والاحتلال الإنجليزى يلم خرقه وهلاهيله ويغور فى ستين داهية، وإلغاء الألقاب ، ورفع رءوس الفلاحين والعمال والفقراء .. سارت الأمور فى دارنا على خير مايرام: عمى زكريا مختص بالكتاب وحصيلته فى الشهر عدة برايز قلما تجاوزت الجنيهين بعد دفع الإكراميات الرمزية لمن يؤدون حصصاً .. أبى مختص بشئون الزراعة ، وتسديد حسابات القطعة المستأجرة ، وشئون الأنفار ، وميسانية النجار والحداد والحلاق وخادم المسجد وبائع العسل وكلها أجور متفق عليها تدفع من المحاصيل .. عمى

جبريل يلعب فى أسواق البُلدان يبيع مازاد عن حاجة الدار من محاصيل ويشترى مانقص منها، يدبر لبيع محصول القطن بسعر مرتفع يستلزم خبرة فى اختيار وقت البيع ومناورات مع التجار .. عمي موسى مختص بالزريبة بما تحويه من بقرة وجاموسة وثور يستأجر للتعشير،وحمارين للركوب وبغلة للسباخ ونقل الأمتعة والدوران فى الساقية .. وكان جدى حسن قد حضر زواج اثنتين من عماتى، عمتى مسعودة عقل التى تزوجت من السعيد أبو بكر تاجر الحبوب الميسور، وعمتى عزيزة عقل التى تزوجت من إبراهيم الشامى الغنام صاحب قطعان هائلة من الأغنام ؛ بل حضر مولد حفيديه منهما ؛ أما عمتى خديجة عقل فقد تزوجت بعد رحيله من عبد الحسيب الشربتلى الفرارجى ابن عم لحوالى مائة زلمة اسمهم الشربتلى كلهم فرارجية وتجار بيض ، وكان زفافها أوسع من زفاف شقيقتها بحكم هذا العدد الهائل من الأزلام الشربتلية المشهورين جميعهم بخفة الظل وتأليف النكت الحراقة اللاسعة إلى حد القرص الموجع المؤلم.

كل قرش يدخل دارنا من أى مصدر يتجمع فى دولاب الحائط فى حجرة جدتى معزوزة حاضنة البنات جميعهن مفتاح الدولاب مربوط في ضفيرة شعرها الذى بات يطرد الحناء فصار لونه كلون ورق الشجر الجاف حين يسقطه الخريف ، تخفيه تحت الطرحة السوداء التى تتبشنق بها. ولا أحد يعرف مقدار الفلوس فى دولاب جدتى معزوزة حتى هى نفسها رغم أنها أمينة الصندوق ، الوحيد الذى يحسبها بالمليم والسحتوت هو عمى أبو السعود ، كثيراً مايفاجئنا طالباً من جدتى معزوزة طلباً على هذه الصيغة:

– «يامه! فاضل عندك فى الدولاب مائة وسبعون قرشاً وثلاثة مليمات وخردة !.. أعطنا منها

خمسين قرشاً لكراء أنفار ويتبقى عندك مائة

وعشرون قرشاً وثلاثة مليمات وخردة!».

ولما لم تكن جدتي معزوزة تعرف حساب ما في حوزتها، ونظراً لتوجسها الأبدى من مسئولية الفلوس وتوقع نقصانها والخوف إلى حد يمغص بطنها من نفادها كلها ذات لحظة، فإنها تتكىء بكفيها على ركبتيها وتدفع نفسها واقفة، تمشى محنية الهامة قليلاً، تفتح الدولاب، تقبض على الصرة كلها وتأتى بها، ترمى بها فى حجر عمى أبو السعود ، يتلقفها ، يفكها بصعوبة الكسكرة بعديد من العقد، يفرطها فى حجره على الملأ، يعدها أمامنا فلا تزيد ولا تنقص نصف مليم على الإطلاق، يأخذ الخمسين قرشاً يناولها لأبى عبد العال، يبرم الصرة على ماتبقى ، يعقدها من جديد بكسكرة كأنها لن تفك ثانية ، يسلمها لجدتى معزوزة فتحضنها فى صدرها مرددة : اللهم احفظها من الزوال وأدمها نعمة، تقفل عائدة إلى الدولاب فترقدها فى ركن ثم تتحسسها بأناملها عدة مرات لتتأكد من أنها محطوطة فى مكانها، تغلق باب الدولاب وتشده من المقبض تختبر إن كان أغلق بالفعل أم لا، تعود إلى قعدة المصطبة الداخلية التى تعشقها وسط عيالها وأحفادها الكثار . تكون جدتى معزوزة فى ذروة انتشائها بالفرحة الكبرى مرة فى كل عام وهى تسلمهم من دولابها - شأنهم وهم أطفال - مصاريف الكسوة السنوية للدار كلها عقب بيع محصول القطن مباشرة..

فى دارنا خمسة رجال، وست نساء، يصرن تسعاً عند حضور عماتى لزيارتنا، وتسعة وعشرين ابناً وابنة : ست بنات وولدين لعمّي زكريا، خمسة صبيان وبنتين لأبى، ثلاثة صبيان وثلاث بنات لعمى جبريل ، ثلاث بنات وولد لعمى أبوالسعود أفندى ، ولدان وبنتان لعمى موسى فى دار تتكون من مندرة كبيرة مطلة على جرن واسع مشهور باسمنا: جرن العقالوة، مع أنه ليس من أملاكنا، وتسع قاعات تطل على فناء داخلى مسقوف، وحجرتين داخلتين

فى الجنينة امتداداً لدويرة الفرن تتمتعان بميزتين مهمتين : حرارة الفرن تنفعهما طوال الشتاء، ونسيم الجنينة ينعشهما طوال الصيف. فى هاتين الحجرتين المفتوحتين على بعضهما بواسطة باب بدرفتين، ينام كل عيال الدار قاطبة ، البنات مع جدتهن معزوزة فى الحجرة المكنونة التى يوجد بها ترباس الباب الداخلى تقوم جدتى بسنكرته بعد صلاة العشاء مباشرة ، أما نحن الصبيان فنرتع فى الحجرة المتطرفة فى عمق الجنينة بينها وترعة خلاف قطيع من الأشجار الكثيفة يؤنسنا فى الليالى المقمرة ويتحول إلى أشباح مخيفة فى الليالى الحالكة وبخاصة ليالى الشتاء الطويلة وياللرعب إذا هطل خلالها المطر لعدة ساعات كما يحدث دائماً. فى حجرتنا هذه مهما أخذنا حريتنا فى الكلام والدردشة وقول النكت القبيحة نبقى فى اضطراب من فرط التوجس حيث أن حجرة عمى أبو السعود أفندى هى تلك المطلة على الجنينة وهو لاينام قبل أن يتمطرق على المصطبة تحت شباكها يدخن بشراهة ويستمع إلى آخر الأنباء فى محطة صوت العرب. أثناء الدراسة نذاكر كلنا فى هذه الحجرة الواسعة جداً حيث يوجد أربعة مصابيح غازية فى أركانها الأربعة على رفوف خشبية وكلها مصابيح نمرة عشرة يعنى لدينا ضوء أربعين شمعة ، فإن أصاب الإعياء أحدا قام وخفض شريط المصباح المتاخم له فيغمض الضوء عينيه فيأخذه الوسن. ما أجمل أن نساعد بعضنا بعضاً عند اللزوم؛ يحلو لعمى أبو السعود أفندى – ولو فى عز الليل – أن يكح بصوت عال دونما لزوم للكحة إلا أن يُشعرنا بأنه صاحٍ لنا يرقبنا من تحت لتحت ، وفى نفس الوقت يغرينا باللجوء إليه إذا ما كنا واقعين فى مسألة حسابية أو جبرية أو هندسية معقدة ، أو مختلفين على شرح بيت شعرى عويص لأبى العلاء المعرى. كان كثيراً مايمن علينا فى الليل زمن الإمتحانات عارضاً خدماته : عاملين إيه؟

ثم يجلس على طرف واحدة من الكنب البلدى المتعدد تحت الحيطان وفى الوسط أو يتربع فوق الأرض على حصير متكئاً على مسند قطنى. وجوده عندئذ فيه أنس ومنفعة، كل كلمة يقولها حتى وإن كانت طرفة مازحة لابد وأن نستفيد منها معلومة أو فكرة أو معنى. منذ قيام ثورة يوليو وهو مفعم بمشاعر متفجرة بالحب تجاه عيال الدار وعيال البلدة كلها، لايترك فرصة سانحة إلا ويهنىء العيال بحلول عصرهم الباسم المشرق بالآمال العراض، فأن يتنازل فاروق عن عرشه بهذه البساطة، ويرحل الإحتلال الإنجليزى، ويتوارى أقطاب الفساد السياسى فمعنى هذا يا أولاد أن ماكنا نسميه قبلاً بالمستحيل قد مات؛ وإذ يصبح جمال عبدالناصر ابن البوسطجى رئيساً للبلاد فهذا معناه أن واحداً منكم فى القريب العاجل يا أولاد يمكن أن يصير رئيساً مثله للبلاد؛ نصيحتى لكم يا أولاد أن يجتهد كل واحد منكم واضعاً فى اعتباره أنه قد يقع عليه الاختيار الشعبى ليكون رئيساً للجمهورية أو للوزراء أو لأية مؤسسة وطنية فى بلادكم.

(٦) ليمونة فى بلد قرفانة

يبعثنى عمى أبو السعود إلى دكان محمد حسين المكوجي الوحيد فى بلدتنا ، دكانه أشبه بكوخ واطىء على جزء ضئيل من مساحة اقتطعت من الشارع فى زمن قديم وفاتت على الجميع بما أن الشارع لولبى بطبيعته وبصورة مدوخة، باب الدكان فى مواجهة باب بيته الهابط عن أرض الشارع بدرجة جعلت البوابة تبدو كأنها غائصة فى الأرض، المهم أن محمد حسين - وهو نصف أفندى بقميص أفرنجى وبنطال - فى استطاعته وهو محنى على ترابيزة الكى أن يسرب عينيه اللوزيتين الواسعتين إلى قلب داره عبر البوابة المفتوحة فيرى كل مايدور فيها بل ويمكنه التفاهم بالعينين مع من تلتقيه العينان فى وسط الدار على كل مايطلب ويريد بغير كلمة واحدة، فإن هى إلا دقائق ويأتيه من يحمل براد الشاى أو ملابس كانت منشورة فى الحوش، وقد توارب البوابة عقب نظرة من نظراته إذا كان فى الدكان شاب فارغ العينين نجس الذيل.

يحملنى إحدى بدلاته الثلاث لأخطف رجلى بها إلى المكوة لتكون جاهزة للبس مساء غد الجمعة تبيت مكوية فى الدولاب لصباح السبت. يُرَبِّتُ على كتفى بحنان غامر ويقول:

- «العقبى لك أن تروح للمكوجي ببدلتك لما تكبر!.. إن شاء الله تكون بدلة تفصيل معتبرة!»

لعمي أبو السعود أفندي فلسفة حكيمة في الملبوسات بوجه عام: هدمة واحدة تفصيل من قماش أصيل محترم أبرك من مائة هدمة سوقية رخيصة..

لكن ما كان يحز في نفسي ولم استطع ابتلاع وضعه المؤلم هو أن يكون عمي أبو السعود أفندي بجلالة قدره لم يكن يملك إلا ثلاث بدل لا يصلح للاستخدام منها سوى اثنيتين فحسب منهما واحدة يزداد منظرها كلاحة عاماً بعد عام.

العجيب حقاً أن أهم بدلة في هذه البدل الثلاثة هي تلك البدلة التاريخية المشهورة ربما في منطقة كفر الشيخ بأكملها. عمرها آنذاك يتجاوز ربع قرن من الزمان؛ من حسن حظها أن نظام الدواليب كان مستحدثاً أيام زواج عمي أبو السعود؛ ذلك أن شوار العروس في الريف كان قبل ذلك يعتمد على السرير ذي العمدان والناموسية ومرتبة ولحاف ومخدتين وبوريه عبارة عن عدة طوابق من أدراج عرضية وعلى سطحه رخامة ومرآة بعرضه إن كان مستوى العروسين ميسوراً، وعلى المرتبة فحسب مع اللحاف والمخدتين فوق حصير مع صندوق بغطاء جملون مقوس على الشكل الفرعوني. وعند زواج عمي أبو السعود أفندي في الشهر الأخير من العقد الثالث من القرن العشرين كان نظام الدواليب قد بدأ ينتشر لدى طبقة الأفندية وأبناء الطبقة المتوسطة الزراعية بوجه عام باعتباره الأنسب لتعليق البدل والفساتين محتفظة برونقها لا تلحقها التجاعيد ولا البهدلة. كانت حجرة نوم عمي أبو السعود أفندي مكونة من سرير نحاس بعمدان مضلعة وناموسية ومع المخدتين خداديات صغيرة وملاءات وبياضات، وبوريه بمرآة عريضة،

ودولاب للملابس ، وترابيزة مائدة برخامة بيضاوية مع ستة كراسي خيزران، وكرسي عباس لصينية القلل، وثلاث كنبات بلدى منجدة، وطشت كبير لغسيل الهدوم ومجموعة من الحلل من النحاس . الدولاب كان مرتفع القامة، مدهون بالأويمة ذات اللّون البنى اللميع، مكون من جانبين ووسط، الجانبان الأيمن والأيسر كل منهما بدرفتين كل منهما مبطنة بمرآة ، كل جانب بداخله عارضة كالعصا لتعليق الشماعات ومن فوقها رف للملابس الداخلية، أما الجانب الأوسط فمجموعة طوابق من الأدراج حتى منتصف القامة أما بقيتها فمرآة أمامها فراغ سطح الأدراج توضع فوقه لعب وبراويز أنتيكات؛ قد أخذ عمى أبو السعود الجانب الأيمن ، أخذت خالتى تفيدة زوجه الجانب الأيسر . البدل الثلاث معلقة، كل بدلة تلبسها بياضة كبياضة المخدات والكنب ؛ صنعت خصيصاً لها من ثياب مهجورة كى تحميها من الغبار والعنكبوت والعتة..

فى العادة كان عمى أبو السعود يناديني قائلاً :

– «خد البدلة الرصاصى وديها للمكوجى عشان
تلحق تروح تجيبها منه بكره!».

أو :

– «خذ البدلة البنى وديها للمعلم فرحات الخياط
يقرط على الزراير ويصلح العراوى المتآكلة!».

تلكما هما البدلتان اللتان ضجتا من حرارة جسده ولسع المكواة طوال سنوات وسنوات ، يتم غسلهما مرة كل عامين بمعرفة محمد حسين المكوجى العتيق الذى تعلم أصول الصنعة فى دسوق ثم عاد ليمارسها فى بلدته فكان – كما يقول المأثور الشعبى –مثل ليمونة فى بلد قرفانة . يقوم بتسريح الجاكيت بالإبرة الطويلة وخيط السراجة الواهن ، فى غرز واسعة، وذلك

لتثبيت حشو الصدر والكتفين والبطانة ، ثم يطرحها فوق تمثال خشبى لجسد فوق حامل معدنى موضوع فى قلب طشت الغسيل، يغمرها بالماء النظيف يرغى فوقها الصابون النابلسى بغزارة كثيفة؛ بالفرشاة الخشنة الناشفة يروح يكحت الرغوة هابطاً بها بحرفنة ومعلمة، تنزل كتل الصابون كطين الشوارع بعد هطول المطر ، مرة ومرتين وربما أربعة وخمسة إلى أن تنزل المياه نقية صافية . أما البنطلون فيطرحه فوق طاولة مدببة يلبسها فى رجل البنطلون، والطشت من تحتها يتلقى سيولة الوسخ المتدفقة. على يمينه - فوق كرسى - جردل أو حلة ملآنة بالماء يغترف منها بالكوز النحاس ذى الخصر الرفيع واليد المخروطة.

توضع الجاكت بحاملها فى حوش داره تحت وهج الشمس؛ البنطلون يطوى متدلياً بالمشبك فى حبل ممدود بعرض الحوش. بعد عدة ساعات تجف تماماً . كثيراً ما كنت أذهب إليه مساء الجمعة لاسترداد البدلة التى سيرتديها عمى صباح الغد فأجده لايزال يكافح فى فردها تحت الفودرة الشائطة والعرق يتصبب من جبينه ويديه فيطشطش فوق الفودرة والمكواة فتبدو قطرة العرق هنا أو ها هنا كحشرة حية توحوح إذ يعجنها اللهب. كان يفرحنى أن رأيت رجلاً يعمل بذمة وضمير وحب للمهنة وللهدمة التى يكويها فلا يسمح لها بالخروج من بين يديه إلا وهى كالعروس المجلوة ليلة عرسها، يضعها فى شماعتها، يلبسها بياضتها التى تكون قد غسلت هى الأخرى بيد خالتى تفيدة قبل أن آتى بها معى درءاً لغبار الطريق ووحله. بجدية وبلهجة خطيرة من صوت عريض رنان مسيطر يروح يوصينى بأن أجعل بالى من الطريق وأمشى محترماً لا أعاكس الكلاب ولا أمازح العيال حتى تصل البدلة إلى صاحبها نظيفة آمنة . أعرف أنه يعرف - بل ويكاد يعتذر عن ذلك - أن الطريق إلى دكانه شائك فيه الكثير من الوعورة يعنى لا مفر أمامى من

دخول سرداب لولبى تنام فيه الكلاب فى زُقْم الحوداية كالخديعة فأدوس فوقها دون أن أدرى فتهب فى وجهى باحتجاج أو تعوى بألم، إذ إنها تعرف أننى متودِّك بالكلاب ولا أنزعج ولا أجرى فتتأكد هى أننى سيد ولست مطارداً جباناً؛ إلا أننى أنعى هم الخرابة العتيقة التى لابد أن أخرم من قلبها على الدكان مباشرة ، كلابها بلطجية قطاع طرق يتصيدون الفئران والثعابين والعقارب وكل من يصدقهم ويجرى منهم، يلهمنى الله دائماً أن أبصق فى وجوههم فيتراجعون فى الحال آذانهم وذيولهم مدلاة.

فى السنوات الأخيرة كنت أدخل على عمى أبو السعود فى باكورة الصباح كى أصب له الماء بالإبريق ليتوضأ ثم أصلى الصبح وراءه. أراه عندما يشرع فى اللبس، يفتح الدولاب فى سأم، تنطلق رائحة النفتالين المخزونة مع رائحة العرق القديم فى أنسجة الثياب . يقف حائراً وهو ينقل البصر فى اشمئزاز واضح بين البدلتين، يتجسد الحزن والألم على وجهه إذ يترك هذه ويمسك تلك، ثم يتركها ويمسك بالأخرى. قد يمسك بالبدلة العتيقة يكشف عنها البياضة ناظراً فى قماشتها التى تفح بالأصالة وتنبعث منها رائحة الصوف كأنها جديدة بلونها الأزرق الداكن المهيب، يحركها يميناً ويساراً كأنه يجرب قياسها على جسده المتضخم فى مرآة الوسط؛ وإذ تبدو بالبداهة صغيرة على جسده الحالى بكرشه القابب يعيدها إلى مكانها وقد التوت ملامحه كأنه يعانى من مغص حاد؛ يبدو عليه القهر الشديد وهو يسحب إحدى البدلتين بحركة تكاد تنطق بـ : أمرى إلى الله. يلبس القميص المطروح فوق الجاكيت، ثم البنطلون الذى يصعد حزامه إلى ما يقرب من منتصف كرشه، تتجسد المنطقة السفلية بصورة بارزة يشوبها ظل من القبح يمد ذراعيه إلى الخلف لأساعده فى ارتداء الجاكيت، يضبط ربطة العنق التى لا علاقة لها بموديلات الأربطة التى نراها فى صور الجرايد والمجلات؛

لكن منظره ينصلح فى الحال يصير إلى كثير من الإتساق. يعيد النظر إلى نفسه فى المرآة، تأتلق صفائح الدم فى بشرة وجهه الدائرى الكبير ذى الصدغين المكتنزين حيث الخدين مقنبعين كحبتى البطاطس بنفس اللون، يهبط ظلهما بحذاء أنف طويل أفطس منخاراه باركان فوق حنك واسع مفوه، تحت الخدين غمازتان مربوطتان بأعلى الخدين بخيطين رفيعين ، إذا ضحك يغوصان فى الصدغين . الاشمئزاز على وجهه وعلى شفتيه يقول إنه مستاء من هذه البدلة العجوز المتهالكة الجربانة وثنية الياقة خلف الرقبة مقروحة بشريط من الوسخ المسود كأنه ضمن نسيجها كما أن العروة فوق الصدر تآكلت خيوطها؛ كذلك البنطلون بات وارماً عند الركبتين كما أنه شالح من الخلف قليلاً. هى مع ذلك ليست أسوأ من زميلتها، كلتاهما لاتليق بناظر مدرسة ابتدائية تأكدت ترقيته إلى مفتش فى العام الدراسى القادم.

أرى ذلك وأكابده فى سنى المبكرة تلك، أحزن لحزن عمي وشعوره الواضح بالقهر والاستياء والألم من فرط إحساسه برثاثة ملبسه.. فأعجب كيف وهو عميد هذه العائلة الكبيرة، رب هذه الدار وسيدها وكافى جميع أفرادها بالكسوات الجديدة المحترمة ثم يتأخر كل هذه السنين فى تفصيل بدلة جديدة تليق بشخصه ومركزه وعمادته لعائلته؟!. يبدو أنه كان يشعر بما أفكر فيه، يبتسم لى فى المرآة وهو يحاول تعديل رباط العنق قائلاً فى لطف:

– «تعرف تربط الكرافتة يابو علي؟ لابد أن تتعلم ربطها!.. أم أنك لست تنوى أن تكون أفندياً معتبراً؟!»

ثم يعطينى إشارة بإطلاق سراحى، أسرع بارتداء ثياب المدرسة ريثما يتناول لقمة سريعة مع كوب الشاى بالحليب.

(٧) سقوط هيبة اللقب

بعد قيام الثورة كثر عدد الأفندية في بلدتنا ؛ كل من يلبس طربوشاً على جلباب يطلق عليه الناس لقب الأفندى .

ومن يحب إقناع الناس بأنه أفندى عن جدارة واستحقاق فإنه يلبس الجاكيت فوق الجلباب أو فوق المنامة المسماة بالبيچامة .

كان ذلك يغيظ أبى ، يعتبره نوعاً من السرقة يجب أن يعاقب عليها القانون سيما وأن الثورة المباركة ألغت الألقاب ، فأن يجىء هلفوت لا أصل له ولا فصل يشترى من سوق الكانتو چاكيت وطربوشاً ليسرق لقب الأفندى، فتلك فى نظرة فوضى مابعدها فوضى ، لكننى كنت ألمح وراء غضبه غيرة على العائلة التى نالت اللقب عن جدارة ،أى أن هذه الفوضى تنتقص من حق عمى أبوالسعود أفندى .

إذ تجىء السيرة فى قعدة العائلة بعد صلاة العشاء فى المندرة يقول عمى جبريل واضعاً المسند تحت مرفقيه هاتفاً فى دهشة :

– «يا أخى الثورة منعت الألقاب فإذا بها تنتشر عل ألسنة الناس كاللبانة! أشد مما لو كانت مباحة !» .

يشوِّح أبى عبدالعال فى نبرة عراك حقيقى كأنه يدافع عن شىء من ممتلكات العائلة :

- «الناس ماصدقت ! .. الألقاب كانت كأنها محبوسة فى قمقم لايصل إليه ولا يفك سحره إلا من كان اللقب مكتوباً له فى اللوح المحفوظ ! لكنها اليوم زاطت ! .. أصبح العدد فى الليمون كل عشرة أفندية بقرش تعريفة أو بكوز ذرة ! لكن ثلاثة بالله العظيم أنا لا أنطقها أبداً إلا لمن كان أفندياً بالفعل قبل الثورة ! بلاش مسخرة وقلة حيا» .

البسمة الرهيفة المراوغة ترعش الشفاه تريد أن تصير ضحكة مسموعة لكن شيئاً من الحياء العائلى المجامل يوقفها عند حدها ، ذلك أن جميع أهل دارنا يفهمون مغزى هذه الغضبة ، يعرفون أن أبى مقروف فى الأصل من صهرنا محمد أفندى عمرو الذى دأب منذ صغره على مطاولة عمى أبوالسعود أفندى يزيد أن يكون رأسه برأسه أفندياً مثله على ألسنة الناس حتى وإن كان بالكذب والتلفيق ، الإكادة - فى نظر أبيه - أنه قد تحقق شيء مما أراد ، قد كان كاتباً للأنفار فى الوسية فى عز مجدها قبل الثورة ، الفضل يعود لجدى حسن الذى علمه القراءة والكتابة والحساب وفشل فى تعليمه القرآن كاملاً ليكون هو النقطة السوداء الوحيدة فى ثوب جدى حسن الأبيض الناصع طوال تاريخه ، وكان جدى حسن يصاب بتوتر نفسى كلما رآه ، وحتى بعد أن بات رجلاً ملء هدومه يلبس الجلباب الصوف والطربوش كان جدى حسن كثيراً ما يرفع العصا ويهم بضربه بها على أم رأسه الدائرى الكبير المنبعج الجوانب مثل قدرة الفول المدمس الفخارية السوداء ، ويبقى محمد أفندى مرعوباً من فزعته تلك لوقت طويل إذ هو على قناعة بأن جدى حسن يمكن أن يفعلها بكل بساطة بل إنه ياما فعلها فى دار القرآن بسبب تخانة مخه وإغلاقه دون القرآن الكريم مع أنه مواظب على الصلاة ! ..

بعد قيام الثورة وانفضاض الوسايا وبطلان المعيات كان محمد أفندى عمرو قد أصبح معروفاً فى دائرة الموظفين فى محافظة كفر الشيخ ، ذات يوم استقبل مرشح الدائرة فى داره ومشى معه يسانده فى الدعاية هاتفاً بشعار ألفه فلقى استحساناً كبيرا :

«فوقى يا دايرتنا فوقى وانتخبى ابن البرقوقى» ، فلما نجح النائب مغازى البرقوقى عينه مساعد مساح فى مصلحة المساحة ، ومنذ أن لبس الجلباب الصوف ومن فوقه المعطف الجبردين وعلى رأسه الطربوش وامتطى ركوبة خاصة أصبح يستمرى لقب الأفندى حينما ناداه به العامة الجهلاء ممن لم يدركوا بعد أن ثورة قامت فى البلاد وطردت الملك والإنجليز ومنعت الألقاب ، ثم شاع اللقب ورخصت قيمته لدرجة أن من كان أفنديا رسمياً بحكم منصبه أصبح لايستسيغه إذا نودى به مثل عمى أبوالسعود الذى كان يفضل أن ينادى بالأستاذ .

(٨) ذاكرة المودة

يلوح لى أن العلاقة بين أعمامى وأصهارنا العماروة تعانى من قروح قديمة يبدو أنها كانت فى الأصل جروحاً عابرة تركت للزمان بدون علاج فالتأمت القشرة السطحية وتماسكت لكنها بقيت مشوبة ببقع ذات لون داكن هو على الأغلب لون الصديد المختبىء تحتها ، باتت تسبب وجعاً فى القلوب إذا لامسها حديث أو عتاب أو سوء فهم لكلمة أو سلوك من أحد الطرفين .

لعل المذهل بالنسبة لى أن الغضب من أى من الطرفين مايكاد يصل إلى ذروة معلنة على الملأ حتى يؤوب إلى سكون مفاجىء ، كأن ثمة رادعاً مجهولاً يمسك بيده بخاخة خفية ترش على الوجوه ستارة من حياء مخملى ، تنطفىء الشرارة الشريرة فى العيون المهيضة ، تتقطّم إيقاعات المفردات القاسية تؤوب إلى استعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

قد يدركهم أذان العصر أو المغرب أو العشاء لحظتئذ ، فتلهج الألسنة تلقائياً على الفور بهتاف :

الله أعظم والعزة لله ، فى الحال يتقدم واحد من أعمامى ، فى الغالب يكون عمى زكريا ، يؤم الصلاة ، عند التسليم يمينا ويسارا تمتد الأكف لتصافح بعضها بعضا .

إن هى إلا برهة وجيزة تدخل بعدها جدتى معزوزة - (الخناقات تبدأ دائماً فى الخارج ولا يتم تصفيتها إلا فى دارنا) - أو من ينوب عنها

من بنات الدار ، حبذا لو كانت ممن يتعلمن فى المدارس ، حاملة عدة الشاى ومعداته على صينية نحاسية ، فيشمر عمي موسى ذراعيه ساحباً وابور الجاز البريموس ، يغلق محبسه ثم يعطيه نفساً بالكباس ، ثم يتلقى الصينية فيضعها فوق مسند نائم ، ما أن يشعل الوابور حتى تستنشق الأنوف رائحة الجاز المحترق ممزوجة برائحة الشاى المطبوخ ، من فرط حميميتها يسمونها فى بلدتنا : زردة شاى ..

من عجب أننا لانستمتع بالاستماع إلى حكايات حميمة من تاريخ العائلتين إلا فى مثل هذه اللحظات التى تعقب هبات الغضب ، لكأن نوة الغضب تنشط رياحها الهوج بقوة فتنسف ما فوق بؤر الذكريات من ركام وأتربة وبقايا هديم من أبنية العهود والأيام المخوخة ..

أنشط الذاكرات ذاكرة عمي زكريا ، ربما لأنه ولوع بالتاريخ والأنساب وذكر أيام العرب، يكاد يعرف كل شىء عن عائلات بلدتنا وبلاد الناحية كلها، بل العجيب حقاً أنه يعرف ماقد يجهله البعض من أبناء عائلات عن أصهار لهم وأقرباء فى المنطقة الفلانية .

كثيرا مايفاجىء أحد المتحدثين عند اندماجه فى سكة ستقود حتماً إلى الغلط والتلبيخ ، يلحقه قبل أن تقع الكارثة ، يقول على سبيل التذكرة اللطيفة:

– «على فكرة يافلان ! فلان الفلاني هذا هو خال فلان الفلانى !.. ابن عمة علان الترتاني !.. أبوه متزوج من بنت فلان !.. إلخ !» .

ذاكرة عمي زكريا ، المولود بعين واحدة سليمة والأخرى مجرد بؤرة مغطاة بجفنين ذابلين ، صاحبة فضل كبير جداً فى وأد معارك فى مهدها لمجرد أنه قد نبه الأطراف المتعاركة إلى شخصيات محترمة سوف تصيبها الطرطشة بحكم صلة القرابة أو النسب ، سيما وأن جميع أهالى بلدتنا يقيمون لهذه الصلات اعتبارات كبيرة ذات وزن ثقيل فى موازين الأصول المرعية .

(٩) فضلات الجوارح

شارع داير الناحية يلف حول البلدة بشكل شبه دائرى ، تطل عليه حارات وشوارع فرعية وسراديب وجخانيق ممتدة فى أحشاء البلدة ، كلها موصلة إلى المدرسة الإلزامية القديمة فى المدخل الجنوبى للبلدة ، مدرسوها كلهم من المشايخ لابسي القفاطين والعمامة أو الجلباب والطربوش أو برأس عارية كما شاع بعد الثورة .

أما المدرسة التى لاتزال توصف بالجديدة رغم قدمها النسبى ، مدرسة محمد فريد الابتدائية بنين وبنات ، فمن دواعى فخرنا وزهونا أنها قريبة من دارنا فى الجهة البحرية ، حيث تبدو والحدائق التى لاتزال تسمى بحدائق الخاصة - يعنى الخاصة الخديوية - الممتدة على مشارف الأفق البعيد ، والمحاطة بأسوار عالية جداً مبنية بالطوب اللبن بارتفاع قامة رجل عملاق وأسطحها مرشوقة بشطفات من زجاج ومسامير ونتوءات جارحة وربما ذابحة لكل من تسول له نفسه القفز إلى الداخل ، كأنها طبقات كثيفة من سحب خضراء داكنة ، وتبدو السماء بالنسبة لها مجرد ملاءة رثة مجعدة مليئة بالبقع الرمادية المغبرة مطروحة فوقها كيفما اتفق .

بفضل هذه الحدائق الشاسعة باتت بلدتنا مضيفة مفتوحة لأسراب لا حصر لها من مختلف أنواع العصافير الطروبة المشجية لأسماعنا ،

والجوارح الكاسرة التى قضت على الفئران والديدان الخبيثة ، نظفت الأرض والأشجار وأبراج الحمام من كل زاحف فى الشقوق ، كما أنها تقدم خدمات جليلة للأطفال وللفقراء والسابلة حيث تُبَعثر ثمار الحدائق على مساحات واسعة خارج السور أثناء هبوطها على الشجر ثم طيرانها ورفرفة أجنحتها القوية .

يستطيع أى مار بحذاء السور من أى جهة أن يملأ حجره بالبلح بالجوافة بالخوخ بالبرتقال باليوسفى مما بعثرته هزات الطيور للأفرع العالية الوارفة ، بل إن هناك دائماً من يفرش على أية ناصية بقفص من الفواكه التى يسميها الناس بـ «السقط» للبيع بأى مقابل تافه .

هذه الحدائق كانت ذات يوم تحت حراسة سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو، الذى تزوج عمى أبوالسعود من ابنته ، خالتى تفيدة ، وذلك أيام كان جدى الأكبر الذى يحمل عمى اسمه ناظراً على الوسية كلها ، حتى بعد أن أهديت الحدائق للأميرة بنت محمد على التى تزوجت من أحد النبلاء من نفس العائلة وأصبح ريع الحدائق يحول إلى جيبه ، ظلت الحدائق تحت نظارة جدى ذاك فاستطاع أن يشكم تراتيرو ويحد من سرقاته للمحصول ، ولم يكن كلاهما يدرى أن الفرغانى الكهل سينجب طفلة فى أواخر أيامه تكون زوجاً لحفيد جدى .

أما الآن فقد آلت ملكية الحدائق إلى وزارة الزراعة ، وبعد أن كان مجرد وجود الحدائق فى بلدتنا يصيب أهلها بالقناعة ليقينهم بأن أطيب الفاكهة ستصل إلى بيوتهم لا محالة بثمن بخس من أحد صبيان الفرغانى تراتيرو أو على سبيل الهدية منه إن كان أهل الدار من الناس المهمين ، أصبحت

البلدة اليوم تشتهى الفاكهة وهى بين ظهرانيهم منثورة للجوارح من الطير ومن بنى الإنسان القابض على ثروة لم يكن يملكها فلما وضع يده عليها حرمها على من كانوا وراء زرعها وريها وتشذيبها وتلقيحها وإزهارها طوال عشرات من السنين .. مما جعل الناس يترحمون بصدق على تراتيرو الكبير على الرغم مما كانوا يرمونه به من شائعات وأوصاف تنال منه ..

لأبى عبدالعال عقل قول مأثور فى صهرنا سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو، يقول :

– «اللبن بخيره .. شفطه تراتيرو !» لكنه يقوله بلهجة ملفوفة ليمنع الحرج عن زوج أخيه خالتى تفيدة وهى ابنة سليم تراتيرو شخصياً ، يقوله فى سياق يشبه المدح ، يعنى أن الرجل شاف خيراً وعزاً كبيراً ، مع أن خالتى تفيدة صدرها أوسع من جرن العقالوة وكم سمعت عن أبيها ذاك من أقوال يشيب من هولها الطفل حتى بات أبوها فى نظرها أسطورة عامة يحق لكل إنسان أن يخترع عنها مايشاء ، إنها كثيراً بل كثيراً جداً ماتنخرط فى ضحك عميق من نكتة رسمت لأبيها صورة هزلية ، إنها تكاد تكون مفصولة عنه عاطفياً لأنها فى الواقع لم تَرَهُ ، لقد خان مستقبلها ، ضربها مقلباً طلع من نافوخها إذ إنه مات بعد ولادتها بسنتين اثنتين يعنى أنها ليست تتذكر ملامحه على الإطلاق ويقول لها من شافوها إن أخاها فرج سليم تراتيرو الذى يكبرها بثلاثة أعوام هو الآن صورة طبق الأصل منه فى كل شىء من الطول إلى النَّحافة إلى اللماضة إلى الاندفاع فى الغلط باستثناء شىء واحد لم يكن فى أبيه ذاك هو مرض السل الذى يأكل فى صدر فرج منذ سنوات طويلة حتى أحالَهُ إلى زعزوعة قصب ..

جدتى معزوزة شرحت لى ذات يوم معنى كلمة أبى التى أصبح الناس يستعيرونها للتعبير عن مواقف متعددة ينطبق عليها نفس التعبير :

اللبن بخيره شفطه تراتيرو ، الواقع أننى كنت أريد أن أفهم معنى كلمة تراتيرو هذه .

قالت جدتى معزوزة إن سليم الفرغانى من شدة فراغة عينيه وطمعه كان إذا اشترى قمحاً أو شعيراً أو تمراً طلب من الكيال أن يملأ القدح إلى طراطيره ، يعنى يملؤه حتى يعلو الملاء يصير كالطرطور ، ويصيح فى البائعين فى الأسواق إنه لا يأخذ الكيل إلا مطرطراً ، حتى إن طلب كوب ماء قال لامرأته : إمليه لحد طراطيره .

ثم إن حرف الطاء تخفف على ألسنة الناس إلى التاء فأصبح اللفظ تراتيرو ..

تخشى جدتى معزوزة أن تستاء زوجة ابنها خالتى تفيدة مما قالته عن أبيها تراتيرو ، فتستدرك قائلة إن ثلاث عائلات قد أصبحت عائلة واحدة ، فسليم تراتيرو كان خولى جناين الأمير ، وجدى كان ناظرها ، وعمرو وعمرو كان شيخ خفراء الوسية ، ثم تضيف بعد هنيهة :

- «يشاء السميع العليم أن يمد حبل الوصال ! فابن الناظر ! .. جدكم حسن يعنى .. تزوجنى ! .. وعمرو عمرو تزوج من أختى الحاجة زهرة ! .. وتزوج أخوه أمين من الحاجة ست عمرة ! .. لكنه مات وهى في عز شبابها مع أنها خلفت منه ولدين هما الآن فى الإسكندرية !.. من حسن حظنا .. طمع سليم تراتيرو فى جمال ست عمرة فكتب عليها على سنة الله ورسوله ليخلف منها فرج والسنيورة تفيدة ! ويشاء السميع العليم أن تكون السنيورة تفيدة من نصيب عمكم أبوالسعود !.. الطيبات للطيبين» .

عندئذ ترمقها خالتى تفيدة وقد انبسطت ملامحها على بساط من الحب المتألق فى عينيها ، تستطرد جدتى معزوزة :

– «ربكم هو المدبر ! .. يشاء السميع العليم أن أختى الحاجة زهرة تخلف من زوجها عمرو عمرو زربة عيال ! خد عندك : عبدالرحمن وكان مزيناً ! عرفات الأعمى وحاله مايل كما تعرفون ! وسُنة التى كانت من نصيب ولدى عبدالعال ! البكرى ! كانت وش السعد عليه وعلينا ! وخلّفت توحيدة التى سترها الله وتزوجت فى بلدة العجوزين !» .

تعرف أمى «سُنة» أن ذاكرة حماتها كثيراً ما تفوت وتخلط الأزمنة ببعضها وتنسى أشياء مهمة ، لكنها من فرط حبها لخالتها تُصرٍّ على أن تداعبها :

– «إنما أنت يا أمى نسيت محمد أفندى عمرو ! .. ألم تخلفه ست عمره من ابن عمها أمين ؟» .

– «يوه ! قُطع ولا كان ! النبى أشرف خليقة الله إنه يستاهل أن الواحد ينساه !» .

أمى تعرف أن حماتها خالتها تعمدت النسيان فى هذا الأمر بالذات ، تعرف أن حماتها تكره كره العمى كل من يتطاول على ابنها أبو السعود ويعمل رأسه برأسه ، ولأنها لاتملك إلغاءه من الوجود فإنها تشطبه من ذاكرتها كأن لم يكن . هاهى ذى توجه لأمى نظرة لوم حنونة مع ذلك :

– «لماذا لم تتذكرى شيئاً عدلاً ؟! أعوذ بالله من .. من .. قومى يابت غوري من وشي !» .

تغور من وشّها بالفعل وهى تضحك بصوت مجلجل .

(١٠) الحاجة زهرة خالة العقالوة

منذ أن تزوجت خالتى توحيدة ، ومات خالى عبدالرحمن عمرو الذى كان أشهر حلاق فى بلدتنا ، والحاجة زهرة – خالة العقالوة – تَقْتَعِدُ رصيف الدُّكان ليل نهار ، لا يشقر عليها بين ساعة وأخرى إلا أحد عيال ابنها عرفات الذى اقتطع جزءاً من هذه الدار من خلف الدكان وعمله داراً خاصة به يفتح بابها على السرداب المجاور ، لكن الحاجة ست عمره صاحبة الدار الملاصقة لدارها ، وباب دارها ملاصق لباب دكان ابنها المرحوم عبدالرحمن، تقضى معظم وقتها مقعية فى فتحة باب دارها مريحة كوعها على رصيف الدكان ، فهى الرفيقة الدائمة لسلفتها وقد باتا معاً فى مرحلة حرجة من العمر وإن كانت ست عمره أقوى بدنياً وصوتياً وأصغر سناً بقليل ..

الحاجة زهرة ضخمة الجسد ، تشبه فى جلستها فرن الخبيز ، عريضة ، مدكوكة ، سوداء فاحمة .

دماغها الملفوف بالشاش الأسود يبدو كأنه برام أو طاجن أسود مقلوب فوق سطح الفرن الطينى ، إذ هى دائماً منكسة الرأس فى حجرها ، لا أحد ممن يراها يعرف إن كانت مستيقظة أم هى مستغرقة فى سبات عميق وربما أزلى ؟ إنها على هذا الوضع منذ سنوات طويلة ، لدرجة أن

هناك من يقول الواحد منهم إنه طلع على وش الدنيا فرآها على هذا النحو متربعة على رصيف هذا الدّكان الذى يحتل أهم وأخطر موقع فى شارع داير الناحية ، دائماً أبداً هناك قفص كبير أمامها مطروح فوقه لوح خشبى من الألواح المعدة أصلاً لتقريص العجين ، ترتص فوقه أشكال فاكهة من الحلوى كالموز ونبوت الغفير والعسلية وبراغيت السّت واللبان والمصاصات ، وبجوارها مشنة تمتلىء بأى نوع من فاكهة حقيقية من سقط المواسم ..

يظنها الناس نائمة أو ميتة فى حين هى تحملق فى الرائح وفى الغادى من تحت جفونها المسدلة .

لقد طمس الزمان ملامحها ، وجه صحراوى صرف ، داكن اللون كجبال الحجاز تشى بوعورة من نوع ما .

إذا ضحكت ظننتها تبكى ، يصيبك الرعب لأول وهلة ربما لأنك كنت على يقين من أنه وجه صخرى صلد لا يلين فإذا بك تراه قد دبت فيه الحياة فجأة وصار عجينة مليئة بالتكورات والتضاريس وصارت العينان المسبلتان على الدوام فتقين يرشحان بالدمع الغزير فوق شفتيها الغليظتين اللتين بدتا كجلباب ضيق جداً على أسنانها الكبيرة ، سرعان ماتثير الرغبة فى الضحك.

بالنسبة لى كنت حين أتذكرها فى الليل وحدى ينتفض جسدى من عنف الضحك المكتوم لأنّ شكلها عندئذ كان يتطابق تماماً مع شكل عمى زكريا حين يضحك أو ينفعل ، ومع شكل أبى حين يظهر اشمئزازه من أى شىء .

(١١) نظرية الثور : من أمجاد العائلة

الوداعة المستقرة علي وجه عمى موسى تعكس شقاوة وربما شيطنة إلي حدّ الجنون المؤجل أو المقموع لكنه مع ذلك لا يؤجل فرضاً من فروض الصلاة عن وجوبه دقيقة واحدة ، مغرم بالجماعية فى كل صلاة لايتأخر عنها مهما حالت دونها ظروف قهرية ، كما أنه - وهو أصغر أعمامى وعماتى - أوسع أفقاً من أبى وعمى زكريا وعمى جبريل..

عمى موسى هو المسئول عن الماشية مع ذلك ، الزريبة هى عالمه . تقتنى العائلة ما تقتنيه إلا أنه بارع فى تجديد شباب الزريبة باستمرار، إذ ماتكاد البقرة أو الجاموسة تشيخ قليلاً حتى يكون قد ربى من عيالها غيرها، فنان هو فى شغل البرادع وترميمها ودندشتها بمنسوجات وكور من الحرير . أهم مقتينات الزريبة فى نظره هو الثور ، فحل معلوف بعناية ، قوي كالفيل ذو مهابة إذا مشى فى شوارع البلدة يسحبه عمى موسى بمقوده المتين يُخيِّل إلى من يراه كأنما الزعماء والأبطال المغاوير يقلدونه فى هذه المشية الواثقة الراسخة الهازئة بكل ما على الأرض من مخلوقات ضعيفة، إنها مشية فاتنة تجعل الإنسان ينبذ الضعف ويحتقره ويقرر طرده من جوفه قدر ما يستطيع .

يقوم عمي موسى بتأجير الثور، أو بمعنى أدق تأجير إحليل الثور لتعشير البهائم مقابل عشرة قروش فى المرة الواحدة ، مبلغ باهظ أى نعم ، إلا أن عمي موسى ليس يبالى بوقعه على وجه من يسمعه منه، بل يستدرك فى التو ليكمل نفس العبارة بقوله إن الثور محجوز طوال الأسبوع القادم والذى يليه، إنه واثق من أن المستأجر سوف يرجوه ويلاطفه لكى يبديه على غيره و..

«خذ ما تطلبه يا أبا هارون ! ليس كثيراً على ثوركم !» .

وهذا صحيح، فثورنا مضروب به المثل على الصحة البدنية والحيوية وبما يسميه عمي موسى بنشاط النطفة .. قيل وما نشاط النطفة هذا يا موسى ؟ يقول بفصاحة اشتهر بها العقالوة مع ميل إلى استخدام العبارات القرآنية فى كلامهم بوجه عام :

– «ليست كل نطفة بقادرة على أن يصير منها ولد .. النطفة الخاملة قد تندلق من صاحبها قبل وصولها الى الرحم فتضيع هدرا .. وقد تصل بعد أن تكون قد ماتت أثناء سفرها من أصلاب صاحبها الى المخدع الآمن بفعل التعب !.. أما النطفة النشطة فإنها بصحة جيدة تحتمل السفر والانتقال ! ولأنها تعرف طريقها جيداً تظل تخبز نفسها على نار الشهوة الهادئة إلى أن ينفتح لها باب القبو فتدخل راكبة مصونة لترمى بنفسها في الحضن الدافىء تصير فى الحال كائناً حياً!» ..

ما يؤيّد نظرية عمي موسى عن النطفة النشطة أن ثورنا يمتاز بخصيصة قلما يتمتع بها ثور فى نواحينا ، تلك هى دقة النشان. هى نطة واحدة لا نزول عنها إلا بعد تمام المهمة وفى لمح البصر، علي عكس ثيران أخرى تفرهد أصحابها وأصحاب الأنثى ما بين جري وراءه ودفع لمؤخرته فى صخب واضطراب ينتهى بأن تسقط نطفة الثور على نفسه فيستحيل قيامه

مرة ثانية في نفس اليوم. وقد يتكرر نفس المشهد عدة أيام فتكون المهمة غاية في الصعوبة ..

الفضل يرجع لعمى موسى فى تدريبه للثور، يقول إن السر فى نجاح ثوره وحسن سمعته فى الأداء ينحصر فى أن الثور قد بات صديقاً له ، يفهم كل منهما الآخر بالإشارة ، ربما بالنظرة . إن عمى موسى، الذى ولدته جدتى معزوزة فى قلب الزريبة تحت أقدام الجاموسة أثناء حلبها إذ جاءها المخاض وطش الطلق فى التو واللحظة، قد أمضى صباه وشبابه فى هذه الزريبة من فرط عشقه للماشية والأنعام التى مَنَّ الله بها علينا فى قرآنه الكريم كمصدر للخير من ألبان ولحوم وجلود وصوف، بات يجيد لغة التعامل مع الماشية إجادة تامة بل هو دائم التأكيد لنا فى كل مناسبة على أن تفاهمه مع الماشية أفضل من تفاهمه مع البشر، يعرف ماذا تريد بكل دقة فى هذه اللحظة أو تلك فيقدمه لها ..

ما أجمل منظره أصيل كل يوم إذ هو يسحب البهائم كلها فى صف أو صفين تمشي فى تؤدة كأنها وفود إلى مهمة تمشي فى تؤدة كأنها من عليه القوم فى طريقها إلى مهمة جليلة. هو يرتدى جلبابه النظيف ذى اللون الزهرى الرائق ، من تحته الصديرى القطنى اللميع ذي الخطوط الطوبية السوداء على أرضية فى لون الكهرمان ، من تحته الفانلة ذات الكم الطويل بأسورتين حابكتين . أصابع يمناه الممسكة بالمقود المتصل بها جميعاً مزدانه بخاتم فضى كبير بفص بيضاوى الشكل من فيروز نقى، وفى يسراه دبلة الزواج وهى كذلك من الفضة. وفيها المسبحة التلت الآتية له من الحجاز هدية من الحاج عبدالحسيب الشربتلى الفرارجى زوج عمتى خديجة ، عبارة عن ثلاث وثلاثين حبة من الكهرمان الأصلى، فى قدميه الشبشب العمولة صنعة الأسطى خليل عبدالصمد أشبه بنصف حذاء من الجلد ..

هو الآن فى طريقه إلى المسقى، أو ترعة خلاف القريبة من دارنا. ما أن يصل إلى المسقى حتى يفك المقود، ففى الحال تنكب البهائم على الماء باشتياق حار ، تندفع نازلة، بكامل هيئتها إلى قلب الترعة، تستكن تحت غمر الماء فى انتشاء . عمى موسى يخلع الجلباب والصديرى والفانلة والسروال حيث يوجد تحته لباس يسميه أبناء البنادر بالمايوه اشتراه له ابن عم لى طالب بحقوق الإسكندرية خصيصاً لهذا الغرض يلقى بنفسه الى الماء ممسكاً بالفرشاة الخشنه وبروة من صابونه غسيل المواعين، يغسل أجساد بهائمه برغوة الصابون والفرشاة فى حنو واعتناء كأنهم أبناؤه الأعزاء عليه ، لا يترك البهيمة إلا وقد لمع جلدها فازداد الأشقر شقرة واستضاء الرمادى بانعكاس شمس الأصيل فى العمق السحيق للماء. بهائمه مؤدبة مثله، ذات كبرياء مثله لعله هو الذى نماه فيها حتى أصبحت تكاد تتفوق عليه فى السلوك الحضارى، ولربما زمقه الثور بنظرة عتاب إذا شتمه بغير مبرر، وقد يحرن الحمار ويزّور بعيداً منكساً رأسه فى زعل واضح لأنه زغده فى جنبه بقسوة ، لكنه إذا قال للثور قف هاهنا ينفذ الثور أمره فى الحال، وإن قال للحمار تعال هنا يجيء على الفور. تقف البهائم دون مقود فى انتظاره حتى يجفف جسمه بلفح الهواء، ثم يلبس الفانلة ، ثم الصديرى فوقها، ثم الجلباب، ومن فتحتى الجلباب يمد يديه يخلع ذلك المسمى بالمايوه ، يتركه ينزل إلى قدميه فيخلصه ثم يرتدى السروال دون أن يكشف عورته حتى للبهائم ..

فى كثير من العصريات الرائقة يطيب له أن يختلى بالبهائم ليراقبها ويتأملها كيف تأكل كيف تتعامل مع بعضها البعض كيف تنام وكيف تصحو .. أصبح لديه تفسير بكل ما تأتيه أو تؤتيه من حركات وإيماءات باعتبارها جمل حواريه - ناهيك عن أصوات النعير والنهيق

والصهيل والمأمأة .. يتعين عليه الرد عليها بفعل يفعله لصالحها ، يستخلص من كل ذلك العبرة والحكمة والموعظة من بديع صنعة الله المتجلية فى كائناته التى تجل عن الوصف ..

يا يوم التعشير . يالك من يوم منتظر ليس يفقد إثارته على طول الزمان ، لا يستطيع أى مخلوق ، مهما كان محترماً وقوراً أن يفوت عليه دون أن يتوقف أو على الأقل يتلكأ حتى يراه بالتفصيل . إنه لمهرجان من أعراس الطبيعة يطرب له جميع البشر فى بلدتنا من صغيرهم لكبيرهم .. ولسوف يتفرجون عليه بنفس الشغف والحميمية حتى وإن تكرر مئات المرات فى كل دقيقة فما بالك إذا كان نادر الحدوث مرتبطاً بمواسم الخصوبة عند الحيوان ؟..

صباحئذ تجىء البقرة المراد تعشيرها فى وفد من أهلها ، يقفون بها فى وسط الجرن على مسافة تبعد قليلاً عن دارنا لأن الثور يجب أن يعطى مساحة واسعة يتحرك فيها على راحته .

من ممر جانبى تابع لدارنا لا يحق للجيران فتح أبواب أو نوافذ عليه، وعليه تفتح زريبتنا ، يخرج الثور من هذا الممر الطولى ماشياً يتبختر وراء مقود عمى موسى . من يراه يدرك فى الحال من سمت التأهب والحيوية والغندرة أنه ذاهب إلى مهمة رسمية جليلة القدر، تلك حالة يستكشفها الأطفال بالغريزة فيمشون وراء الثور وهم يجزون على أنيابهم لكتم الضحكات الجزلة النشوانه مقدماً بما سوف يحدث بعد قليل ، حتى الرجال لولا الحياء لغيروا اتجاه طرقاتهم والعودة وراء الثور بأى عذر مصطنع ، كل ذلك وعمى موسى غير عابىء بأحد ، مركزاً كل انتباهه على تدليل الثور وتدليك أعصابه وترييح نفسيته بكل وسيلة ممكنة ، مانعاً ، بقوة وحسم ، كل الأطفال من الاقتراب الحثيث أو الإتيان بأية حركة تتوتر منها أعصاب الثور..

أهل طالبة العشار يحيطون بها من الجنبين ومن أمام ومن خلف فى وضع استعداد لإحكام السيطرة عليها إلى أن ينهى الثور مهمته بنجاح وبدون فرهدة .. مؤخرة البقرة هى البارزة بكل وضوح كالمرفأ الدافىء. وإذ بدأت تشم رائحة الثور من على بعد دبت الرعشة فى كفلها ، انفرج ساقاها وانعقص ذيلها، صار الصعود إلي القبة المأهولة مفتوحاً يطلب الحلال ..

بخبرة عمي موسى يبطىء فى الحركة عن عمد حتى يتيح لخياشيمه أن تمتلىء حتي النخاع برائحة الأنثى ولعينيه أن تتمكنا من نقطة الاقتحام والتسديد . يا ربى ما أن يظهر شبح الثور زاحفاً من بعيد فى اتجاه الميناء الرافع قوس النصر ترحيباً وتفاؤلاً بنجاح المهمة حتى يشمل الكون كله سكون مترقب مترع بالحميمية الإنسانية أشد إثارة للشغف من ذلك السكون الذى يسبق العاصفة ..

لكأن الكون كله واقف على قدم وساق، حابساً الأنفاس فى انتظار قيام هذا الفعل الإلهى العبقرى، ذلك الذى يبدو فى كل مرة كأنه اكتشاف جديد .. النسوة فوق الأسطح يعملنها حلوانة فى سلوانة بذريعة النداء على عيالهن.. الصبايا يختلسن النظرات إلى شيء حرم عليهن الكلام فيه أو النظر إليه أو ممارسته إلا بعقود ومواثيق وفى جنح الظلام ، ها هن يخترقن حجب الخجل فى جفول مصطنع .. الصبيان يلهثون وقد يتحسسون أعضاءهم الجنسية فى تلقائية.. الرجال المسكون بالبقرة فى حال من الترقب والخفقان يقرأون عدية يس والفاتحة وربما بعض التعزيمات والتعاويذ .. بضعة الأمتار المتبقية يكاد عضو الثور - الذى امتد نافراً كنصل السكين أو كالسيف - أن يطاولها .. هب .. هى نطة واحدة.. يندك بها النصل فى غمدة دفعة واحدة، وأيدى بعض الرجال تدفع مؤخرة الثور برفق حتى يفرغ آخر قطرة من نطفته الثمنية، حتى إذا ما هبط الثور منتشياً مدَّ الرجال

أيديهم إلى فرج البقرة وأزاحوا بداخله ما تناثر حول الشفرين من مني الثور، إذ إنهم يعتقدون أن البركة كلها ربما تكون فى هذه النقاط المهدرة ، وأن إدراكها عن الهدر فأل حسن ..

لست أهزل على الإطلاق بل أقرر حقيقة إذ أؤكدها هنا على أن ثورنا ذاك ، كان مما يضاف إلي العائلة من أمجاد، لدرجة أن صيته لف البلاد ، سمعته الطيبة طوت المسافات والآفاق طائرة إلى وسايا فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح باشا حسن وحافظ باشا حسن وباشوات آل عاشور ، وكلهم بعثوا إلى عمى أبوالسعود مراسيل تطلب عجلاً من سلالته لتحسين سلالة أبقارهم ، فأحالهم على عمى موسى، فتبغدد عليهم إلى أن وافقوا على الإتيان بأبقارهم لحد عنده بأى شكل كان.

(١٢) مفاتيح العم جبريل

أسعد الناس قاطبة بفحولة ثورنا وعلو صيته كان عمى جبريل لكأنه منح حقا إلهياً فى الاستهزاء بكل غبى أو متخاذل أو عريس مربوط أو سىء السمعة جنسياً، إذا جاءت سيرة واحد من هؤلاء أمامه سارع بالسخرية منه، لا يتورع عن السخرية من الشخص المدموغ بهذه الشائعة أو تلك ، فى وجهه ، فى حضوره أمام الجميع ولكن بخفة ظل ولباقة يضحك الجميع منها بمرح كبير، مع أنه لم يقل شيئاً أكثر من أنه أتى بسيرة ثورنا على أى نحو من الأنحاء فيفهم الحضور أنه بذكره لرمز الفحولة يندد بمن أصبحوا رمزاً للفسولة ، حتى إذا ما شاع المرح لكز المسخور منه فى كتفه بعشم وأخوة هاتفاً :

.. «يا أخى الناس لبعضها ! تعال خذلك فترة تدريب فى زريبتنا على يد الثور ! » .

ذلك أن عمى جبريل مهزار كبير جداً برغم ما يرتسم على وجهه وهيأته من سمت الجدية المفرطة ، بل قد يظن من يراه أول مرة أنه كئيب مزمن فى الكآبة ، قد يظل على هذا الظن وقتاً طويلاً حتى وإن رآه كل يوم . إن عمى جبريل قليل الكلام إلى حد الندرة، اللهم إلا لحظات قليلة يروق فيها مزاجه

ساعة العصارى بعد ما تكون حبة جوزة بوزه الطيب التى سف طحينها منذ ساعتين وراح يواليها بالشاى والسجائر قد اشتغلت ، يهيب بأحد الولدان بأن يكنس أمام المخزن ويرش جردلين من الماء يخمد بها التراب والعفار، يفرش الحصير على المصطبة الخارجية المحاذية للباب ، يتكىء على المسند ، يروح يفلى جريدة الاهرام فإن لم يجد بها ما يستحق التفلية رماها على طول ذراعه متهماً عمى أبو السعود بأنه التهم ماكان فيها من أخبار مهمة تغيب المفارقة الضاحكة عن فطنة البعض لكنها تصير واقعاً مثيراً لدهشة الجميع حينما يتصادف مجيء عمى أبو السعود ليجلس معهم قليلاً من الوقت على سبيل المجاملة والمضايفة، فيذكر أن شيئاً خطيراً قد وقع اليوم فى فلسطين أو كوبا أو جنوب أفريقيا أو الهند ، ويحكى الواقعة بالتفصيل فإذا هى بالفعل شيء بالغ الخطورة عندئذ يصيح عمى جبريل كاتماً غيظة من فرط شعوره بالغفلة :

«الله إنت جبت الخبر ده منين يا أبو السعود أفندى ؟» .

«من الجرنال! » .

«عجايب !.. أنا فليت الجرنال كلمة كلمة !» ..

«يخيل إليك! » ..

«جرنان اليوم؟» ..

«جرنان اليوم : هاته وأنا آريك إياه !» ..

ولكن ما أصعب استرداد الجرنال ، بمجرد أن يرميه عمى جبريل ، وهو الوحيد المعنى بتصفحه بعد عمى أبو السعود ، يكون الجرنال قد سرح، تخاطفته عشرات الأيدى لتعيره بعضها بعضاً، ويبقى عمى جبريل علي غيظه حتى عصر اليوم التالى ، ويبدو أنه بالفعل .. كما يقول عمى أبو السعود -

غير ملم بخريطة توزيع الاخبار علي الصفحات ، إنه يقرأ وحسب ، تشده المانشتات الكبيرة فالصغيرة فالأصغر سرعان ما تنتهى من الصفحة ليقلبها، أما عمى أبو السعود فإنه بعد التصفح العام يتوقف بهدوء وروية عند المحليات والشئون العربية والشئون الدولية وصفحة الوفيات قبل أن يفرغ لقراءة العوايد ومقالات الرأى التى يعرف أماكنها من الصفحات ومواعيدها من أيام الاسبوع » ..

قبل أن يهل الصحاب على مصطبة عمى جبريل المطلة على قناة تنطلق منها شجرة صفصاف وارفة واصلة إلى المصطبة ، فيما بين صلاة العصر وأذان المغرب ، ينتهز الفرصة ليقرأ فى كتابه الأثير لديه على الدوام : «السيرة الهلالية » . وإذ يتوافد الصحاب عليه واحداً بعد الآخر عقب خروجهم من صلاة العصر الذى صلاه فوق المصطبة وحده يكون فى عز اندماجه فى القراءه لا يترك الكتاب إلا أن ينتهى الفصل كله ..

مخزن الحبوب .. جزء من الدار من الجهة البحرية الموصولة بجرن واسع متصل بشارع داير الناحية . المخزن عبارة عن حجرتين متصلتين بباب داخلى موارب دائماً لأنه مفتوح على حوش-الدار من داخل الداخل ، الحجرة الداخلية هى الخزنة أما الحجرة الخارجية فإنها دكان البيع والشراء والمصطبة لصق فتحة الباب من الناحيتين ، مساحته متران عرضاً فى ثلاثة أمتار طولاً . فى هذا الدكان تتجمع المحاصيل عند الحصاد حتى يتم تشوينها فى أمطار أو مطامير داخلية، لا يتبقى فيه إلا بضع كيلات من هذا المحصول او ذاك فى كومات ركنية، بجوارها الكيلة المصنوعة من خشب مبطن بالزنك وخشبها مطعم برءوس معدنية تتيح لمن يمسك بالكيلة ليعبىء أو يهز أو يدلق أن يحكم السيطرة عليها فلا تتزفلط من بين يديه .. بجوارها

بعض أقداح للعيار من نصف كيله فأقل . وفى ركن قصى ترتكن سبية الميزان القبانى لوزن الأكياس الملآنة بأحمال ثقيلة توزن بالقناطير ..

لا تنشط الحركة ها هنا إلا يوم سوق البلد حيث ما يكاد الدكان يمتلىء إلا ويفرغ ليمتلىء من جديد ، محفظة عمى جبريل الكبيرة تخرج من جيبه وتعود اليه عشرات المرات كل دقيقتين ، إذ يفردها ويدب ساعده فى جوفها يهزها لتمتلىء كفه بالقروش وأنصاف الفرنكات والشلنات والبرايز الفضية، أو يعبث بفلوس ورقية مطوية فى الجيوب الصغيرة المقفولة بألسنة مطوية فوقها بكبسولتين تطرقعان بشدة طروبة عند الاغلاق وعند الفتح، ويبدو عمى جبريل حيئذ شاحب اللون ، إلى لون الباكستانيين أقرب، حتى تجاعيد وجهه المخدده بما يربو على خمسة وأربعين عاماً من عمره تخدع من يراه فيظنه على مشارف السبعين ، ذلك من أثر إدمانه لمكيفات سرية تقوى الباه وتعدل المزاج ، سيما وأنه كائن جنسى، يستحم صباح كل يوم فى صقيع شهر طوبه ، أنفه الطويل السرح يغلظ قليلاً عند المنخرين فتبدوان كأنهما ثقلتا علي حنكه الواسع الشهوانى المفوه بشفتين مكتنزتين دائمتى المصمصة والمزمزة عمال على بطال ، تضفى على الحنك تعبير الاشمئزاز أو القرف أو عدم الرغبة فى أى انشراح ، مع أنه يكون لحظتئذ على وجه التحديد فى قمة الانشراح ولكن مع نفسه ، لكن الانشراح ينط من عينيه إذا ما دخلت عليه امرأة مربربة تبيع أو تشترى ، يأخذ ويعطى معها فى الكلام فصالاً ومراوغة ومناهدة .. كل ذلك فى حدود الاحترام الشديد، إنما مجرد جريان هذا المشهد الأثير يثقب مزاج عمى جبريل فيفيض منه الانشراح علي كل شىء حوله ، يصير بهجة معلنة بقدوم كل رفيق جديد حتى وإن لم يكن من ورائه منفعه ، فما بالك إذا كان الرفقاء رجالاً ذوى

حميمية خاصة يجالسونه على هذه المصطبة الخارجية الممتدة بطول الدكان على جانبى الباب..؟ آخر نكته تتوالد ، تصير مائة نكتة .. شائعات النميمة المثيرة للخيال عن علاقة جمال عبدالناصر بصديق عمره عبدالحكيم عامر وعلاقة عبدالحكيم بالممثلة الفاتنة زوجته الثانية على أم العيال ، آه ثم آه على برلنتى ، هكذا يزأر عمى جبريل كحيوان جنسى مفترس عضه الإحباط فى مألم ، يلتمس الراحة فى زفرة حارة يصيح فى إثرها ..

«إنشاالله تطفحها ! ».

لا بأس من أن يضفي على وجعه الشخصي صبغة سياسية، يستدرك معلقاً فى جدية مفاجئة ..

«بالله عليكم كيف يتزوج قائد الجيش من ممثلة فاتنة كهذه ؟!.والبلد مسئوليتها في رقبته ! .. هل يسهر على حراسة البلد أم على طلوع جبل الشوق الشاهق الارتفاع ؟! » ..

من أطرف نوادر عمى جبريل نادرة ليس يعرفها أحد على الإطلاق سواي، حتى هو نفسه لم يعرف مطلقاً أننى كشفته بمحض الصدفة. يومها أذهلتنى المفاجأة ، روعتنى . ظللت مضطرباً لوقت طويل شاعراً بأننى قد حملت على صدرى واحداً من أخطر وأدق أسرار عمى جبريل. كنت أشك فى قدرتى علي الاحتفاظ به لكن الله ألهمنى النسيان فأغلق فمى نهائياً عن ذكره وإلا كان عمى جبريل قد تعرض للهزء والزراية من كل من أبى وعمى أبو السعود وعمى زكريا بوجه خاص ..

الحكاية أن عمى جبريل كما نعرف مغرم بقراءة السيرالشعبية وبخاصة تغريبة بنى هلال . وقد اعتاد صحابه أن يحترموا اندماجه فى القراءة وهم جلوس معه، واعتاد هو أن يفقد الاحساس بوجودهم لوقت طويل أحياناً،

وبما أنه يحفظ هذه السيرة بالذات عن ظهر قلب فإنه لحظة أن ينتبه إلى وجودهم ويليق به الحرج ، يطوي الكتاب فوق أصابعه مؤقتاً حتى لا تتوه الصفحة ثم وكأنه يلتمس العذر منهم على انشغاله إلى هذا الحد، يروح يردد تمهيداً لعودته الى القراءة :

«يخرب بيتك يا زناتي يا ابن خليفه والله لو كنت من أبو زيد ما كنت صبرت عليك ! كنت قطعتك حتت ورميتك للكلاب ! » ..

ثم ينصرف الى القراءة مكتفياً بما أذاعه من بيان اعتذر فيه عن عدم قدرته على الخروج من هذه الموقعة الدرامية الصعبة. لكنه يكون واثقاً انهم لن يلبثوا حتى يهملوه فيما هو فيه ثم يشتبكون في منازعات كلامية حول أخبار الناس والزمان والحياة ..

هذا الاندماج العميق إلي حد النويان فيما يقرأ هو الذى أثار فضولى وشغفى ، حفزنى على محاولة اكتشاف القراءة علي هذا النحو المثير . لفت نظرى أن عمى جبريل حينما يضطر إلى قطع القراءة لسبب قهرى فإنه يطوي الصفحة من طرفها ويدس الكتاب تحت المسند الذى يريح فخذه عليه، قد يتركه ليدخل المخزن لبيع أو شراء، أو يدخل تقفيصة الكنيف يفك حصرة البول ويتوضأ بالمرة ، فى لحظة من هذه اللحظات انتهزت الفرصة، جلست مكانه علي المصطبة، سحبت الكتاب، قرأت عنوانه على الغلاف : (تغريبة بني هلال) ، رفعت الغلاف ، غلاف، داخلى عليه نفس العنوان ، تصفحت بشكل عشوائى، إذا بعينى تقعان على ألفاظ أرعشت بدنى بعنف وراح قلبى يدق كالطبل البلدى : ألفاظ تسمى الأعضاء التناسلية بأسمائها الصريحة ثم تتحدث عن .. عن .. يا للعهر الفظيع ، رحت أقلب بشكل محموم وقد اعترانى الشك فى أن تكون هذه تغريبة بنى هلال ، بعد الغلاف الداخلى بحوالى ملزمة فوجئت بالعنوان الأصلى للكتاب :

رجوع الشيخ إلى صباه .. طويت الكتاب بسرعة ، دسسته تحت المسند كما كان ، ابتعدت نهائياً عن المكان ، لكننى لم أبتعد قط عن عمى جبريل ، قام فى نفسى جاسوس فضولى عنيد ، لكأننى اكتشفت عالماً سرياً ممنوعاً علي الصغار مباحاً للكبار الذين يمنعونه عنهم بكل قوة ..

ما يدهشنى أن شخصية عمى جبريل لم تتشوه فى نظرى وإن اهتزت قليلاً لبعض الوقت. الأدهش من ذلك أننى ازددت قرباً منه، صرت أشعر كما لو كنا صديقين حميمين ، الواقع أن شيئاً كهذا قد حدث طوال فترتي الصبا والشباب، كان عمي جبريل هو العم الوحيد الذى امتلك مفاتيحه السحريه، أبوح له بكل ما يعتورنى من مشاعر وأحزان، أوسطه في حل جميع مشاكلي ، أقترض منه ما يستحيل علي رده .. لقد أحببته جداً لاتساقه مع نفسه، سيما وأنه كان يشذ عن جميع أعمامى وعماتي فى علاقتهم بأولاد خالتهم الحاجة زهرة وابن سلفتها ست عمره. محمد أفندى عمرو، حيث كان يعامل الجميع علي الدوام بقدر كبير من الصفاء والأريحية وكبر الدماغ ..

(١٣) زعابيب ست عمره

قرب أذان العصر يتحول رصيف دكان الحاجة زهرة إلى شبه مؤتمر نسائى بتعبير عمى أبوالسعود الذي اعتاد أن يمر من أمام الدكان عدة مرات كل يوم فى طريقه إلى المسجد، كما اعتاد أن يسرع فى خطوه بمجرد اقترابه منه، معوماً بصره فى فضاء الشارع، يتجنب النظر إليهن لفرط شعوره بالحرج.

زعيمتا هذا المؤتمر النسائى اليومى هما خالته الحاجة زهرة، وحماته ست عمره. المنظر ليس يعجبه على الإطلاق؛ إنهن طائفة من نساء عجوزات جريئات سليطات اللسان يتحدثن بصوت عال، وبغوغائية تشبه الردح والعراك بأخشن الألفاظ وأقبحها فى معظم الأحيان، مع أن من يصبر قليلاً ليستمع سيكتشف أنها - وياللعجب- محض مسامرة ودية من هتماوات خفيفات الظل أصغرهن سناً فوق السبعين من عمرها. حين يعلو صوت اللغط مصحوباً بتشويح من الأذرع وحركات دفع وجذب ، فمعنى ذلك أنهن قد أحطن بإحدى الدلالات اللائى يبعن الأغراض النسائية من أقمشة وطُرح وملسات وكحل ومناديل رأس وخرز وترتر وبكرات صوف ملون لشغل المناديل بأوية، وصابون معطر، وكيزان الليف الخشن للاستحمام.. إلخ. النساء يشترين هذه الأغراض يدخرنها لبناتهن اللائى سيصبحن عرائس

بعد حين. هن يوسطن كلاً من الحاجة زهرة والحاجة ست عمره والحاجة تحفة في مهمة الشراء لما يتمتع به ثلاثتهن من خبرة ونفس طويل في الفصال والمساومة، والدلالة تتشدد في أسعارها لأن البيع سيتم بالتقسيط حيث تمر هي عليهن كل جمعة أو جمعتين حسب شروط الاتفاق لتجد أن كل مشترية منهن قد باعت بيض الفراخ وادخرت لها القسط مربوطاً في عقدة في طرف طرحتها. على أن الفصال كثيراً ما يتطور إلى عراك حقيقي تتناطح فيه الشتائم والسباب بأقذع الألفاظ، يتحول شارع داير الناحية في هذه المنطقة إلى سامر؛ يصير عمي أبوالسعود في نصف هدومه إذ هو جالس بين الرجال على مصطبة بسطويسي عقب خروجه من صلاة العصر، يتصبب عرقاً إذ اقتحمته الدلالة الصفيقة هاتفة:

– «حوش عنى خالتك وحماتك يا أبو السعود افندى»!

ينتفض واقفاً، العفاريت تتنطط على وجهه؛ يمشي في تؤدة، خطوة والثانية يصير في شارع داير الناحية على مرمى حجر من دكان خالته وحماته. ما عليه إلا أن يريهما شبحه فحسب؛ يقف في مهب نظراتهما، ينظر إليهما في تحد وغضب، يبقى هكذا برهة وجيزة، تتكتم الأصوات على رصيف الدكان؛ يرتد عائداً إلى مصطبة بسطويسي، يجلس مطرقاً إلى الأرض ليخفي شبح ابتسامة تتذبذب على شفتيه فيما بين السخرية والأسف.

في كعبه أنا وباستمرار تحت عينيه. إن تلفت حواليه أعرف أنه يبحث عني؛ أنط من حيث كنت أصير في متناول يديه. يشير لي بيده أن أعطيه أذني؛ يهمس فيها بأن أذهب إلى كل من جدتي زهرة وجدتي ست عمره لأقول لأي منهما أو لكليهما معاً:

– «فضوها سيرة يقول لكم عمى».

إذ أفعل فى الحال ما أمرنى به أشعر بمتعة كبيرة إذ أرى حماته ست عمره، القوية الجبارة التى لا يقدر عليها أحد، قد ضعفت فجأة بإرادتها ومزاجها. هكذا هى بارعة فى التمثيل. يجيئنى إحساس بأنها تريد أن تعطينى درساً فى كيفية الامتثال لأمر كبير العائلة دونما لجاجة لكى أعرف أن هذا هو دستور العائلة الذى يتعين علىّ أن ألتزم به من الآن مقتدياً بها وهى الكبيرة؛ وفى نفس الوقت – بنفس القدرة على التمثيل – تبرهن للآخرين – مع أنهم جميعاً يعرفون البئر وغطاءه – عن مدى احترام عائلتها – وعائلتنا – للتقاليد!! وبأنها – هى ست عمره بجلالة قدرها والتى هى فى مقام الأم بالنسبة لأبو السعود أفندى – تحترم أمر زوج ابنتها كبير عائلته المحترمة!.. المضحك – والجميع يدرك بادىء ذى بدء – أنها أول من سيخرق هذا الدستور عند أول بادرة للغضب. صحيح أن غضبتها الحقيقية دائماً مؤجلة، ونفسها طويل فى الخصام وفى الزعل، وكذلك – ربما بنفس القدر – فى التودد عند الفرح – إلا أنها إذا غضبت فقل ياسابل الستر على كل من أمامها؛ تعصف بكبرياء من تتوهم أنه قد داس لها على طرف أو حاول إهانتها. فى مثل هذه الحالة باتت مؤخراً لا تجد أمامها من تعصف به، بات الجميع يعرفون طبعها الحاد؛ فمثلما تشعر القطط والكلاب والعرس والثعابين بقرب حدوث الزلزال الأرضى قبل حدوثه بثوان فيركبها الهياج وترحل بحثاً عن رقعة فى الأرض آمنة فكذلك جميع جيران ست عمره وأقاربها وأصهارها باتوا يستشعرون قرب وقوع زلزالها فيختفون تماماً من أمامها يغلقون أبواب دورهم عليهم وعيالهم، حتى الحاجة زهرة رفيقة عمرها تزحزح نفسها داخل الدكان لتختفى حتى تهدأ العاصفة.. يتركونها مقعية على طرف رصيف الدكان الملاصق لباب دارها، تروح تهدر بشتائم غامضة

مبهمة تعلو فوق جميع القامات العالية فى البلد لتطاول قامات مجهولة تفضحها تستنزل عليها اللعنات، بعبارات مسكوكة مسجوعة كخطباء المساجد وبنفس الانفعال المتعفرت بغير موجب مرئى، نفس اللباقة فى نطق المفردات الفصيحة بل العتيقة فى فصاحتها، من قبيل: تنحط حطيط وينقطع لك نيط، والنيط هو مفرد نياط القلب يعنى الشرايين التاجية، تتنزل الشتائم من علٍ شيئاً فشيئاً لتنهال على الذباب والأطيار والكلاب والأبقار الفائتة وساحبيها الذين تركوها تتحكك فى جدار دارها.

المؤسف أن مثل هذه الانفجارات المدوية المعبأة بالكآبة والزعابيب وزخات الوحل المتطاير تلوث الأبرياء، تحدث دائماً أبداً فى تلك الحصة التى يكون فيها عمى أبوالسعود، وأحياناً إبى وعمى زكريا، جالسين على مصطبة بسطويسى فى انتظار أذان العصر أو عقب الصلاة حيث تحلو القعدة هاهنا فى مثل هذه الحصة تحت ملقف الهواء الطلق يستمعون إلى راديو رضوان البقال المواجه للمصطبة مباشرة ومن أجلهم يضع الراديو الفلبيس ذا البطارية السائلة على رف خارج باب الدكان رافعاً صوته قدر الإمكان ليسمع الجميع. يأمرنى عمى بأن أخطف رجلى إلى دكان الأسطى فرحات الخياط لكى أبلغه رجاء عمى بأن يرفع هو الآخر صوت الراديو، يا حبذا لو كانت التمثيلية المسلسلة شغالة، عندئذ يصير صوت المسلسل هو المسيطر يملأ فضاء شارع داير الناحية، يضيع صوت ست عمره، يتوه، يصير تعيساً، مهزولاً، ثم يضمحل تماماً؛ تخلد هى إلى قعدتها الأبدية لصق رصيف الدكان، نصفها داخل باب دارها، نصفها الأخر ملتحق بالرصيف، تحملق فى المارة كأنها تبحث بينهم عن شىء ثمين مجهول كانت تملكه ذات يوم ثم اختفى.

(١٤) حمادة الخريجى

كثيراً ما يخيل إلىّ أن الحظ يعابث عمى أبوالسعود أفندى كأنه يريد أن يهدم كبرياءه بتعريضه لمواقف سخيفة متكررة ومتلاحقة وراء بعضها أحياناً. أشعر أن مرارته تكاد تنفقع إذا تصادف أن فات أمامهم - إذ هم جلوس على مصطبة بسطويسى فى انتظار المسلسل الإذاعى الذى يفقد متعته إذا استمع إليه الإنسان بمفرده - حمادة الخريجى. مجرد مرور حمادة الخريجى فى لحظة كهذه يسبب الامتعاض الشديد، ليس لعمى أبوالسعود وحده بل لجميع العقالوة .. فما بالكم لو كان حمادة الخريجى لحظة ذاك فى حالة عمل؟..

حمادة الخريجى له شغلتان، واحدة أصلية وإن كانت متقطعة، والأخرى دائمة. شغلته الأولى هى كسح الكنائف، أو المراحيض كما يسميها عمى أبوالسعود، أو محلات الأدب كما يطلق عليها الناس المهذبون من أهل بلدتنا. نفسه حلوة كما يقولون عنه فى نبرة احترام إلا عند بعض السفهاء يشوبها ظلٌ من السخرية الفجة. الواقع أنهم جميعاً ينافقونه بهذا الوصف: نفسه حلوة، يضحكون به عليه حتى لا يضيق بمهنته القذرة وهم فى أشد الاحتياج إليها وإليه، وإلا فمن سيقوم عنهم بمثل هذه المهمة التى لابد من القيام بها؟..

أنت أو غيرك تتفق معه على كسح الكنيف الخاص بدارك، أو مراحيض المسجد بعد امتلاء آبارها بشكل طافح، الخاص بالدار يكلفك نصف فرنك، تلك القطعة المعدنية الفضية المضلعة من فئة قرشين يعنى عشرين مليماً ويسميها العامة: واحد بأربعة، إضافة إلى صابونة نابلسى يغتسل بها بعد الفراغ من مهمته؛ ودائماً أبداً تكون هذه الصابونة موضع نزاع ولهذا فإن حمادة الخريجى يضعها فى مقدمة الاتفاق على الأجر باعتبارها الأساس فى عمله، يقول لك:

- «الصابونة النابلسى قبل أى كلام فى الأجرة»!

ومهما طال الفصال إلى نزاع يقود إلى عركة أحياناً فإنك فى النهاية سوف ترضخ لطلبه، ولو كنت على شىء من الأريحية وراجعت نفسك ستقتنع بأنه يستحق أضعاف ما طلبه من أجرة..

يخلع كل ملابسه فيما عدا اللباس أبودكة، يرفع غطاء المجرور بعد أن يفحت بالفأس ما تراكم فوقه وحوله من رديم تزلط من فرط ما شربه من ماء. أدواته فى الكسح نير وجردلان ، فأما النير فعبارة عن شومة كالنبوت، يتدلى من طرفيها جردلان مربوطان بحبال موثقة مع إمكانية خلع الجردل من خيته وإعادة شبكه فيها بسهولة لا يقدر عليها سواه. يملأ الجردلين بالغائط واحداً بعد الآخر، يقعى بينهما، يثبت عصا النير فوق قفاه، يقف، يخرج إلى الشارع فى دربة ورشاقة ولياقة بدنية غريبة على من كان مثله فى حوالى الستين من عمره، يتجنب الاحتكاك بأى حائط بأى أحد، يمشى إلى أرض خلاء بعيدة عن الدور، حبذا لو كانت من الأرض البور، سيجد من أصحابها ترحيباً بهذا السباخ الذى يسميه عمى أبوالسعود بالسماد العضوى الحيوى كغائط الماشية والأغنام يخصب الأرض الزراعية. يظل هكذا رائحاً جائياً إلى أن ينتهى من كسح الطرنش وتنظيفه، يثبت فوقه

الغطاء الأسمنتى، يهيل فوقه الرديم صانعاً منه أرضاً مستوية. يأخذ الصابونة النابلسى وعدته فيتوجه من فوره إلى المسجد حيث يدخل أحد مراحيضه، يفتح الصنبور على الحوض، يدعك جسده بالصابونة يستحم، يغسل الجردلين، هو الوحيد الذى من حقه أن يستهلك ما يشاء من الماء دون أن يعترض عليه أحد؛ له كذلك أن يتلكأ داخل المرحاض إلى أن يوافيه ابنه الكبير سيد الخريجى بثيابه النظيفة فيرتديها، يعطى لسيد عدته: النير والجردلين، ونصف الفرنك ليعطيه لأمه؛ يعطى نفسه إجازة بقية اليوم يمارس فيها حياته كرجل كبقية الرجال يجلس فى مجالسهم ويشارك بخمسة مليمات فى زردة شاى. تلك هى شغلته الأصلية: خريجى. أما شغلته اليومية التى يشاركه فيها ابناه سيد وبرهوم فإنها مسح الأحذية؛ لكل واحد منهم صندوق يسرح به طول النهار؛ حمادة الأب يقعد على باب المدرسة الإبتدائية يمسح أحذية المعلمين؛ سيد الكبير يقعد أمام المدرسة الإلزامية؛ برهوم يقعد أمام الوحدة الصحية فى بقعة على الطريق الزراعى ليكون تحت نظر المسافرين إلى محطة السكة الحديد أو العائدين منها فهؤلاء وأولئك يحلو لهم تنفيض الغبار عن أحذيتهم.

كل الناس فى بلدتنا يحبون حمادة الخريجى وولديه لخفة ظلهم النادرة، وطيبة قلوبهم، وطريقتهم الغريبة فى الكلام. الرجل أصله من الصعيد من مدينة سوهاج، مولود فيها، جَدُّه من أصل يمنى كان جندياً جىء به بين أسرى إبراهيم باشا البطل فلما أطلق سراحه استمرأ العيش فى مصر، فاستقر فيها وأنجب وكان حمادة – وهذا هو اسمه فى شهادة الميلاد وليس من قبيل الدلع – واحداً من أحفاد ذاك الرجل الذى ذاق أولاده وأحفاده الفقر المدقع فتفرقوا فى كل البلاد بحثاً عن عمل يرتزقون منه، أى عمل، وقد لعبت الصدفة دوراً كبيراً فى أن يكون حمادة من أهالى بلدة الضبعة، كان

أبوه نفراً من أنفار الزراعة أتى به مقاول الأنفار لعمل فى وسية محمد على فأعجبته بلدتنا فاستقر فيها وعمل خفيراً دائماً فى الوسية، والطريف أنه أنجب زربة عيال ماتوا كلهم إلا حمادة السيد صالح، وحين مات أبوه السيد صالح سعى حمادة للعمل خفيراً بدلاً منه فلم يقبلوه لصغر سنه، وكان لابد أن يقلب عيشه بأى شكل، فتخصص فى عمل الكسح، ثم استنظف شغلة مسح الأحذية فامتهنها وعلمها لولديه لكنه استمر فى العملين معاً إذ إن كلا منهما باب رزق لا يليق بالمرء المؤمن حقاً أن يقفله بنفسه ، ثم لماذا يقفله أصلاً مادام يؤدى إلى رزق؟ وساخته؟ وهل هناك شغلة لا وساخة فيها؟ بل هل هناك أوسخ من البنى آدم نفسه؟ أليست هذه هى فضلاته التى هو معمول منها؟.. إلى آخر هذه الآراء الحكيمة التى جعلت الناس يقدرونه ويزوجونه من إحدى بناتهم دونما تردد أو كما قال والد العروس وقوله مأثور ضمن أدبيات بلدتنا، قال والد العروس: إنى أزوج ابنتى من عريس مثله وأنا مطمئن أكثر مما لو زوجتها من رجل وجيه من الأعيان لأننى أضمن أن ابنتى لن تجوع ولن تهان طالما أنها زوجة رجل لا يتكبر على العمل!! سيفعل كل مافى وسعه وهذا هو الرجل .. وقد أثبتت الأيام عمق هذه المقولة وبعد نظر قائلها، فمعظم الناس فى بلدتنا حتى الذين يتقاضون مرتبات شهرية ثابتة كثيراً ما يتعرضون للعوز والحاجة فى بعض الأوقات أما حمادة الخريجى فلم يشعر بأى من الأزمات على الإطلاق، القرش دائماً فى يده وإن ضؤلت قيمته، كشكار دايم - يعنى الدقيق السن - ولا علامة مقطوعة - يعنى الدقيق القمح الفاخر - ومادام المدد موصولاً فليوفق هو أوضاعه تبعاً لقيمة المدد. من هنا فنفسية حمادة الخريجى وكذلك ولديه فى صفاء مطلق، يتقبلون سخرية بعض الناس بمرح يمتص سموم السخرية يجعل الساخرين يبادرون بالتلطف والاعتذار، ذلك أن لهجتهم فى الكلام

ترغم العيال على تقليدها بشكل يفجر الضحكات فى صدور الناس، هى لهجة صعيدية على يمنيه على فلاحية مخلوطة فى بعضها، إضافة إلى أنهم يتكلمون بسرعة فائقة فكأنهم لا يتكلمون بل يلوكون أصواتاً متلولبة متلوية متكورة، إلا أن الناس يفهمونها بالويم، ومن طول العشرة ربطوا بين الأصوات ومدلولاتها؛ وإذ أصبح مباحاً لكل مخلوق تافه أن يسخر منهم لله فى لله، فإن الساخر منهم مهما تفه شأنه لا يقابل من ثلاثتهم إلا بابتسامة طيبة متسامحة، يشوبها قدر كبير من البلاهة وعدم الاكتراث..

فليكن حمادة الخريجى ما يكون فهذا شأنه ولله فى خلقه شئون؛ لكن النيبة الكبرى أن حمادة الخريجى هذا ابن خالة العقالوة، ابن خالة أبى وعمى زكريا وعمى أبوالسعود وعمى جبريل وعمى موسى وبالضرورة عماتى الثلاث؛ يعنى أن أم حمادة الخريجى هى شقيقة كل من جدتى معزوزة وجدتى الحاجة زهرة. غير أن عمى أبوالسعود أفندى الذي لا تخفى عنى مرارته كلما رأى حمادة الخريجى ابن خالته - أو أحد ولديه - حاملاً النير على كتفيه بجردلين مملوئين بالغائط الأزرق الداكن فى لون السم الزعاف، هو الذي أشاع بين الناس الاحترام لهذه المهنة، مستشهداً بالحديث النبوى الشريف: خيركم خولكم، يعنى بالبلدى: أفضلكم هو خادمكم المخول بتنظيف مخادعكم ومسح قاذوراتكم؛ من ثم فإن عمل حمادة الخريجى عمل شريف يجب أن نقدره ونحترمه ونسخو عليه فى دفع الأجرة قدر ما نستطيع. هذا ماكان على مستوى عموم الناس، أما بالنسبة لأعمامى الذين أصبح لهم عيال فى الجامعة أفندية وهوانم فقد كان الأمر صعباً يكاد يشكل عقدة نفسية اجتماعية فى الأعمام وفى عيالهم؛ لكن عمى أبوالسعود تكفل - بجهد جهيد وتركيز - بغسل نفسيات العائلة كلها من الشعور بالإشمئزاز من ابن خالتهم حمادة الخريجى.. كيف كان ذلك؟.. لقد بالغ فى احترامه والعطف

عليه كأنه أحد زملائه المعلمين الكبار بل ربما باعتزاز إضافي. كان يقف في استقباله، يصافحه بحرارة، يخاطبه بلقب: أبوسيد! بل كثيراً ما كان يتحدى الناس وهم جلوس على مصطبة بسطويسي حينما يرى حمادة الخريجي مقبلاً نحوه، إذ يزيح من بجواره في لطف ليوسع لحمادة مكاناً يجلس فيه لصقه؛ يكلمه بود وحميمية، لا يأنف من أن يقول له أمامهم: ياحمادة يا ابن خالتي الموضوع وما فيه.. مثلاً مثلاً..

معظم الجلابيب النظيفة التي أصبح جسد حمادة مزداناً بها هي جلابيب أعمامي أصبحوا عن قناعة وطيب خاطر يتركونها في منتصف عمرها أو ربما نصف جديدة أو جديدة تماماً لكنها لم تدخل مزاج صاحبها، يرسلونها في سلة تحوي قدراً من اللبن والجبنة والأرز الأبيض والملوخية والبامية وفواكه من جنينة الدار، تحملها بدر اليمن الملاية إلى دار ابن خالتهم حمادة الخريجي هدية من معزوزة لأختها الصغيرة مسعدة. هذا غير الهبات غير العلنية التي أعرف منذ وقت مبكر أن جدتي معزوزة ترسلها سراً مع بدر اليمن إبان دخول المحاصيل الزراعية، وأعرف أن جدتي معزوزة تحمل هم أختها الصغرى مسعدة لأنها يا قلب أختها مريضة بشلل الأطفال في ذراعها الأيسر الذي توقف عن النمو قبل أن تخطو على الأرض فبات أشبه بزعنفة سمكة كبيرة، وكثيراً ماكنت أضبط جدتي معزوزة وهي منحنية على السلة المغطاة بهدمة ودموعها تفرفط قبل أن تعاون بدر اليمن على رفعها إلى رأسها، وإذ ترى أنني رأيت بكاءها تقول كأنها تكلم الحظ أو القدر: مسكينة طول عمرها صاحبة مرض وسيئة الحظ أيضاً ! ألم يكفها مرضها؟ لا! يفتقر أبوها لأجل بختها الأسود!..

لن أرى ما حييت صبراً كصبر عمي أبوالسعود وطولة باله وهو يعلم ابن خالته حمادة الخريجي فك الخط، في بحر أشهر قليلة أصبح مزاجاً عند

حمادة الخريجى أن يلتقى أبا حواس كل يوم فى طلب الجرنان مثل علية القوم حتى وإن كان جرنان الأمس بنصف أجر. ولداه سيد وبرهوم سيقا إلى المدرسة الإلزامية بقوة الخفراء النظاميين بأمر الحكومة بأن يكون التعليم إلزامياً لا يفلت منه أى طفل له شهادة ميلاد مسجلة فى دفاترها.

وكان حمادة يمتعض لوقف حاله فيرد عليه عمى أبوالسعود بلطف وحسم:

- «ياحمادة يا ابن خالتى التعليم أصبح كالماء والهواء من حق جميع الناس»!

- «أهلا بيه! ياتلتميت مرحبا! بس ياأبو السعود أفندى .. أنا باسترزق من ورا الولدين»!

يلكزه عمى بيده الثقيلة:

- «عيب عليك هذا الكلام لا تحمل للدنيا هماً! كل أمور حياتك ستكون على مايرام بإذن الله»!

بالفعل ترك الولدين ست سنوات حتى صار بإمكانهما القراءة والكتابة والحسابة بل أصبحا يفهمان ما يسمعانه فى الراديو من كلام فى السياسة.

(١٥) نار الجلة تأكل العاشقين

إنما الذى كان مجلبة للعار حقاً ابن خالة آخر هو عرفات عمرو الذى ألصق به لقب الشيخ من باب العمى، فبما أن معظم العميان فى بلدتنا شيوخ بشكل أو بآخر على مستوى أو آخر، ربما لأن القرآن الكريم هو المشترك الأعظم بينهم إذ إنهم يحترفون قراءة القرآن للتكسب من ورائه بحسنات يدفعها الناس إكرامية للقرآن فحسب بصرف النظر عمن يقرأ وعن رداءة صوته وسوء قراءته. ولعل الشيخ عرفات عمرو قد حفظ القرآن بالفعل على يدي جدى حسن فى كُتاب العقالوة ، ولعله كان يحلم بأن يكون شيخاً جليلاً محترماً لولا أنه تركيبة إنسانية مفكوكة الصواميل كما وصفته أمه ؛ جدتى الحاجة زهرة. إنه إبنها الثانى بعد عبدالرحمن الحلاق الذى توفي منذ وقت قصير دون أن يدخل الدنيا، كان حاد الطبع أكثر من بنت عمه الحاجة ست عمره، وموس الحلاقة بين أطراف أصابعه يصيبها الإضطراب فيعجز عن التحكم فيها إلا بعد أن ينفض ما تراكم فوق رئتيه بالأمس من بلغم سميك نتيجة تحشيش متواصل من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر فى غرفة معزولة فوق سطح دارهم، سهراته الليلية تضم أشكالاً وألواناً من البشر يجلبهم مختار الشربتلى من معارفه الذين لا حصر لهم، معظمهم تجار حشيش وأفيون من أجاويد بلدة مجاورة لبلدتنا تمتاز بأنها مدفونة فى

سهل سحيق تحيطها برك ومستنقعات من جميع الجهات تعجز حملات الشرطة عن اقتحامها فتلجأ إلى قطع الطريق فى أكمنة ليلية شهرية حيث تفتش من تشتبه فيهم من الداخلين والخارجين على السواء فلا تتمكن من ضبط أى شيء بالطبع لأنه ما أسهل التفاهم مع ممثلى الحكومة فى طريق زراعى بعد منتصف الليل. فى الغالب كان عبدالرحمن عمرو يجمع صفوة الحشاشين فى هذه الغرفة السرية التى تأخذ من الخارج شكل أحمال قش وحطب، فيبيع لهم التجار حشيشاً وأفيوناً طازجين بأوزان مستريحة وأثمان قليلة، يدفعون لعبدالرحمن عمولة، قد يأخذ حقه ناشفاً يعنى حشيشاً وأفيوناً وقد يأخذه قروشاً إضافة إلى أنه شاف مزاجه وحشش وأفين وانفصل عن الأرض تماماً. رحمه الله كان ذيله نجساً، يتواعد مع البنت سبيلة الصباغ المشهورة بالسلوك البطال، يزنقها فى الغرفة بعد انصراف الرجال، يراها البعض متسللة من باب الدار الخلفي خارجة تهرول فى السرداب فيما الصبح يرفع آخر طرحة سوداء عن وجهه الصبوح، كانت كما يقال مصابة بمرض «السودا» حيث المصابة به تبقى هائجة على طول الخط لا تشبع ولا ترتوى، ولم تكن تطلب من عبدالرحمن إلا عافيته إذ إنه من طراز الفيلة، هو كذلك لم يكن يبخل بها على الإطلاق، قيل إنها لجمالها وشهوانيتها أشعلت حميته فصار يفعل كل شيء فى سبيل إشباعها والتمتع بمنظرها لحظة الإشباع؛ مختار الشربتلى علمه كنكة الحشيش، قطعة حشيش مقدارها نصف قرش أى فى حجم نصف قالب سكر، تفرك فى كنكة القهوة، يضاف إليها نصف قالب سكر، ونصف فنجان من الماء، توضع الكنكة فوق نار السبرتاية مع مواصلة التقليب بالملعقة، بعد غلوة أو غلوتين ترفع عن النار وتدلق فى فنجان وتترك حتى تبرد وتجف، تتحول إلى قطعة شيكولاتة، كل حسب قوة جسمه، هناك من يأكلها على عدة أيام إذ أن أقل شيء منها

يحقق سطلةً عميقة مكثفة تطيل عمر الجماع وتمنح الذكر قوة حديدية خارقة؛ عبدالرحمن طماع فى كل ما يقال إنه يخدم الجماع ويحسنه، لم يكفه ما أكله من أفيون طوال النهار، ولا ما شربه من حشيش فى مدخل الليل، أكل الفنجان كله ولحسه ثم صار يقربع الشاى الساخن إلى أن تهاوى على صدر سبيله الصباغ كحيوان مفترس فاقد الوعى ، استخفه الطرب للعنف صارت البنت فى يده كالكرة، من فرط الهبد والرزع واصطدام الأذرع والأرجل والسيقان لا يعى أيهما بما حدث، فى غيبوبة النشوة لم يدركا أن منقد النار قد وقع، وسرحت النار فيما حولها من قش وحطب وأقراص جله، سرحت على مهلها إلا أن الريح فوق السطح خطبت ودها فتأبطتها، لحظئذ كان الذهول قد سكن عينى سبيلة العادية تماماً، ذلك أن عبدالرحمن قد انزلق من فوقها جثة هامدة محملقة العينين لا نبض لا تنفس، لقد مات. حارت التعيسة كيف تخرج من مأزقها، بل من جهنم الحمراء التى ارتفعت ألسنتها بالفعل وأحاطت بهما من كل الاتجاهات. إنها لا تقوى حتى على الصوات، رائحة احتراق ملابسهما واحتراق قطن المساند والشلت والمخدات أدخلتها فى غيبوبة. سبحان الله، لم ينقذها سوى غريمتها ست عمرة التى دأبت على مراقبتهما كل ليلة وتدبر لكيفية قطع رجلها وأرجل هؤلاء جميعاً عن دار ابن عمها، كانت ست عمره أول من صوت بعد أذان الفجر بقليل ، النار شبطت فى سطح دارها، فزع المصلون فى المسجد بل فى جميع المساجد سيما وأن بعض المؤذنين قد رأى من فوق المئذنة ألسنة اللهب فى أول قيامها قبل أن تمتلىء السماء بسحب كثيفة من الدخان.

تلك كانت أخبث وأوسخ حريقة شبت فى بلدتنا، فى وقت من أعمق فترات نوم النائمين، وما لم تكن نسوان البلدة كلهن فى حالة يقظة فالعوض على الله؛ إنهن الجيش الحقيقى فى إطفاء الحرائق، يصرن كأسراب النمل رائحات جائيات بالبلاليص من الترعة إلى بيت الحريق ومنه إلى الترعة،

يلتقين بعضهن بعضاً فى منتصف الطريق يسلمن الملآن ويتسلمن الفارغ يعدن به جرياً إلى الترعة، فيما يقف الرجال فوق الأسطح يتلقفون البلاليص لدلقها فوق ألسنة اللهب، وآخرون يخلصون الأشياء والمفروشات والأطفال من النار المشتبكة، يخلعون الشبابيك والأبواب إذا لزم الأمر بالدخول لإنقاذ من احتجزته النار فى مزنق..

من حسن الحظ ليلتها أن جميع نسوان الرجال المحترمين ينتهزن وقت دغيشة الفجر للتسلل إلى حنفية المكرر على تخوم جرن العقالوة لملء البلاليص والبستيلات، إلى أن يطلع النهار تكون الواحدة منهن قد أنجزت عدة أدوار ملأت دارها وأزيارها بماء الشرب النقى. هاتيك النسوة هن اللائى رأين الدخان متصاعداً قبل صوات الحاجة ست عمره فقوى الشك فى نفوسهن فتحفزن، فما أن طلع عليهن صوات ست عمره حتى كن قد اقتحمن دارها بالبلاليص وصعدن السلم الطينى ورحن يدلقن الماء من على بعد بحذر، إلى أن أدركهن الرجال عقب الصلاة قادمين من جميع أسطح الدور المجاورة خالعين ثيابهم؛ مجرد تواجدهم بهذه الكثافة كتم أنفاس النار وأخمدها وإن هدم سقف الدار فى جزئها الخلفى؛ لكنهم أنقذوا سبيلة التى لم تعد تصلح بعد ذلك لأى شىء على الإطلاق إلا لفائدة واحدة استشفها عمى زكريا: أن تكون تشخيصاً ماثلاً للخطيئة يتعظ منه الخلق إن كانوا مؤمنين؛ أما عبدالرحمن فقد أثبت الطبيب الشرعى أن عجينة الحشيش بالسكر مع الأفيون فتكت بشرايين القلب وسدت الرئة فى آن واحد رغم أن صحته كانت أقوى من صحة الفيل لدرجة أن الطبيب لم يستطع منع نفسه من أن يحسده على جثته الهرقلية.. تلك أيضاً كانت الموعظة الثانية التى التقطها عمى زكريا كوسيلة إيضاح مدرسية يطبق عليها شرحه لعدالة العقاب الإلهى على كل من يفترى على نفسه على صحته على دينه على ما يغضب الله ، إنّا نعوذ به من شر كل شيطان رجيم..

كان موت عبدالرحمن عمرو على هذا النحو أسطورة من أشهر حواديت بلدتنا فى أواخر أربعينيات القرن العشرين؛ والعجيب أنها كانت من النوع الحميم لدي الناس ؛ يحبون إعادة حكيها باستمرار، ربما لأنها لا تزال موجودة فى الواقع بناس آخرين على أشكال متعددة حتى أصبحت قصة موت عبدالرحمن سُبة فى جبين كل من يسلك سلوكاً معوجاً وكل من تلعب بذيلها من البنات والنسوان: إياها والمشى فى سكة أبو جلة!.. ذلك أن عبدالرحمن عمرو وسيبلة الصباغ أضيف إليهما لقب: الجلة، لأن وقودها هو الذى أصاب النار بالفتونة..

الشيء الوحيد الذي عجز عمى زكريا عن استشفاف الحكمة الإلهية من ورائه هو ما ترتب على موت ابن خالته عبدالرحمن عمرو من أوضاع لصالح أخيه عرفات الذي لا يستحق في نظر الناس كلها وليس عمى زكريا وحده ما سيرثه – وقد ورثه بالفعل – من دار كبيرة جداً تطل على شارع داير الناحية بدكان وباب وسط ممتد إلى مدخل السرداب وتطل على شارع خلفى يتفرع إلى أحشاء البلدة فهى إذن دار تليق بالعمدة أو بأكبر عائلة فى البلاد كلها حتى بعد اقتسامها مع ست عمره، لم يكلف عرفات نفسه أكثر من بناء جدار فاصل بينه وبين أمه وأخته توحيدة التى تزوجت، استقل بميراثه تاركاً ميراث أمه وأمى سنه وخالتى توحيدة مخلوطاً يتصرفن فيه بمعرفتهن بعيداً عنه، وفتح لداره باباً على السرداب؛ أصبح كل من يراه يدخلها أو يخرج منها يصفق كفاً على كف مردداً: حكم! حظوظ! دار يجرى فيها الحصان بها فرن وزريبة وإسطبل ومندرة وعديد من الحجرات مبنية فى زمن الرخص حيث الأرض بتراب الفلوس وعمال الوسية جاهزون للعمل فى البناء بغدوة أو بكتر خيرك يافلان نخدمك فى الأفراح، وفى النهاية يسكنها رجل أعمى العين لا يحتاج منها أكثر من مصطبة تلمه.. جاتك مصيبة تلمك.. هكذا لابد أن يرميه الحاقدون عليه من الفلاحين المزنوقين فى أخنان وعشش بعيال كثار.

(١٦) بغل .. وفرسة سائبة

الشيخ عرفات عمرو - قطع ولا كان - ضرير ، مغلق العينين تماماً كأنهما مجرد شرخين فى بؤرتين عميقتين تحت جبهة عريضة ممتدة كجرف صخرى أملس، أصلع الرأس من قرع مزمن ملأ فروة رأسه ببقع ميتة شكلها ملتهب داكن اللون معاً كرغيف خبز لسعته العرصة فأحرقته وبقعته باللهب، يضع على رأسه طربوشاً مغربياً شكل غطاء الحلة ، حال لونه الأحمر إلى لون الدم المتجلط المسود. ضخم الجسد، عريض كالبوابة، لباسه سروال بحجر ودكة بشراشيب لكنه مفتوق الخياطة فى منطقة الحجر كلها، فوق اللباس قميص قصير إلى ما تحت الركبتين بقليل، بطوق دائرى وكمين أضيق قليلاً من كُمّيّ الجلباب ، من قماش اسمه البيسة لم يكن مسموحاً لفقراء الفلاحين بغيره من الأقمشة، أزرق كالح كقمصان السجن ولعله من نفس القماشة بنفس التفصيلة وهو نفس القميص الذى قرأت عنه مقالة تاريخية فى مجلة لعلها مجلة الهلال التى يواظب عمى أبو السعود على شرائها كل شهر، من أن هذا هو القميص الذى قرره الرومان للفلاحين المصريين تمييزاً لهم عن النبلاء والطبقة الحاكمة أو شىء من هذا القبيل لكنى بعد أن دخلت قسم التاريخ فى كلية الآداب بإذن الله سأتعلم كيف أبحث فى مثل هذا الموضوع : قميص الفلاحين المصريين أصله وفصله .

لا أحد فى بلدتنا يعرف لماذا ميز الناس الشيخ عرفات، دون غيره من العميان، بأنه الأعمى. لم أسمع فى حياتى من يقول : عرفات عمرو، فلا أحد يعرفه إلا باسم : عرفات الأعمى، مع أن فى البلدة عدد هائل من العميان! أما لقب الشيخ فمربوط بالعميان تلقائياً . إلا أن الشيخ عرفات الأعمى قد شذ عن كافة العميان فى بلدتنا، أصبح هو الأعمى الوحيد الذى يحمل لقب الشيخ ولايتكسب بالقرآن بل قد لا يقرأه حتى عند الصلاة، ولا أظن أن أحداً فى بلدتنا يصدق صلاته وهو رجل هزأة بمعنى الكلمة لاحياء لا أدب لا خلق لا حسن معاملة، ليس يخضع لأى شروط فيرغم الناس على قبوله كما هو، كشخص نسيج وحده، طرفة من طرائف الحياة ، بلوى من بلاوي الزمن التى لا مفر من وقوعها ولا إعفاء من احتمالها ..

يشتغل منادياً ، له فى النداء حضور قوى ناتج عن قدرة كبيرة على الابتكار فى الصيغ بشكل يلفت الأنظار ويوصل نداءه إلى أبعد الآذان وأشدها صمماً . الميت إذا لم يعلن خبر موته بصوت الشيخ عرفات الأعمى لايعتبر ميتاً، يكون مشهد جنازة هزيلاً، والمعزى خاوياً . بارع هو فى جعل صوته يقتحم الناس بحيث لايكون نذير شؤم ينقبض منه الناس، سيما وأنه ينادى على كل شىء ، عيال تائهة، بضائع مسروقة، سلع رخيصة تباع فى مكان ما من البلدة، فلابد إذن أن يكون صوته محبوباً عند عموم الناس لكى يرحبون بالاستماع إليه بتركيز حتى النهاية. بقوته يخترق القاعات الجوانية البعيدة، ببحته التى باتت حميمة، ففى الحال يكفون عن الحركة ، يصيح نفر منهم :

– « اسمعوا .. الشيخ عرفات ينادي !»

يصيخون السمع بإمعان. يقترب صوته الجهوري العريض المالىء الحلق والحنجرة :

– « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله ..
أنعم الله اليوم على فلان الفلانى ابن عم فلان
وفلان وخال فلان وفلان ونسيب العائلة
الفلانية .. اختاره الله للصعود إلى جوار ربه
فلبى النداء عليه رحمة الله .. الدفنة بعد
صلاة العصر .. الملك والدوام لله »

تسحبه طفلة صغيرة لعلها حفيدته ؛ فإن لم تكن متوفرة عند احتياجه لها يتكفل واحد من أهل الميت أصحاب السلعة بسحبه . كل بضعة أمتار يقف ؛ يطلق عقيرته بالصياح :

– « بستة صاغ يا سمك عند مخلوف الطنبارى
فى الرحبة القبلية !»

يصيح :

– « يا أنفار يا شغيله .. بشرى للعاطلين القاعدين
جنب النّسوان لا شغلة ولا مشغلة ولا حتى
قادرين على المسألة .. فيه شغل بكره فى الوسية
اليومية سبعة صاغ ! .. وإللى راغب يقوم دلوقت
حالاً يروح للمقاول على منصور !»

يصيح

– « يا أهالى بلدة الضبعة الكرام وغير الكرام أيضاً !
كل فرد فيكم يروح يقيد اسمه واسم عياله فى
دفتر محمد أفندى إبراهيم فى دوار العمدة لزوم
التعداد السكانى ! إللى مش حيروح هو الجانى
على نفسه ! سوف لا يكون مثبوتاً فى أى دفتر من

دفاتر الحكومة يعنى لا تعترف بوجوده ولا بموته ولا بأولاده ولا مواريثه كل هذا يضيع عليه فى الكازوزة ! حكم القوى على الضعيف إلا يا خلق ، ومادام القوى حكم يبقى ما على الضعيف إلا التنفيذ والسمع والطاعة .. أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم !» .

وجوده حيوي فى حياة بلدتنا ، حضوره أيضاً قوى ، ويقوى أحياناً إلى حد يستوجب الضرب بالرصاص للخلاص منه ومن وجع دماغه خاصة أنه بات غير قادر على تخفيض طبقة صوته التى يستعملها فى النداء ، انصبت حنجرته فيها وتصلبت فاستحال عليه الكلام بغيرها فى الحديث الودى العادى فى المناقشة وحتى فى الفراش إن طرأت عليه ملاحظة على زوجه أثناء الجماع اليومى قالها كأنه ينادى على وضع من الأوضاع .

هو متزوج من امرأة اسمها رباح ، مع أنها أتعس خلق الله قاطبة . طويلة كعرق الخشب، نحيفة ، صدئة الوجه والقدمين رثة الثياب إلا فى حالات نادرة . مقطوعة من شجرة ، لا أب ، لا أم ، لا عائلة من أساسه. تمت ولادتها بعد رحيل أبيها بشهرين اثنين، أمها وأبوها نفران من الغرابوة الذين يجلبهم مقاول الأنفار للعمل فى حدائق سمو الأمير على طول المواسم؛ ولأن بلدة الغرابوة دائماً هى مكان رزقهم حيثما حلوا، وهو بالضرورة مدفنهم حينما توافيهم المنية، فقد كان طبيعياً أن تدفن الأم زوجها فى مدافن الصدقة وما أكثرها فى بلدتنا ، وأن تقضى بقية عمرها قرب جثمانه تؤنس وحشته من حين لحين بزيارته وقراءة القرآن على قبره . استمرت تشتغل باليومية، تخدم فى بيوت الأعيان، إلى أن ربت ابنتها رباح ، وكانت تأوى وإياها فى عشة مبنية بالبوص المجدول بخشب وأجولة قديمة ، سمح لها صاحب ماكينة الطحين بإقامتها خلف جدار المطحنة إذ أنها عصر كل يوم

تفرش أمام الماكينة بقصعة الترمس والحلبة المزرّعة تبيع لزبونات الماكينة لقاء حفنة من دقيق أو من الأرز الأبيض . قيل إن رباح كانت دميمة لكنها كانت جدعة ، وفيها أنوثة . أيامذاك كان الشيخ عرفات يقلب عيشه بقراءة آخر ما تبقى فى ذاكرته من قصار السور على أرواح الموتى فى المقابر أيام الخميس من كل أسبوع وأيام الأعياد؛ أما بقية أيام الأسبوع فيقضيها على فيض الكريم فى انتظار من يطلبه للنداء .. فى المقابر التقى رباحاً وأمها ، تطوعت رباح بتوصيله إلى الدار عدة مرات، قامت بينهما مناوشات، اشتهته فعلمته تلقائياً كيف يشتهيها ، لكنها نفسها أطول من نفسه ، استدرجته حتى تزوجها على سنة الله ورسوله، تشهد الأجيال السابقة على جيلنا أن الخناقات بدأت عقب الزفاف مباشرة وبشكل مجهول الأسباب ، فجأة تدب نار الخناقة من أعلى نقطة، نقطة الاشتعال ، ما أسرع ما يرتفع الصوات ، ينفتح الباب المطل على السرداب، وهو يجرى وراءها؛ العجيب أنه دائماً يفلح فى الإمساك بها من طرف جلبابها، تقع على الأرض صارخة فى قلب شارع داير الناحية يبرك فوقها بكل ثقله ينزل فيها تلطيشاً باللكمية حتى يكاد يكتم أنفاسها لولا أن يفلح الرجال فى رفعه عنها بالقوة وإعطائها الفرصة للهرب فيبقى هو مقعياً على رصيف الدكان الشاذ يشتم ويسب متفننا فى ابتكار صيغ طريفة للشتم والسب ، لا يهمد ولا تنقطع حبال صوته ربما طوال عصرية بأكملها، إنه لأسخم وأضل سبيلاً من عمته ست عمره ..

قعدة الإقعاء جزء لايتجزأ من شَخْصِيتّي : قارىء القرآن على المقابر، وماسح الأحذية، فإذا أقعى الشيخ عرفات على الأرض أو على رصيف الدكان ينشلح القميص والسروال عن فخذيه ، لا ينتبه هو ، أو لعله فى الغالب لا يبالى، إلى أن عضوه الطويل التخين فى طول المسطرة قد انحسر

عنه اللباس المفتوق الخياطة فى حجره، كقط أسود متكور يتلمظ يتأهب لاصطياد فأر ، يصير مضحكة صاخبة .

العيال الأشقياء، وأحياناً بعض الكبار الخبثاء يختبئون فى دروة، بحفنات من الحصى أو زبل المعيز أو البلح الرامخ، ينشنون على دماغ العضو بإحكام شديد .. ينتفض الشيخ عرفات انتفاضة رمزية، موحوحاً، صائحاً :

– « مالك وماله يا ابن الرفضى ؟! غايظك فى إيه ده ؟! يا أخى إن كنت تعوزه خذه حلال عليك بالهناء والشفاء مطرح ما يسرى يمرى ! و ..»

تعاجله تنشينة أشد قسوة تنفضه نفضة حقيقية هذه المرة؛ يصعر خده نحو مصدر الضربة :

– « يا ابن اللبؤة إن كنت شفتنى فى سرير أمك
ذات يوم فما ذنبه هو ؟ .. لاتكن جاحداً يا هذا !»

تعاجله الضربة من جهة أخرى ، لايتورع هذه المرة عن مد ذراعه تحت حجر السروال فيطبطب ويملس على عضوه فى حنو بمزاج رائق كما يفعل بعضنا مع القطة الأليفة :

– « لا عليك لا عليك ! ربنا خلقك تليق بحصان!
كان المفروض أن تولف على فرسة لا على سفروتة
تحيلك على المعاش ناقص عمر!»

تجيئه ضربة موجعة، يجعر بانفعال مسرحى، فشكل وجهه عند الغضب مثل شكله عند المرح، نفس التقاطيع المتهدلة فى امتلاء يبك منه الدم توحى بأنها فى حالة إنصات كأن تركيزها على استلاب كل ما حولها من صوتيات لايعطيها الفرصة لفرز واستيعاب ما تسمع فلا يبدو عليها أى انفعال جديد، قد لايستوعب الشتمة أو القرص بالسباب إلا بعد حين، إذ لاشىء مما

يسمعه يضيع مطلقاً ، إنما يتم تحزينه فى جوانياته، ولقد يعاتبك اليوم على غلطة فى حقه غلطتها من سنين مضت، بأمارة كذا وكذا، وأنت يستحيل أن تتذكر ، أما هو فالمسموعات المتعلقة بشخصه تنحفر جواه فلايمكن طمسها؛ فإن رأيته ذات لحظة يتخانق مع أحد، أو يدب خناقة مع شخص لم يلمسه على الإطلاق فاعلم أنه يتعارك ثأراً لجرح حدث سنة كذا .

التنشين على عضوه بالحصى يتم وزوجه رباح جالسة القرفصاء جوار مدخل السرداب تسمع وتشاهد وتشارك المشاهدين الضحك إلا أنها تضحك فى عبها حتى لايسمعها . لقد سئمت كل شىء فى حياتها معه وأفنت عمرها فى خدمته؛ أنجبت له ولداً وبنتين : عبدالعزيز وسعدية وأنيسة ؛ أما عبدالعزيز فقد ضاق بالعيشة فى البلد، وفى يوم دخلت البلدة سيارة بضائع بصندوق كبير يركبها مع السائق مندوب يلف على محلات البقالة يعرض عليها بضائع من خردوات وعبوات شاى وزهرة وسجاير؛ الولد ولًف على المندوب والسائق فى لمح البصر فاستلطفاه فمشى معهما يرشدهما إلى دكاكين البلد، فلما انتهت مهمتهما طلب أن يأخذاه فى طريقهما إلى حيث يذهبان . كانا مسافرين إلى مقر الشركة فى دمنهور ، فسافر معهما، اشتغل فى الشركة فى تعبئة الشاى والتبغ والحلوى لمدة شهرين، ادخر أجرة السفر إلى الاسكندرية ليلحق بولدي ابن عمه ، ابني ست عمره، استطاع الوصول إليهما بالفعل، وأن يشتغل معهما، فاستقر فيها وطلق البلدة بالثلاثة على رأى أبيه. أما البنت الكبيرة سعدية فتزوجت من فلاح على قد حاله، وكانت عاقلة مياله إلى الاستقرار فابتعدت بزوجها وعيالها إلى مكان بعيد قرب المدرسة الإلزامية. أما أنيسة - المهرة السائبة - فقد تزوجت هى الأخرى ولكنها لم تبتعد، إنها تعشق هذه المنطقة من شارع داير الناحية،

تبرطع فى الشارع كيفما اتفق، ورثت عن أبيها لامبالاته وبلادته وورثت أيضاً فحولته الجنسية ، فبرغم طولها الفارع كانت جسداً أنثوياً لعله أجمل جسد فى تاريخ بلدتنا، لابد أن يخر أمام سطوته أعتى الرجال ، سيما وأنها مهملة فى ملبسها لايعنيها فى شىء أن يكون نصف صدرها العلوى عارياً، أو أن ينحسر طرف الجلباب عن فخذها السمهرى القرطاسي الشكل ببشرته الخمرية اللون تلمع بالشبق والجاذبية المسكرة كأنها الحجر الكريم لا يخفى الغبار والوسخ لمعانه وأصالته، أما حين تمشى فى الشارع فإنها تصير مهرجاناً للإثارة يموت فيه الناس عشقاً حتى النساء يتأملنها فى دهشه وغبطة ، لعلهن يغبطنها على هذه المؤخرة الدائرية المشقوقة شقاً يبتلع الجلباب مهما اتسع، المحمولة على ساقين سامقتين تتمنى كل واحدة منهن أن يهبها الله شيئاً من اتساقهما ، يغبطنها على الخصر الرفيع المتطاول كأن ما بين المؤخرة والسرة رقبة أخرى كرقبتها الطويلة ذات النحر المفروش على الكتفين بعروق وشرايين بارزة كجذر الشجرة، يعلوها وجه مستطيل قمحي اللون تحت بشرته بقاع ضوء أحمر يتسع فى الخدين يفصل بينهما أنف واقف طويل ناعم الطرف عند المنخرين أكثر نعومة وتواضعاً عند نقطة التحامة بالعينين الواسعتين كعينى البقر الوحشى، فوقها جبهة مستوية السطح تشبه مسن الحلاق، الحاجبان الثقيلان الطويلان ومنابت شعرها فوق الجبين تكمل صورة المسن مؤطراً بجرابه الجلدى؛ أما الشعر فلابد أن يكون شعر جنية نداهة، حزم من ليل أسود حالك تتطرح على ظهرها فى ضفيرتين هابطتين إلى ما تحت المؤخرة .. كثيراً ما يطق دماغها فتخرج إلى الشارع من غير تضفير، فكأنها غطت ظهرها كله بالملس الأسود، تصنير فرجة، وإذ هى على وعي تام بما تفعله ويفعله جسدها من بث الهياج

والسخط فإنها أثناء مشيها فى تؤدة متبخترة تنظر إلى من ينظر إليها مسبلة جفنيها قليلاً بما يعنى أنها تقصد الإثارة والتحدى، ربما لأنها على ثقة من أن أحداً لن يستطيع أن يقول في شرفها : تلت التلاتة كام ؛ وهذا صحيح؛ فبصرف النظر عن كونها تمت إلى عائلتى بصلة قربى فإن الواقع فى بلدتنا ليس سائباً وإن طغت على سطحه بعض الظواهر الفاقعة ، فالمرأة التى تقع فى الغواية لابد وحتماً أن ينكشف سرها فى زمن قياسى ، ومن تحبل فى مكة يأتى بأخبارها المجاورون ، وأنيسه بنت عرفات الأعمى وإن أثارت البلدة كلها وهيجتها عن بكرة أبيها إلا أن أحداً لم يطالها على الإطلاق؛ ليس لعفتها فحسب وإنما لأن جسدها نفسه – سبحان الله –على قدر ما هو جنسى صرف كان مخيفاً وطارداً ؛ ولعل هذا هو سرها العجيب؛ فلقد حكى الكثيرون من الشبان الأشقياء أن ظروفاً خاصة وطارئة جمعت بينها والبعض منهم فى حالة انفراد آمنة بشكل أو بآخر دونما أى ترتيب من جانب أى من الطرفين، وأن من كان يظن نفسه حصاناً أو ثوراً عفياً هائجاً ويظنها بقرة شرقانة فوجىء بأنه لوح من الثلج لايستطيع حراكاً فيما هى كذلك بلا ردود فعل كأن شيئاً لم يحدث إنما هى قد سلطت فيه نظرتها فخيل إليه أن عينيها جورتا نار سوف تبتلعه حالاً، فغادر المكان مضطرباً . مثل هذه الحكاية شائعة بين الشباب والرجال بأشكال مختلفة وتفاصيل متعددة لعل أكثرها شهرة حكاية ذلك الذى دخل دارها ينادى أباها ففوجىء بها عارية تماماً فى قلب الطشت تستحم فى ركن من حوش دارهم الواسعة، فراح يقترب منها واجف القلب يريد اشباع عينيه من كل تفصيله فى جسدها فتنته تحت الثوب فكيف بها بدونه ؟ قال إنها بقيت على حالها مقعية فوق ما يسمى بكرسى الحمام ، وهو كرسى من الخشب لا يزيد ارتفاعه عن

خمسة سنتمترات وطوله ثلاثين فى عشرين عرضا ، ظلت مقعية فوقه ساندة ذقنها فوق ركبتيها المثنيتين على الفخذين والشعر من ورائها عباءة من الجوخ تلف ظهرها، تركته يقترب حتى ظن أن المزاج موافق فى ترحيب ودعوة، فما أن صار محاذياً للطشت حتى فوجىء بأن الدنيا قد أظلمت فى عينيه فراحت الأرض تدور به ، كل ما فعلته أنيسة - وبمنتهى الهدوء أنها طست وجهه بحفنة ماء دخلت طراطيشه فى عينيه، من فرط خوفه من الفضيحة ارتد يتخبط فى حوش الدار فإذا بحظّه النكد يوقعه فى قبضة الشيخ عرفات الأعمى وكان لحظتها آتيا من المسجد ، كلاهما لحظتذاك أعمى ولكن عماء الشيخ عرفات كان مبصراً وحدسه كان يقظاً دائماً تجاه حركة أى لص يقتحم داره التى يعرف أن الجميع يحسدونه عليها وأنها نظراً لاتساعها قد تغرى بالسطو عليها - عفق الشيخ عرفات رقبة صاحبنا ذاك من طوق جلبابه ولم يتركه إلا فى دوار العمدة . عند العمدة أراد أن يكحلها فأعماها ، قال إنه دخل ينادى على الشيخ عرفات .. فكيف دخلت إذن مادام أصحاب الدار لم يردوا عليك ويأذنوا لك ؟! .. ثم قال إنه يطلب تحويله الآن إلى الطبيب الشرعى لأن ابنته أنيسة التى كانت تستحم فى ركن الحوش رشته بشىء كماء النار حجب الضوء عن عينيه وأشعل فيهما النار .. ودخلت على الحريم وهى تستحم؟! أنت إذن سافل وسىء القصد والنية ولابد من تحويلك إلى المركز - لم تكن نقطة الشرطة قد أنشئت بعد فى بلدتنا - حتى يرتدع أمثالك من الأشقياء السفلة، مالكم ومال أنيسة يا غجر يا أوباش ؛ هكذا راح الشيخ عرفات الأعمى يكيل له السباب . الولد التعيس راح المركز بالفعل ، بل وراح المحكمة وتلطم شهوراً وسنوات فيها إلى أن حكمت عليه بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ ؛ لكنه كان قد فقد البصر ، ذلك أن

المياه التى قذفته بها أنيسة لم تكن ماء النار، إنما كانت مياه الطمث ، كانت أنيسة تتطهر من الحيض، وكان «الحفاض» المصبوغ بالدم الأسود المتصلب ساقطاً منها تحتها فضبغ المياه فى قعر الطشت بلون البلبلة ، لون السم الزعاف محمر مسود مزرق داكن ، ولم تكن أنيسة قد شرعت بعد فى الاستحمام، بالكاد خلعت ثيابها ، ودلقت كوزين من الماء الساخن من تحتها؛ لم تكن كذلك تعرف أن باب الدار غير مسنكر من الداخل بالترباس، فأبوها حين خرج لصلاة العصر اكتفى بإغلاقه صورياً على أساس أن المسجد على بعد خطوات من الدار وسوف يخطف الأربع الركعات ويرجع لينام .. هكذا قال وقالت أنيسة فى تحقيقات الشرطة والنيابة وكانا من وجهة نظر القانون على حق تماماً ..

تلك الحكاية الشهيرة جداً فى بلدتنا ، الموثقة بوجود بطلها على قيد الحياة قعيد الدار من فرط شعوره بالكسوف والعار ، فرّغت إعجاب الرجال بجسد أنيسة من كل طموح جنسى شخصى ، يحبون رؤيته والفرجة عليه بشغف عظيم ولكن .. فحسب وحتى الذين يحبون الدخول إلى البيوت من أبوابها الشرعية على سنة الله ورسوله قد أحجموا وتنازلوا عن فكرة الزواج من أنيسة ، ليس فحسب للشعور العام الشائع عنها كالعقيدة القائلة بأن جسدها ذاك يحتاج لفارس عفى كعنترة ابن شداد مثلاً ليقوى على إشباعها وإلا استغفلته وراحت لمن يشبعها ؛ وإنما لسبب آخر أشد وأقوى ، هو شعور عام آخر كالعقيدة أيضا بأن السيطرة على شخصيتها وإخضاعها لنظام الزوجية والعائلية وما إلى ذلك أمر مستحيل تماماً ، إنها كائن وحشى ضد الأنظمة بجميع أصعدتها، ولولا بقية من عقل وحياء لتمردت على

أنظمة الملابس والاستحمام، وكل ما يتطلب نظاما معيناً بشكل ما، وليس يوجد فى بلدتنا ولا فى أى بلدة من حوالينا عائلة ـ أياً كان وضعها الاجتماعي والاقتصادى ـ تقبل بأن تنضم إليها أنيسة على وجه التحديد بأى شكل من أشكال العلاقات.

أما الذين كانوا مستعدين لبيع عائلاتهم وبيع الدنيا كلها فى سبيل الاستحواذ على أنيسة بعقد شرعى، وما أكثرهم فى بلدتنا برغم اشتهارها بأنها بلد محافظ أو متحفظ لكثرة عدد المتعلمين فيه، فإن عدداً كبيراً من هؤلاء تقدموا لخطبتها تسبقهم القرابين، ولكنها ـ وهذا مما أدهشنا جميعاً ـ كانت تتصيد كل من يتقدم لخطبتها على انفراد ثم تريه ما لا يمكن قبوله من زوجة ولا خطيبة بل ولا امرأة على الإطلاق، كأن ترفع إليتها وتضرط بصوت عال مزعج مذهل فوق قبحه ونتنه، ثم لا تعتذر، بل لا يبدو عليها أنها فعلت شيئا ممجوجاً، فيخرج الخطيب ولايعود مطلقاً..

الوحيد الذى رضيت به وأحبته وشجعته بنفسها على التقدم للزواج منها كان الولد فرهود حواس، ولد قصير القامة إذا وقف بجوار أنيسة تكون منهما رقم عشرة، هى الواحد وهو الصفر، يسمونه بالولد لأنه من النوع الذى لا يبدو عليه التقدم فى السن أبداً، كان على مشارف الأربعين من عمره ولكنه يبدو أصغر بعشر سنوات على الأقل، إذ إنه لا يحمل للدنيا هماً على الإطلاق، لا شىء فى الحياة يؤرقه أو يقض مضجعه بل ليس ثمة من مضجع من الأساس، أبوه كان طربياً يعيش على ما يجمعه خميس كل أسبوع مما يوزعه الناس فى المقابر من أرغفة وأقراص وتمور وقروش أحياناً، رحمة ونوراً على موتاهم، قيل إنه كان صعيدياً لجأ إلى بلدتنا منذ خمسين عاماً هارباً من ثأر، وكشأن الغرباء الصعايدة احتمل المبيت فى أى مكان إلى أن تواتيه قوته بانفراج، وجد فى مدخل البلدة الشرقى مستنقعاً يبدو عريقاً فى

هذا المكان، وقد صدق حدسه بأن ماء النيل عند الفيضان يغرق هذه المساحات الشاسعة شهوراً طويلة ثم ما تلبث الشمس حتى تجففها، والفلاحون يلقون بالأتربة فيها فتعلو بقع منها لا يطالها الماء، فحط حواس على واحدة من هذه البقاع المرتفعة وأقام فوقها عشة من الطين مسقوفة بالبوص، والتقى في بلدتنا من يرضيها أن تكون رفيقته في الحياة، فتزوجها، راحت تكافح معه في تطليع الزرائب وشغل البنائين وضرب الطوب وحراسة المحاصيل في الأجران وفي كل ما يصادفهما من عمل إلى أن تقدم بهما العمر معاً وباتا غير قادرين على مواصلة الشقاء بما يقتضيه من صحة وعافية، ولم يكن الله قد رزقهما من خلفة سوى فرهود، هما غير مرحبين أصلاً بالخلفة لأن المرأة شقيانة طوال النهار والليل أكثر من زوجها، فلما أعطاهما الله فرهوداً تركاه يرعى نفسه بنفسه في الشارع كيفما اتفق، يأكل أو لا يأكل لا يجعله الله يأكل، يلبس يتعرى يغور في كشحة، ينام يتشرد هو حر، من قال له يأتي؟ هكذا كانت تقول له أمه إذا طالبها بشيء، هو أيضا ألغي وجودهما من حياته، وكان يجد من يعطيه كسرة خبز، وجلباباً قديماً، ومن يكسوه في العيد أحياناً، ومن يغمزه بمليم، حادث واحد مرير في حياته، كان ذلك يوم عيد، وسويقة العيد تلتف حول ربوة المقابر، المراجيح وباعة الهريسة والخروب والعرقسوس والشربات والطراطير والصفافير والشخاليل، كأي طفل راح فرهود ليركب المرجيحة، من فرحته بالجلباب الجديد والمليم العيدية اندفع نحو المرجيحة في البرهة التي كانت فيها الأرجوحة قد ارتفعت في الفضاء وشرعت في الارتداد بنفس القوة، والأرجوحة لوح من الخشب موثوق بالجنازير يقف فوقه العيال والشبان ممسكين بالجنازير ولوح الخشب يعلو بهم ذات اليمين ويرتد عائداً يعلو بهم ذات اليسار، في ارتداده ذاك اندك بوز لوح الخشب في عين فرهود فرمى به على امتداد مايقرب من مائة متر غارقاً في دمه، مات، لكنهم نقلوه إلى مستشفى المركز فوجدوه حياً غائباً عن الوعي، مكث في المستشفى أكثر من

شهرين وعاد إلى البلدة بعين واحدة وجبهة مشقوقة من الجنب الأيسر ولكن ملامح وجهه الطفولية لم تتغير، وبقيت لاتتغير متشبثة بطفولة غاربة، بات يساعد أباه فى حرفته الجديدة، الشحاذة على روح الموتى، بعد قليل مات أبوه، ثم ماتت أمه، وبقى هو فى العشة نفسها، إلا أنه كان قد تعرف على الشيخ عرفات الأعمى فى سرحاته فى المقابر، استلطفه عرفات فصار يدعوه للسهر عنده فى داره واثقاً فى أمانته وطيبة قلبه، عاصر سعدية وأنيسة وهى فى مرحلة الصبا، ولم يكن يدور بخلده أن أنيسة بالذات يمكن أن تشجعه على الزواج منها، من شدة فرحته قرر أن يبحث لنفسه عن شغلة محترمة، والطريف أنه جاء يستشير عمى أبوالسعود لعله يشير عليه بما يفيده أو تتوسط له فى أى شغلة ولتكن فراشاً فى المدرسة مثلاً، الأكثر طرافة أن عمى أبوالسعود قد أحس أن فرهود حواس يكلمه بروح معنوية مرتفعة على اعتبار أنه وعمى أصبحا نسايب، أليس سيتزوج من بنت ابن خالته لزم؟ وعمى أبوالسعود يفهم ذلك ويقدره تماماً ويتعمد أن يُشْعِر فرهوداً بذلك بل لايتورع عن أن يقول له:

ـ «شف يا أبا نسب!».

هكذا بكل وضوح جعل فرهوداً يضحك فى بلاهة بصوت جهورى فاشخاً حنكه عن آخره، يضيف عمى أبوالسعود:

ـ «سأعطيك فكرة بمليون جنيه! أنت تصحو كل يوم عقب صلاة الفجر مباشرة! تطلع على محطة السكة الحديد! تركب محطة واحدة لتقابل متعهد الجرانين فله مكتب فى المحطة التالية على محطتنا مباشرة! تتفق معه على مائة جرنان كل يوم! أو خمسين نسخة من كل جرنان: أهرام! أخبار! جمهورية! مع بعض نسخ من مجلات روز اليوسف وآخر ساعة والمصور!.. يبعثها لك فى القطار كل يوم وأنت تستلمها من محطة بلدتنا! تدفع حساب الأمس وتأخذ جرائد اليوم! وتلف على المدرستين والوحدة الصحية وفى الشوارع! يوماً بعد يوم ستبيع أكثر وتقلب عيشك!».

تردد فرهود أبوحواس فى أول الأمر، لكن عمى أبوالسعود كان منذ وقت طويل يفكر فى حل لمشكلة الجرائد التى لاتدخل البلدة إلا مع من كان مسافراً، فما صدق أن انتبه لأبى حواس، أخذه من يده وسافر معه إلى محطة نشرت، ضمنه عند المتعهد، فبات يبعث له ربطة خاصة باسمه فى القطار إلى محطة بلدتنا، ويوم الخميس من كل أسبوع يذهب أبوحواس بنفسه إلى المتعهد ليحاسبه بالورقة والقلم يخصم المرتجع الذى يتركه صباح كل يوم لدى خفير المزلقان، ثم يدفع حساب الأسبوع ويعود إلى البلدة بجرائد الخميس، وكان يجنح إلى التكاسل يوم الجمعة لكن عمى أبوالسعود قاد حملة من زملائه ضغطوا عليه بضرورة الإتيان بأهرام الجمعة على الأقل لقراءة مقال بصراحة لمحمد حسنين هيكل، حيث يقيسون اتجاهات الريح السياسية بناء على ما يفهمونه من بين سطورها..

صلحت حال أبوحواس واستطاع أن يسكن بالإيجار فى بيت محترم، وأين ؟ لصق مصطبة بسطويسى مباشرة، عبارة عن باب ضيق يفضى إلى مايشبه الكهف مكون من حجرتين متقابلتين ومن خلفهما حوش لابأس به مفتوح على السماء، وكان لابد لأنيسة أن تساعد زوجها على المعايش، فاختارت مدخل السرداب المطل على شارع داير الناحية خاصة أن دار أبيها على رأسه، أسندت على جدار دارهم عدة أقفاص بشكل استعراضى، وراحت تبيع الخضروات والفاكهة، غير عابئة ولا مبالية بأن الجدار المقابل لجدار دارهم ويشكل رأس السرداب من الناحية المقابلة هو جدار دكان مطل على شارع داير الناحية متخصص فى بيع الخضروات والفاكهة وإن كان الفرق بين بضاعتها وبضاعته يوازى فرق السماء عن الأرض، فبضاعتها من سقط الفواكه وخضرواتها من نفاية الخضروات أما بضاعة الدكان فكانت بحكم الاحتراف المهنى من الدرجة الأولى، ومع ذلك فلكل من هذه وتلك زبون يتقصدها عند الشراء.

١٧ ـ مهرجان الهزل

دكان غريب الشكل حقاً، مجرد بناء قائم بذاته، أربع جدران من الطوب اللبن مسقوفة بعروق وألواح من الخشب، له باب بدرفتين ودرفيل، واقف وحده فى العراء ليحيطه الفراغ من جميع الجهات وإن كانت الجهة اليمنى مجرد شريحة من الفراغ تفصل بينه والدار المجاورة، يقوم فوق مصطبة طينية ترتفع عن الأرض ما يقرب من متر ونصف المتر ، فى منتصفها درجتان للصعود إلى بابه، وقد امتد طول المصطبة فجار على الشريحة الفراغية الفاصلة فسدها من شارع داير الناحية، هذا الدكان يستأجره فكهانى خضرجى محترف ومحبوب من الدنيا.. كلها هو المعلم مختار الشربتلى، بضاعته طازجة باستمرار، يتسوقها من الجناين ومن الحقول رأساً وأحياناً من الأسواق يوماً بعد يوم، تاركاً لزوجه خضرة مهمة البيع فى الدكان..

لا يمر يوم واحد بدون عراك تصل ضوضاؤه إلى تخوم حدائق الأمير، يشارك فيها كل من هب ودب، بالتعليق الساخر، بصب الزيت على النار، بتحريض الأطراف كلما خمدت نار المعركة، ذلك أن هذه المنطقة من شارع داير الناحية طول عمرها مصدر حركة وتجمع بحكم متاخمتها لحدائق الأمير وتفتيش الوسية، اليوم فيها دكان الحاجة زهرة الذى كان للحلاقة فى حياة ابنها عبدالرحمن، ودكان الحاج علي الوزان القماشى الحافل بلفات

الأقمشة من الأرض للسقف من جميع الأنواع والألوان من قماش الجلابيب والفساتين والألبسة إلى كسوات المراتب والمخدات والألحفة يعنى هو وحده سويقة لا تنفض، ثم دكان رضوان البقال، ودكان المعلم فرحات الترزى البلدى على بعد خطوات، وعلى يسار مصطبة بسطويسى يوجد المسجد المسمى باسم عائلة الشرابنة الذين بنوه منذ عصر الخديوى إسماعيل، أمامه باحة عريضة تتسع لانتشار المصلين واستيعاب فيضانهم فى صلاة الجمعة والعيدين، على جنبها كتاب الشيخ جمعة، بجواره دكان محمود الجمال الحلاق، وعلى يسارها دكان فتحى الحلاق أيضاً، وفى مواجهة هذه الباحة على شارع داير الناحية دكان الأسطى خليل العتقى مرتق الأحذية وصانع النعال الكاوتشوك وهو دكان مظلم رطب فلا يطيب للأسطى خليل شغل إلا أمامه حيث ينقل السندان وقصاصات الجلد وينكب خرزاً وتخييطاً ومسمرة من صبيحة ربنا إلى مابعد منتصف الليل تحت ضوء لمبة الجاز نمرة عشرة، وعلى مقربة منه على الصف نفسه، يعنى فى مواجهة دكان مختار الشربتلى، تعريشة زنوبة عمراية، تحتل مساحة من الشارع، يسهر عندها الرجال والشبان يمصون القصب الذى يجلسون فوق لبشاته المتراكمة، أو يقزقزون الفول السودانى الذى تقليه على الصفيحة فينشر فى البلدة نكهة شهية يسيل لها اللعاب لدرجة أن جميع من يأتى لمص القصب يبدأ سهرته بقزقزة حفنتين ثلاثة من الفول السودانى المقرمش ثم يستروى بمص القصب.

أسباب العراك تبدأ دائماً من عند ناصية السرداب، إنها أنيسة.. دائماً أبداً منكادة من حركة البيع والرواج عند خضرة زوج مختار الشربتلى فيما هى تنش الذباب طول النهار عن بضاعتها العفنة، لا أحد، حتى القريبين

منهما أثناء ذاك يعرف كيف نمت التفاصيل وأدت إلى الانفجار، إنما هى كالنار تشب دفعة واحدة، فجأة يرتفع فاصل من الردح، بالصوت الحيانى المتبادل بينهما، قد نفهم منه بالويم أن خضرة تحتج على أنيسة التى تهش ذبابها على بضاعتها النظيفة وأن هذه الحرباء - أنيسة - تحسدها على رزقها وتسمم لقمة عيشها، لكننا نفهم بكل وضوح أن أنيسة تشخر - نعم تشخر كالإسكندرانية - ساخرة من البضاعة، إن سر هذا الرواج ليس فى جودة البضاعة ياعوومر، وأنها - أنيسة - لو اشتغلت فى المياصة شوية فسوف تحرمها من كافة الزبائن حتى النساء، عندئذ تبكى خضرة، تشهد الناس عليها، ثم تلزم السكات، الكارثة عندما يجىء مختار الشربتلى، سيفرج على أنيسة أمة لا إله إلا الله، ولكن بظرف ولباقة وخفة ظل نادرة المثال، كل شتمة وجهتها أنيسة إلى زوجه يردها عليها بنكتة حراقة، مؤلمة وقارصة إلى حد إسالة الدم أحياناً دون أن يمسك عليه الناس غلطة واحدة..

هو الوحيد القادر على إسكات أنيسة فى ظرف دقائق تعد على أصابع اليد الواحدة، تقفل حنكها بالضبة والمفتاح قبل أن يفتق لها الجديد والقديم مما سيزعم - بخياله الشرير - أنه يعرفه من خباياها السرية، وأى خبايا يزعمها أى أحد عن أنيسة، هى قبل غيرها على يقين من أن الناس سيصدقونها فى الحال، لأنهم إن لم يسمعوها خلقوها من خيالهم، هى شافت ذلك بعينيها قبل أن تتزوج من أبى حواس، ولهذا سرعان ما تلزم السكات ولكن إلى حين..

ماتكاد عركة أنيسة وآل الشربتلى تسكت حتى تهب مقدم الأصيل خناقة الشيخ عرفات الأعمى وزوجه رباح، هى خناقة من حيث الشكل فحسب أما

من حيث الموضوع فلا موضوع سوى الهزل الماسخ الذى دأب عليه وأدمنه الشيخ عرفات، انتقلت عدواه إلى زوجه رباح، بطول العشرة أصبحت تشترى دماغها وتبادله هزلاً بهزل، وطالما أن وجهه مكشوف ولسانه طويل يعوضه الخراء، فليكن وجهها كالشارع ولسانها كالفرقلة ، فى الهزل كل الأساليب مباحة، وهنا مكمن الخطورة، فاستمرار الإباحة فى الهزل فتح فى سكة الشر لا محالة من دخولها شاء الهازل أم أبى، ستر الله أن رباح أكثر تعقلاً فى النهاية تعرف كيف تظل ممسكة بميزان الهزل إلى حد لابد أن تتوقف عنده، تختفى من المنطقة تاركة إياه يضرب فى سكك الشر نفسه بنفسه..

أصل السبب أنه فى السنوات الأخيرة ـ الرجل عقله خف ـ أمسى يتهمها على ملأ من الناس على قارعة الطريق بأنها أحالت عضوه إلى المعاش على غير أوان، لايحلو له فتح هذه السيرة إلا حين تؤكد له أذنه اليسرى أن شلة نسوان يجلسن مع زوجه رباح تحت جدار دارهم فى مدخل السرداب، بعد إنصات طويل إلى ودودة يتقطعها الضحك المكتوم العابث، يحدس أنهن يتهامسن حول عضوه الذى لم يعد يخجله أن يبرز من فتق اللباس بل لعله يريد ذلك ويتعمده، ميز بين أصواتهن صوت محروسة امرأة عبدالله أبوزعير أسطى ماكينة الطحين، هى جارية سوداء من أصل سودانى وإن كانت مولودة فى بلدتنا لأب وأم كانا من محاسيب عائلة خلاف إحدى أكبر العائلات تحتكر العمودية طوال مايقرب من مائة عام، وكانت محروسة برغم بشرتها السوداء جميلة رشيقة جداً وعالية الجاذبية إلا أنها كائن هزلى بالسليقة خفيفة الظل، هى الوحيدة بين نساء بلدتنا يحق لها ممازحة أعتى الرجال وأشدهم هيبة، مزاحاً مفتوحاً، لا تتحرج من الحديث عن كل ما يتعلق

بالجنس، تذكر الأعضاء التناسلية بأسمائها الصريحة وتتحدث عن الموافقات الجنسية التي ترى أثارها في الصباح على وجوه النساء وحركة الرجال الذين يجرجرون ركبهم في إعياء والنهار لم يطلع بعد، كأن الحياة عبارة عن هذا الأمر وحده وكل ما عداه لا لزوم له، حضورها القوي يحفز النساء على تقليدها في شيء مهم جداً، النظافة الدائمة، الهدوم الشرحة المشرقة بألوان سخنة زاهية، في غير ذلك يمسكن بل يعجزن عن تقليدها، فلو أن واحدة منهن تلفظت بمفردة واحدة مما يجرى على لسان محروسة طول النهار للقيت مصرعها في الحال ضرباً بالسكين من أخيها أو بالنبوت من أبيها، أما محروسة فالناس يتقبلون منها كل شيء دونما حرج أو استنكار أو تحفظ، لأنها هكذا خلقت، ولأنها برغم كل هزلها امرأة محترمة شريفة العرض استطاعت أن تكسر تابوت الحرملك وأن تتحدث بجرأة مطلقة فيما لا يجرؤ الناس على التحدث فيه رغم أنه جوهري في حياتهم، ويبدو أن رجال بلدتنا استشعروا سلامة قلبها وصفاء نفسها ومسلكها القويم فأحبوها ولم يجرؤ واحد منهم على إهانتها أو تجريحها بأي قول أو فعل.. ثم إنها أكبر ند للشيخ عرفات الأعمى، في علو الصوت، في الاستهبال، في قاموس المفردات المكشوفة، بل تتفوق عليه في كل هذا، يضاف إلى ذلك خفة ظلها الخارقة للمألوف من النساء المرحات، على أرضية من حب الناس لها ومساندتها بالتشجيع عندما يحمى وطيس المعركة وتتبادل مع الشيخ عرفات الأعمى قذائف النيران الهزلية.

طرطقة أذنه اليسرى، الشبيهة بالنفير، التقطت عبارة قالتها محروسة امرأة الأسطى عبدالله أبو زعير:

ـ «قومى يارباح إمسكى هذا الأرنب وبيتيه!».

وسمع صوت رباح يشوح قائلة:

ـ «خليه يبرطع فى الهواء! كفاه نوماً طول الليل!».

إنها نفس الصورة المتكررة يومياً، يسمعها الشيخ عرفات ويدرك أن الأرنب المقصود هو عضوه وليس الأرنب الذى تربيه زوجه ضمن ما تربيه من أرانب ودجاج.. ودائماً يرد الرد نفسه بالهتاف نفسه كأنه ليس جالساً على قارعة الطريق:

ـ «اتق الله فى... فى... أقول فى إيه؟! طب طلاق تلاتة منها يامحروسة.. هذه التى تقول كفاه نوماً طول الليل.. جعلتها فجر اليوم تصرخ لله ما يغيثها.. إنما هى التى نشفت خلاص.. كالأرض الشراقى!».

تستجيب رباح لغمزة محروسة وتحريضها المؤيد بإيماءات ممن يجلسون على لبشات القصب وعند الأسطى خليل العتقى وعلى مصطبة فرحات الخياط ورصيف دكان الحاجة زهرة.. تقول رباح مشوحة بذراعيها فى حركة مسرحية تقلد بها نسوان البندر الرداحات:

ـ «ماهواش شرط ياعنية! حد عارف أنا باصرخ من إيه؟ من ضربك فىّ طبعاً!».

ـ «صح! مظبوط يامرة! بس باضربك فى أنهو حتة بالظبط؟ ماهو ضرب عن ضرب يفرق ولا إيه يامحروسـ ـسـ ـسـ ـه؟!».

ـ «روح اتجوز لك بنت صغيرة!».

ـ «إنتى بتقولى فيها؟ طلاق تلاتة منك مسيرها تحصل!.. عن قريب إن شاء الله!».

لاينفض السامر إلا بمجىء مختار الشربتلى من رحلة التسوق اليومية، دائماً معه أكثر من ركوبة بعضها مستأجر لحمل البضائع ، ما إن

يقترب من الدكان حتى ينط بجسده الرشيق من فوق الأقفاص المتدلية بحبال من تحته؛ هدومه غرقانة بمياه العرق. يتوقع الناس أن ضيق خلقه فى هذه الزنقة ستؤدى الى انفجاره فى الشيخ عرفات الذى يجلس هذه الجلسة الخليعة على رصيف دكانه وبحذاء زوجه خضرة الطيبة المنهمكة فى العناية بالسبوبة . من نظرة الغيظ فى عين مختار يتوقع الجميع أنه سيضربه هذه المرة؛ لكن مختار يفاجئ الجميع بنوع آخر من الضرب أشد إيلاماً وهواناً؛ بكل هدوء يسحب العصا من جوار الشيخ عرفات دون أن يشعر به ؛ يمدها نحو رقبته، يحيط عنقفته بعوجاية العصا ؛ يشدها بقوة وقسوة يجعر عرفات مأخوذاً بالمفاجأة رغم تكرارها عشرات المرات، يتشبث بيديه فى العصا يصبح محتجاً على هذا المزاح الثقيل لكن قوة مختار الفتية تنجح فى جرجرته ثم إلقائه على الأرض فى مدخل السرداب، منطرحاً على بوزه كالبهيمة الفطسى..

- «خذ عصاك!»

ويزرعها فى مؤخرته بعنف :

- «ماينفع معك إلا هذا يا بغل يا أعمى العين! هذا محل أكل عيش ! وفيه امرأة بتبيع سبوبة ! تجئ أنت وتتلقح بجوارها كقرد قطع ! وقلة أدبك وسفالتك فوق البيعة؟! ألا تعلم أن شكلك يقطع الرزق يانجس ؟ يا أخى هات لك لباس ! ما معك فلوس ؟ أنت أغنى واحد فينا ولكنك نتن !

- «احفظ لسانك يا ابن الشريتلى !»

- «احفظ بتاعك أنت وإلا طلاق تلاتة إن ما قمت من هنا الآن لقطعته لك بالفأس !»

ذلك أن الثياب انشلحت كلها وبانت عورة الشيخ فرحات كاملة بشكلها القبيح المنفر ، ومحروسة امرأة عبدالله أبوزغير تصيح فى رباح مولولة :

- «لى النعمة يا رباح ! بوسيها وحطيها جنب الحيط !»

ولكن رباح تدارى وجهها بيديها فى ولولة هازلة . مختار يغمز بعينيه وشفتيه للعيال ، يجرى كل منهم ليقذف عضو الشيخ عرفت بحفنات من التراب والبصاق والحصى . تمد محروسة يدها السوداء العفية الى ذراع الشيخ عرفات، ترفعه واقفاً على حيله :

- «قم يامفش ! وجعتك العصا ! »

- «وبعدها لك يامحروسة ؟ سبينى دلوقت !»

تتنحى له عن السكة ، يمضى كالمبصر طريقه الى باب الدار ، يدفعه بالعصا ، يدخل، يرزع الباب وراءه .

لا مناص أمام عمى أبو السعود أفندى من أن يشهد هاتيك المساخر عصر كل يوم طوال أشهر الإجازة الصيفية . كان مثل الجميع يضحك مما يرى ويسمع كواحد من جمهور المشاهدين؛ فأشعر أنه يغطى بالضحك شعوراً بالحرج والاشمئزاز ، ألمحه فى عينيه المليئتين بحزن كثيف ، وذلك الشحوب الذى ما أن يكف عن الضحك حتى يزحف على بشرته كأنه انعكاس لهب من تحتها ، سرعان ما يختفى الشحوب مخلفا اسوداداً كالحًا كَلونِ الملح، فأدرك أنه رماد الدم الذى احترق ؛ يخيل إليّ حينئذ أن وجه عمى أبو السعود قد صار أنقاضاً ؛ غير أن الوجه ما يلبث حتى يسترد حيويته إذ ينفجر ضاحكاً من مفارقة داهمته من مهرجان الهزل ؛ ذلك أن عمى أبو السعود من المتذوقين للفكاهة بل إنه ملئ بالرغبة فى المرح كما يلوح لى بغير حدود ، لولا أن مركزه كمعلم تربوى ، وموقعه كعميد لعائلة كبيرة يفوتان عليه الكثير من فرص المرح ؛ لكنه من أبرع رواة النكتة فى بلدتنا، ونكته دائماً مركبة وتحتاج الى فطنة وذكاء وسرعة بديهة لتذوقها؛ مما يعطى لعمى جبريل الحق فى التريقة عليها بشكل مهذب جداً :

– «نكت أخى أبو السعود أفندى مجمدة مثل الفلوس الكبيرة ! .. أصله لا يتعامل مع النكت الفكة كالفقراء أمثالنا .. على كل حال أنا آخذ النكتة منه وأفكها لكم عشرين ثلاثين نكتة ! »

ما يكاد عمى أبو السعود يضحك مسترداً حيوية دمه المخروق حتى تصيبه طرطشة عفوية كأنه رشق بماء النار من غير قصد جنائى : امرأة عجوز من محبيه كانت مارة فى الطريق من أمام مصطبة بسطويسى – مثلاً مثلا – فلمحته فاقتربت منه لتسلم عليه تشكره وتثنى على أفضاله وأفضال أبيه وأخيه فى تعليم عيالها ، تلف يدها فى طرف الملس وتصافحه ؛ بعفوية وبكل براءة تسأله :

– «هو ابن خالتك الشيخ عرفات ماله طايح فى الخلق ؟» وأشياء من هذا القبيل ، يقابلها كلها بالضحك والسخرية ؛ وفى أحيان كثيرة يصم أذنيه ويشرد عينيه منخرطاً مع نفسه فى قراءة سور من القرآن الكريم.

١٨ - مزاج العايق

مختار الشربتلى الفكهانى الخضرجى، الذى هو فى أصله فرارجى من عائلة كلها فرارجية وتجار بيض لولا أنه كره هذه المهنة لصعوبة نقل البيض واتجه الى الفاكهة والخضروات؛ ولد عايق ، فنجرى كلام؛ لا يعترف بأية مشاكل على الإطلاق ، يدخل بصدره المفتوح على أية صفقة أية عركة وهو على باب الله لكنه بشغل الأونطة وخفة الظل ومظهر الجدعنة إن لم يفز بالصفقة كلها استفاد من حواليها، إن لم ينتصر فى العركة فإنه يخرج منها سالماً بغير جراح . حين وقع بصره على ذلك الدكان الشبيه بالكوخ الطينى على ناصية سرداب الشيخ عرفات الأعمى ، القائم فوق هذه المصطبة العالية التى تحتل جزءاً من شارع داير الناحية وتعطى للدكان شخصية لافتة النظر كأنه دكان من عصور ما قبل التاريخ، يتماهى فى شذوذه وغرابته وصدئه ورثاثة منظره مع جميع سكان السرداب فرداً فرداً : عرفات ورباح وأنيسة وأم العز وزينب حكاشية، حتى قطط السرداب وكلابه ومعيزه وبطه وأوزه وأرانبه جميعاً تختلف بشكل أو بآخر عن مثيلاتها من المخلوقات .. جميعها مخلوقات لافتة للنظر كهذا الدكان الكوخ الواقف بمفرده فى أهم مكان فى شارع داير الناحية، من يمر عليه لابد أن يتوقف ويلف حوله يتأمله ؛ فلو أن بضاعة عرضت للبيع فى هذا الدكان ستجد الزبائن على قفا من يشيل .

هكذا فكر مختار الشربتلى ، ولما انتبه إلى أن دكان صديق عمره الصدوق غازى داود فى الصف المقابل على الناصية التالية قال إنى قتيل هذا الدكان ولن أدعه يفلت من يدى . من فوره راح يجمع بيانات عنه ؛ عرف من صديقه غازى داوود - صاحب أقدم الدكاكين فى بلدتنا - أن هذا الدكان الكوخ كان بالفعل مجرد كوخ وأن لمصطبته العالية حكمة وضرورة ؛ ذلك أنه قد بنى هكذا على هذه المصطبة ليقيم فيه خفير سراية أبو رحاب التى كانت قائمة مطرح دكان الأسطى خليل وتعريشة زنوبة عمراية ؛ حيث كانت عائلة أبو رحاب تقضى عدة أشهر كل عام فى فرنسا واستانبول ، فكان الخفير يقضى الليل بطوله مقعياً على هذه المصطبة العالية فى ضوء أربعة فوانيس تحيط بالسراية يعمرها الخفير بالجاز كلما فرغت ، فكان يستطيع كشف أية حركة تقصد بالسراية شراً؛ فى النهار ينام وتتولى زوجه الحراسة، وكان غازى داوود لديه دفتر يسجل فيه حساب ما يجره الخفير من دكانه من جاز وشاى وسكر ودخان وحبوب للطحين فى حدود معينة متفق عليها ، لكن كبار العائلة ماتوا، والسراية آلت للسقوط فبيعت أنقاضاً ثم بيعت الأرض إلا قليلاً منها لا يزال مطروحاً للبيع لا يجد من يشتريه فاحتلته زنوبة عمراية . قال مختار : فلأحتل الدكان أنا الآخر ؛ فنصحه صديقه بأن يذهب الى ابنة ابن الخفير ، لأن الدكان ملك لجدها الخفير فرحات الخشت الذى مات ومن بعده ابنه فبقيت ابنة الابن المتزوجة فى عزبة نصيف ..

- سافر إليها مختار ، استأجر منها الدكان مقابل عشرة قروش فى الشهر، اتفق معها على أن يكون الحساب كل ستة أشهر ، ونفحها إيجار ستة أشهر مقدماً ، وأتى بالمفتاح. فرشة الخضار والفاكهة تحتل جزءاً كبيراً من المصطبة طوال النهار وشطراً كبيراً من الليل، زوجه خضرة خنفاء قليلاً، لكنها نتاية بمعنى الكلمة؛ مهما عمدت إلى إهمال كل ما يتعلق بالزينة تبقى مثيرة إلى حد الفتنة الكامنة فى عينيها الوديعتين كعينى قطة أليفة؛ يتمنى الرجال لو طارحوها الغرام لكنهم كلما نظروا فى عينيها شاهدوا فى عمقها

شخصية مختار القوى الباجس حامل السكين والخنجر يلعب بهما أثناء الرقص فى الأفراح وفى المعارك . إنما هى لطيفة جداً ، جدعة جداً ، مكافحة ، طيبة القلب صافية النفس لا تعرف اللوع ..

تجلس خضرة وراء الفرش ، جزء منها على المصطبة، وبقيتها داخل الدكان ، تعلّق على الطبيخ وابور الجاز، تغسل الثياب فى طشت صغير ، تمسح للطفل مخلفاته وتغسله بالمرة ، تؤدب الولد الشقى بعصا الغلية فيطلق صراخا مزعجا . ربما تفعل كل ذلك فى آن واحد وفيه أيضا تبيع للزبائن ، تتركهم ينتقون ما يشاءون من طماطم بطاطس باذنجان خيار جرجير جوافة برتقال عنب فرط بلح أسمر ؛ تأخذ كفة الميزان بما عليه من بضاعة منتقاه، تزنها، تدلق الكفة فى الوعاء الذى أتت به الزبونة معها ، بعض الزبونات تتلقى البضاعة فى طرف طرحتها السوداء .

أما مختار العايق فمن حقل إلى سوق، لا يرجع إلا آخر النهار ومعه بضاعة من نوع ما ..

فى آخر الليل يزحزحون الفرش إلى داخل الدكان، يأويان والعيال الأربعة، مساحة الدكان ثلاثة أمتار طولاً فى داخل السرداب، فى مترين ونصف المتر عرضاً . تصير المصطبة عند فراغها فى الهزيع الأخير من الليل مغرية للمتسكعين من خفافيش الليل أو المؤرقين أو الباحثين عن نسمة هواء فى ملقف كهذا أو حتى المنتظرين لأذان الفجر.

يعجب الجميع كيف أن الحياة قد خمدت هكذا داخل الدكان الكوخ بمجرد سحب درفتى الباب إلى الداخل يتساءلون - فى العلن أحياناً - كيف أنجبا عيالهما ومتى فى ظل هذا الخمود الذى لا ينبئ عن أية حركة ؟ هم لايدركون أن مختار ابن السوق المتودّك يستغفلهم ، ينتهز فرصة لغطهم على المصطبة ويرقع الولية - كما يقول بالحرف - فى الكتم الذى هو عنده الذ وأمتع من الصويت الكاذب ، هو الآخر لا يتورع عن امتداح الجماع المكتوم الصوت أمام زوجه فلا تعبأ به بل أقصى ما تفعله أن تلكزه بود ونعومة تهتز لها أبدان الرجال .

١٩ - ساعة نحس

اندلع الصوات عابراً فضاء الجرن مقتحماً علينا دارنا عقب صلاة الجمعة والدار ساعتها تتأهب لتناول وجبة الغداء وذاك أمر لا يحدث إلا فى يوم الجمعة من كل أسبوع حيث الرجال كلهم متواجدون فى الدار . ثلاث طبليات كبيرات رصت بحذاء بعضها فوق الحصير على أرضية المندرة لاستيعاب الرجال والشبان والصبيان والأطفال الذكور. هذه الطبليات نفسها سوف تنتقل بما تبقى فوقها إلى حوش الدار حيث يتم تزويدها بطعام جديد يكفى لنسوان الدار وبناتها من جميع الأعمار . كان الغداء ظفراً ، أربع من الأوز المزغط المحمر ، مع أناجر الفتة بالخل والثوم والصلصة مع سلطانيات الشربة الساخنة وأطباق اللفت والسلاطة والفجل والجرجير والخس . دائماً أبداً تكون الأعصاب متوجسة بصورة قد تصل إلى حد التوتر عند إعداد الطعام، ذلك أن ثمة اعتقاداً راسخاً لدى أهل بلدتنا بأن يوم الجمعة فيه ساعة نحس قد تحدث فيها مصائب ومكاره تصيب سيء الحظ إذ يلتقيها أو تلتقيه . نساء بلدتنا أكثر حساسية من الرجال تجاه ساعة النحس هذه وتوقعاً لها : نجد جدتى معزوزة دائمة التنبيه على نسوان الدار بالتزام جانب الحذر فى شغلهن أمام الفرن والكانون ووابور الجاز واستخدام السكاكين فى تخريط أو تقطيع، تجنباً لحدوث مكروه فى ساعة النحس هذه التى يطل شبحها عادة من أول اليوم حتى أذان المغرب ، مع أن نسوان

الدار كلهن غير محتاجات للتحذير من أن تندلق سلطانية الشرية المغلية على أحد من العيال أو الرجال أو النساء ، أو يتعارك أحد من عيالنا مع أحد من أى عائلة أو يطلع من يرمى بلاءه علينا بأية تهمة باطلة ..

تحلقنا الطبليات بربطة المعلم . أقعت جدتى معزوزة على قرافيصها بجانب أبى منكفأة على «اللحوقي» الكبير، قد راحت تفسخ الإوز المحمر موحوحة من لسع الدخان المتصاعد، تقتطع الأنصبة وتوزعها بالعدل والقسطاس : خذ يافلان .. اعطى لفلان .. حتى الكبدة على ضآلة حجمها توزعها على الجميع . وإذ داهمنا الصوات آتياً من مكان قريب تجمدت أصابعنا ، توقف زحف الملاعق رحنا نتبادل النظرات المتوجسة. رغم الشعور بالراحة الذى ظهر فى عينى جدتى معزوزة لأن ساعة النحس قد غادرت حدودنا وأخذت الشر معها وراحت ، فإن شيئاً من التوجس سرعان ما احتل عينيها الفزعتين خوفاً من أن تكون ساعة النحس قد أصابت أحداً من أهالينا ..

كانت قعدة عمى أبو السعود فى مواجهتها ؛ أدرك مافى عينيها، أراد تخفيف الأمر عليها وعلينا ريثما تأكل اللقمة، مازحها :

– «تلاقيهم الغجر ولاد أختك يا إما الشيخ عرفات عمرو وعياله تلاقيهم نصبوا السيرك بدرى بدرى !»

واندفع يأكل بحماسة ليفتح شهيتنا ، وقد لاح لى أنه يريد الاسراع بالانتهاء من الأكل لينهض من فوره يبحث عن معنى هذا الصوات الذى استمر أكثر مما كنا نتوقع . عندئذ طرق باب المندرة. فكأن الطرق نبوت هوى فوق رءوسنا على حين غرة فكدنا ننكفئ من الخضة فوق أناجر الفتة؛ وضح فى أعيننا جميعاً يقين بأن ساعة النحس قد هبت علينا . بالفعل صدق حدسنا ؛ وورب الباب، ظهر فرج تراتيرو بكامل هيأته مقبلاً نحونا كزعزوعة

القصب تترنح تحت الريح . لم يعبأ بشواظ اللهب الذى صبته فوقه نظراتنا الحانقة ، ولا بالعفاريت التى ركبت جدتى معزوزة فهمت بأن ترفع اللحوقى النحاس لتهشم به رأسه إلا أنها استغفرت واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ثم حزمته بنظرة تطفح بالكراهية . انحشر بين ولدين عند آخر طبلية ؛ سحب ملعقة ، راح يأكل الفتة مع اللفت ؛ جمعت جدتى بقايا الأرجل والأجنحة ، قامت باللحوقى ، وضعت اللحوقى جنب تراتيرو :

– «قزقز دول على ما قسم ! »

سأله أبى :

– «صوات من هذا الذى كان يا تراتيرو ؟ »

قال وهو يمصمص أحد الأجنحة :

– «توحيدة بنت خالتك !» .

– «مالها ؟!»

– «زوجها قتل فى بلدتهم ! هى الآن فى النيابة !

بعثت تطلب ناساً من أهلها للوقوف معها !»

انتفضنا جميعاً واقفين مذعورين . صوتت جدتى معزوزة :

– «وأقول ساعة النحس راحت !! إذا بها جاءت !»

نسوان الدار وبناتها اندلعن جميعاً على باب المندرة وقد شحبت وجوههن واختفت منها الدماء . صرخ عمى أبو السعود فى تراتيرو :

– «يابرودك يا أخى ! توحيدة بنت خالك ؟ يعنى لو لم نسألك ما تكلمت ! ماهى جبلتك بالضبط إن كان لك جبلة !» .

شوح تراتيرو باستهانة واستنكار معاً :

- «وماذا أفعل لها ؟ كلنا سنموت ! وهي بعد كم شهر ستتزوج من غيره فما المشكلة؟»

جدتي معزوزة فقدت السيطرة على أعصابها، شدت اللحوقي من تحت فخذه ، قلبته فوق دماغه، راحت تنهال به فوقه كالمجنونة فيما هو يضحك هاتفاً:

- «عيب ياخالتى ! دماغى ! كفى ! »

تركناه وحده فى المندرة مع أناجر الفتة والقطط . صرخت به جدتى:

- «يوه يوه يوه .. حوشي يا مقصوفة الرقبة منك لها» !

أوقفت تراتيرو من قفاه ، دفعته نحو باب المندره ، ألقت به فى الخلاء :

- «لا أرى خلقتك هنا أبداً ! أنت معدوم الحس !

ماعندك ريحة الضمير ! أنت قليل التربية ! أنت عاقد النية على موت أولادى ! أنت تريد أن تنقل إلينا مرض السل ! يا عالم إن كنا لانزال بصحتنا! إتفوه ! »

أغلقت الباب بالترباس ، استدارت فاصطدمت بخالتى تفيده واقفة وراءها تتابع ماحدث وهى من فرط الذهول اصفرّ لونها وهطلت الدموع على خديها . لأول مرة أرى جدتى معزوزة على هذا النحو من الشراسة والعنف كذئبة تدافع عن مخدع عيالها . صوتها ذاك الشديد الأنثوية فى قديم الزمن كأنه عورة يجب سترها عن الرجال ، قد أغلظ وانشرخ ، صار لذبذباته وقع كصوت الكرابيج تنهال على جسد خالتى تفيدة :

- «إذا ما كان يعجبك ما قلته الآن فاتركى الدار لو أردت ! خذى زوجك معك إن طلبت ! واحد يروح بدلاً من أن أفقد الكل ! لأن أخاك بسلامته

مصمم على تسميم عيشتنا ورمي بلائه علينا ! طول عمرى أخاف على شعور زوجك وشعورك لكنى فاض بى ! يجب أن تعرفى أن المريض بالسل شرير بطبعه يتعمد إصابة الجميع بالعدوى ! وأنا فى حياتى لم أر مريضاً بالسل فى بلادة أخيك وبروده وسواد قلبه !» .

مشت ، تاركة خالتى تفيدة مسمرة فى وقفتها .، انعطفت على الدهاليز ، بعد برهة ظهرت مرتدية الملس الأسود وتبشنقت بالطرحة السوداء . ما أن دلفت إلى الجرن حتى راحت تلوح بذراعيها تطلق صواتاً ملتاعاً . كان أعمامى جميعاً وكبار أبنائهم قد هرولوا إلى دكان جدتى الحاجة زهرة . بعد قليل خرجت خالتى تفيدة بنفس المشهد ومن ورائها أمى التى جعلت تلطم خديها ؛ صار مشهد نسوان العقالوة صفاً من أشباح سود تخترق الجرن فى حداد مروع .

٢٠ - بؤرة الصديد

معظم أهالى الناحية ، وربما البلدة كلها ، يعرفون أن العلاقة بين «ست عمره» والعقالوة متوترة طول عمرها بسبب غطرسة ست عمره وتسلطها وغلظة شخصيتها التى لا تطاق . كانت تخطط لانتزاع عمى أبو السعود أفندى من إخوته ليعيش معها فى دارها الواسعة التى أصبحت تصفر عليها وحدها ، فالدار ملكها من ميراث أبيها ؛ أما والداها اللذان يعيشان فى الأسكندرية فلكل منهما مطرح يخصه فى العمق الخلفى للدار ومفصول بين هذه وتلك بجدر سميكة ولكل من المطرحين باب مغلق بمفتاح فى جيب صاحبه مدخر لطوارئ الزمن ؛ وأما ابنها فرج تراتيرو وأخته تفيدة تراتيرو فلهما ميراث فى دار أبيهما سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو وهى دار كبيرة يرتع فيها فرج بطوله إذ هو أعزب ، لم يفلح فى أى زيجة من زيجاته الأربع الفاشلة . إما بسبب عقمه أو بسبب مرضه .

فى إغرائها لعمى ابو السعود أثناء فترة خطوبته لخالتى تفيدة كانت تتمسكن حتى تتمكن ، تزعم أنها محتاجة لمن يملأ عليها الدار ، وأنها مستعدة لأن تكتبها باسم ابنتها وباسمه قبل موتها ؛ كثيراً ما قالت له بالمفتشر :

- «داركم كبيرة أى نعم لكنها أكوام لحم فوق بعضه ! .. العيشة فيها تكتم الأنفاس فكيف تطيق أنت وابنتى ؟ وإلى متى تبقى ماهيتك الشهرية

ليست ملكاً لك ؟! يارجل فكها على نفسك وعلى البنت وتعال أُقعد عندى أريك نسمة الدنيا !»

لم تتورع عن الدس بينه وإخوته بالوقيعة عشرات المرات وعمى أبو السعود ينهرها المرة بعد المرة؛ ذات مرة بلغ به الضيق من سخريتها من عائلته فكاد أن يصفعها بعنف لولا أن حماه ربه من التهور فاكتفى بالضغط بأصابعه على معصم يدها كاد يكسرها . كان واثقاً من شرورها ، من أنها تريد الإيقاع به فى مصيدة جهنمية إذ أنها تشتاق لوجود ناس تحت إمرتها تمارس فيهم الأمر والنهي وربما البصق فى الوجوه كما كانت تفعل مع عيالها . كان فاهماً لجوانب شخصيتها الوعرة ؛ فطن منذ البداية إلى أنها كانت فى الواقع تكن له كراهية شديدة العمق وتعتبر أنه قد غرر بها وانتزع البنت من حضنها وطار بها كالغراب . علاقتها بابنتها تفيدة - كما قد أصبح معروفاً للكافة - كانت أشبه بعلاقة القطة بعيالها إذا استشعرت خطراً عليهم فقد تأكلهم لتعيدهم إلى جوفها ؛ هكذا كان عمي يفسر علاقة حماته بزوجه..

ذلك أن «ست عمره» منذ أن خدمتها الظروف بأن تكون مرضعة للأميرة بنت الأمير ، ركبها شيطان الغرور فتصورت أنها صارت من أمهات الأمراء. ومنذ أن قامت علاقة الصداقة والمودة بين خالتى تفيدة وأختها فى الرضاعة الأميرة بنت الأمير ، خططت ست عمرة لحياة ذات أبهة عالية عن طريق ابنتها تفيدة بأن تزوجها من رجل عليه القيمة تنتقيه على مزاجها وتنتزعه من أهله ليعيش فى عبها وتحت سيطرتها بحيث تلغى شخصيته كما فعلت من قبل مع ابنها الكبير محمد أفندى الذى طفش منها ولولا الملامة لأنكر أنها أمه أو تمت اليه بأية صلة . فلما تقدم عمى أبو السعود أفندى لخطبة خالتى تفيدة وهو مدرس قد الدنيا وأفندى معتبر لا فرق بين شكله وشكل أفندينا

الخديوى نفسه ، إضافة الى أنه ابن ناس طيبين محترمين مستورين ؛ لمست فيه رقة وعذوبة وحلاوة طبع، فضلاً عن أنه ابن أخت سلفتها ؛ فتعشمت أن يكون على مرامها ؛ بدأت تطرح عليه شباك خطتها وهو فاهم لكن لايعطيها آخره . وإذ رأت أن الأميرة قد خاوت ابنتها بالفعل طوال فترات وجودها فى منتجعها ذاك الشتوى داخل الحدائق ، وجعلت تغدق عليها هداياها الملوكية الثمينة ومصروفات يد سخية استشعر عمى أبو السعود أن الحقد قد راح يأكل قلب ست عمره من هذا الخير الوفير الذى سيفوز هو به فى النهاية . فيما هى الأحق بكل ما يصيب ابنتها من خير إذ أنها هى السبب فيه بما أرضعته للأميرة من لبن صدرها . بل أن ست عمره عجزت عن كتمان حقدها الأسود ، حدثت عمى بالمفتشر فيما هم يستعدون ليوم الزفاف :

- «شوف يا ابن الناس ! .. ابنتى الآن تعتبر أميرة مثل أختها فى الرضاعة الأميرة ! .. يعنى سيأتى من ورائها خير كثير .. وليس يرضى ربنا أن تأخذ أنت الجمل بما حمل ! تفوز بالغنيمة وحدك مثل الباشا وأنا قاعدة هنا مثل قرد قطع !» .

- ياستى ربنا يغنينى عن أى خير يجئ من وراء ابنتك .. أنا أحب ابنتك لا ما يجيء من ورائها ! أريدها لوحدها ! بطولها ! حتى بهدومها التى عليها!

شخطت فيه دون أن تتمالك نفسها :

- «ولماذا لا تجئ تعيش معى ملكاً متوجاً على داري وابنتى ! .. إننى أفتح لك باب الجنة ونعيمها وليس يعجبك ؟! هذا بطر ! »

- «ياحماتى العزيزة أنا .. لابد أن تفهمى أننى لا أستطيع التخلى عن أهلى وقد سلمنى أبى دفة السفينة فصارت أمانة فى رقبتى ! .. أنا لست

حرا فى هذا الأمر بالذات!! والجنة التى تبعدنى عن إخوتى ، وهم رجال أفخر بهم كما يفخر الناس ، يكون الجحيم عندى أريح منها ! .. من خرج من داره يقل مقداره ! »

– «يعنى أنت مصمم على أن تخطف البنت وتطير !

تحرمنى منها ومن خيرها ؟!» .

– خذى أنت خيرها واتركيها لى .. اتركينا فى حالنا لعل ربنا يسهل لنا ولك ! »

– «والـ هـ .. ى .. لكل واحد نبى يصلى عليه ! هذا شرطى لكى يتم الزفاف !» .

– «خلاص ياستى ! .. ابنتك لا تزال عندك ! والمأذون لم يفتح دفتره ! .. كل واحد يروح لحاله .. ويا دار ما دخلك شر على الإطلاق ! .. أفوتك بعافية !»

مشى وهو على نية صادقة بأن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ؛ بل وبدأ ذهنه يستعرض العرائس اللائى حدثته جدتى معزوزة عنهن من قبل . من حسن الحظ أن الأميرة كانت فى المنتجع منذ أسبوع مضى وهى من عادتها أن تبعث فى استدعاء أختها تفيدة لتسليتها . وحينما عادت من عندها مساء ذلك اليوم وأحاطتها أمها علماً بما حدث، صوتت ، قفلت الى السراية ، ارتمت فى حضن الأميرة باكية . وكانت الأميرة قد التقت عمى أبو السعود عدة مرات عابرات لكنها اقتعنت بشخصيته ، قدرته أيما تقدير ، سيما وأن عمتها الأميرة التى أنشأت المدرسة الابتدائية كانت تعرفه وتحترمه جداً ، وقالت الأميرة الصغيرة لأختها تفيدة أنها تحسدها على هذا العريس وتعتبره هدية لها من الله جزاء طيبة قلبها .

هالها ما سمعت من خبر ، طرحت العباءة فوق كتفيها استدعت سائق الكارتة؛ نقلهما الى دار أمها فى الرضاعة ست عمرة ، بمجرد أن قالت لها الأميرة : ياmامي ارتخت أعصاب ست عمره كأنها أخذت حماماً دافئاً بماء الورد والعطور، تنازلت فى الحال عن رأيها . صحيح أنها أظهرت الفرح والسرور بل وزغردت فى الزفة إلا أن قلبها الأسود كان يضمر ضغينة سوداء . فبعد الزفاف كانت كلما زارت ابنتها أو زارتها ابنتها تقوم فتنة فى دار العقالوة تظل حامية الوطيس أياماً عدة؛ لابد لسِت عمره أن تغلط والسلام ، بكلمة غبية تمن بها على العقالوة وهى فى دارهم ، بتعليق مسموم على شئ رأته ، بكذبة تكذبها أو فرية تدعيها لبث الفرقة بين عمى وأهله.. إلى أن زهقت منها ابنتها فقالت لها بالفم المليان :

– «ارحمينى لا تخربى عليّ سايقه عليك النبي!

فانقطعت رجلها عن دار العقالوة ، كل شهر تزورها خالتى تفيدة فى دارها فتعود باكية مهانة .. فلما قامت الثورة وانتزع مُلك الأمراء وانفض سامرهم بل انقطع دابرهم من البلاد ، كرهت خالتى تفيدة أمها؛ اعتبرتها نذير شؤم على الجميع؛ قللت من زياراتها ، ثم آبت العلاقة بينهما إلى قطيعة كاملة؛ سنوات طويلة طويلة مضت دون أن تلتقى تفيدة أمها ولو فى رؤية عابرة ؛ لا مواسم لا أعياد لامناسبات بينهما .. الوحيد الذى كان يود خالتى تفيدة هو أخوها فرج تراتيرو ذلك المريض بالسل وهو غير مرغوب فيه .

٢١ - جسارة الخالة توحيدة

امتلأ دكان جدتى زهرة عن آخره بنساء معظمهن من نسوان العقالوة النشيطات البارعات فى الصوات وفى جميع طقوس الحزن ؛ براعتهن فى مراسيم الأفراح إلى حد يورث البهجة. أما الشارع فقد تناثرت فيه جموع من الرجال والشبان والصبيان والأطفال، كلهم يتكلمون فى آن واحد فى موضوع واحد : خالتى توحيدة الجسورة الشجاعة التى أمسكت بقاتل زوجها وسلمته للشرطة يداً بيد، وكيف أنها تقف الآن فى سراي النيابة العامة وهى أرجل من الرجال فى انتظار أن يلحقها نفر من أهلها للوقوف بجوارها وعمل اللازم..

فى ظرف دقائق معدودة كانت الركائب العفية ذات البرادع المنجدة بالقطيفة قد انطلقت تهرول بالرجال على شاطئ ترعة السلمونية نحو محطة السكة الحديد : أبى وعمى أبو السعود ومحمد أفندى عمرو وغازى داوود ومختار الشربتلى وحمادة الخريجى . ظلت البلدة كلها ساهرة طوال الليل، يتناقل الرجال الحكاية من مصطبة إلى مصطبة إلى جرن الى دكان إلى تعريشة لمص القصب، والحكاية تنمو وتكبر ، تضاف إليها تفاصيل ومعلومات . وكان ثم مجتمع طلابى قد نشأ فى بلدتنا منذ قيام الثورة، فأمست مثل هذه المناسبات فرصة يتلاقى فيها الطلاب من شوارع مختلفة، ينتبذون من الجموع أركانا قصية يتسامرون فيها على هواهم، يتركون

العنان لأخيلتهم تصول وتجول في هذه الحادثة أو تلك ، حول هذه الفتاة أو تلك ؛ ليلتئذ كنت أشعر بكثير من الزهو والافتخار بخالتي توحيدة التي شغلت بلدتنا بأكملها في الحديث عن جسارتها كما لو كانت قد أضافت إلى تراث عائلتنا مجداً تليداً طازجاً ..

حتى بزوغ ضوء النهار لم يكن نسوان العقالوة قد عدن إلى الدار بعد؛ ولكن الصبايا كن نشطات في خدمة الدار على النحو الأكمل، فعمي زكريا وعمي جبريل وعمي موسى كل منهم وجد فطوره جاهزا في صينية نحاسية فوق الترابيزة ذات الرخامة البيضاوية المجاورة لسريره ، ووجد من يصب عليه ماء الإبريق ليغسل وجهه أو يتوضأ، ومن يطبخ له الشاي البروك بوند ملء براد كامل . كذلك الصبيان تناولوا فطورهم بغير صراخ أو ضجيج؛ ذهب كل إلى حال سبيله . قرب أذان عصر اليوم التالي فوجئت بفريد عمرو، أكبر الولدين المقيمين في الإسكندرية ابنيّ ست عمره يلتقيني عند مصطبة البسطويسي أفندياً بقميص أفرنجي وبنطلون وسترة من الجلد في غاية من الأناقة، شعره لامع مصفف بعناية ذي سوالف طويلة كثيفة، لسانه معووج بلكنة بندرية لكنها خشنة مستعارة، كان رجلاً فتياً يتضوع بالعطر ويشعل السيجارة من السيجارة من علبة مبططة في جيب الصدر . عانقني بحرارة، قال أنه قد وصل مساء أمس الأول يعني الأربعاء ومعه خطيبته السكندرية وأخوها الصبي ، قد جاء بهما للتعرف على أمه ست عمره .. جعل يندرب حظه ذاك العكر ، إذ ما كاد يصل حتى دهمه خبر ذلك الحادث المشئوم الذي نكد عليه لدرجة أنه من شدة التشاؤم رفض السفر مع الذين سافروا لابنة عمه ، مفضلاً البقاء مع ضيفيه وإلا فإنها تكون قلة ذوق ؛ راح يتفجع :

- «أنا لقيت الدنيا كلها بايظة هنا ! تصور أن أختى تفيدة رفضت دخول دارنا على أمها ؟! تصور أن أمى لاتطيق سماع اسم تفيدة ؟! ..،، تصور أن أخى محمد أفندى عمرو تجاهلنى حتى لايضطر للسلام على أمه ؟! .. أنا بقيت فى ربع هدومى ياجدع قدام خطيبتى وأخيها ! أيوووه ياجدع أنا عريان ملط ! .. ليتنى ماجئت ! كان يجب أن أتذكر أن من يخرج من دارنا لا يجب أن يعود اليها ثانية ليشترى دماغه ! لكن الفلاح مِنّا غبى! ليس سهلاً عليه نسيان جلده !

على كل حال آهى مرة! الواحد لا يتعلم ببلاش !

كلها ساعتين تلاتة ونتكل على الله ! أيووووه ياجدعان ! ملعون أبوكى بلاد! .. لا أقصد البلد والله ! .. إنما .. الإنسان أمه بلده وبلده أمه بكل أسف ! »

مع المساء عاد المسافرون ومعهم خالتى توحيدة ، على صدرها رضيع وفى يدها طفلة تحبو . قويلت بضجة زلزت الأرض أفزعت الطفلين ، اختلط الصراخ بالصوات بنهيق الحمير بجعير الرجال بأذان العصر . بعد لأي انسلخ الرجال ، بعضهم إلى داره وبعضهم إلى المسجد لصلاة العصر .

كنت تواقاً لمعرفة ماحدث بالتفصيل. ذلك أن خالتى توحيدة كانت تستلطفنى وهى فتاة ، تهزر معي على المكشوف هزاراً جنسياً دونما حرج برغم فارق السن الكبير بيننا ، أمى شقيقتها تكبرها بعشر سنوات . كنت أحبها جداً كما لو كانت أمى قد باتت صديقتى فى شخصها . عمى جبريل كاد يموت بحسرتها ولولا خشيته من أعمامى لتزوج منها فوق زوجته ، فهى فى نظره جذابة وإنه ليعشق نحافتها ورشاقتها ووجهها البشوش دائماً وروحها المرحة وثقتها فى نفسها . قد دار عليها الكثيرون من شبان بلدتنا

متجاوزين كونها شقيقة المنادي الهزأة الشيخ عرفات الأعمى ؛ إلا أنها تملصت منهم جميعاً لأن أحوالهم المعيشية كانت لا تكاد تزيد فى شئ عن حالتها مع أمها .. إلى أن رآها فى سوق بلدتنا تاجر ماشية غني يملك قطعانا من الأبقار والأغنام والخيول، له فى كل سوق مربط بارز ؛ كما أنه محسوب بين أشقياء بلدته المسماة بـ «العجوزين» ؛ واذا كان اسم بلدته غريبا فاسمه هو أغرب ، اسمه : زقله أبوزربة؛ يضع يده على مزرعة مساحتها ثلاثة أفدنة ترتع فيها مواشيه وكلابه . وقع فى غرام توحيدة من أول نظرة بفضل عينيها القويتين الجريئتين الرادعتين الكاشفتين عن شخصية قوية باجسة . كلاهما كان سعيداً بالآخر فنجح الزواج وعاشت خالتى توحيدة فى رغد ، فى دار بالطوب الأحمر بفراندات فى قلب المزرعة فيها عفش أفرنجى .

ولم يكن لزقلة أبوزربة ثمة من أعداء .

بنفسها حكت تفاصيل مقتل زوجها: كان قد دأب طول حياته على الصحو مبكراً لكى يذهب الى سوق أو يشحن السبوبة فى قطار البضائع إلى سوق سيقام بعد يومين اذ إنه لايذهب إلا إلى سوقين اثنين فحسب إضافة الى سوق بلدته كل أسبوع . وقد عودته توحيدة على البدء بصلاة الفجر فى موعده ثم المواظبة على أداء بقية الفروض فى مواعيدها طوال النهار. بالفعل - تقول حسن صلاحه . لم تكن تدرى أن الغدر يمكن أن يلاحقه فى عقر داره . كان قد لبس الحزام بخريطة الذخيرة ، والمسدس المرخص تحت الجلباب؛ فى جيب الصديرى محفظته المتفخمة ببتاع الناس . بعد أن شرب الشاى خرج مسرعاً ليلحق بقطار البضائع فى محطة شباس الشهداء وكان الصبى الذى سيوصله بالركوبة واقفاً فى انتظاره على باب

الزريبة على الطريق الزراعى . كعادتها كل يوم خرجت إلى الشرفة المطلة على باب الشارع لتشاهد زوجها وهو ماض فى طريقه إلى الباب كى تودعه بنظراتها وتقرأ على حساده ومنافسيه آية الكرسى وبعض آيات تجلب الرزق والبركة .. بحدسها شعرت بحركة أشباح مكتومة الصوت تتخفى فى تعريشة السور ذى الأسلاك الشائكة من داخل المزرعة .. ببصرها الحاد حددت الركن الذى ازداد ظله قتامة بما أضيف إليه من ظل الشبح الذى وضح لها أنه متكور على نفسه وما سورة مدفع رشاش تطرح ظلها على الأرض كأنها طرطور فوق رأس الشبح المتكور ؛ جاءها الإلهام بأنها لو لفت إلى الشرفة المتصلة بالمطبخ يصير بينها والشبح المتكور نطة واحدة؛ لحظتئذ – لأجل النصيب – تعطل زوجها عند نزوله من شرفة الباب فانحنى يربط الحذاء ، عندما صارت هى فى شرفة المطبخ كان هو قد اقترب من باب المزرعة ، رأت ظله زاحفاً على أرض الممر قادماً من الداخل، استدار ليفتح باب السور ، دوت طلقات الرصاص مخترقة ظهره وجنبه وكتفه .. لم تدر بنفسها إلا وهى طائرة فى الهواء كالحدأة ، لتهبط فوق جسد القاتل ، هبطت به إلى الأرض راكبة فوق ظهره تحيط رقبته بيديها ، الرصاصة الأخيرة جرفت الأرض من تحت أنفه وكادت تصيب الصبى الذى جاء يجرى.. راحت هى تشيل رأس القاتل وتهبده فى الأرض بكل قوتها وغلها حتى أغمى عليه ونزف دماً غزيراً وهى لاتنى تصوت والصبى يصرخ حتى التم الناس وحضر العمدة وأمسكوا بالفاعل وبمدفعه ؛ إلى أن جاءت النيابة فى الضحى والقتيل مرمي على الأرض فى مطرحه مغطى بملاءة ، عاينت وأعطى الطبيب تصريحاً بدفن الجثة ثم .. حملتهم عربة الشرطة البوكس فورد إلى المركز .

(٢٢) الدخول فى سكك وعرة

في مركز الشرطة وفى مقر النيابة لاحظ أبى أشياء ، ولاحظ عمى أبو السعود أشياء . وكلها أشياء غريبة تثير البلبلة . فقد لاحظ أبى أن قاتل زقله أبو زربة يبدو شخصية محترمة ولولا أن توحيدة أمسكته متلبساً وبيده المدفع الرشاش ما صدق أحد أن هذا الرجل الوديع يمكن أن يكون قاتلاً ، لكن الملاحظة التي تكاد تفلق رأس أبى نصفين كما يقول هى ماحدث لحظة وقوفهم على باب وكيل النيابة فى انتظار الأستاذ حامد عبدالعزيز المحامى الذي شدوه على عجل ليحضر التحقيق مع خالتى توحيدة . يقول أبى إن الباب انفتح وخرج منه المتهم مقبوضاً عليه لإعادته إلي الحجز ، فإذا بغازى داوود وصديقه مختار الشربتلى يشهقان فى فزع إذ من الواضح الجلي أنهما يعرفانه حق المعرفة بل المؤكد أن ثلاثتهم على صداقة متينة قوية، الدليل علي ذلك ، مادار بين أعينهم من حوار صامت رصده أبى باهتمام وتركيز ، ثم إن المتهم وهو مساق الى الحجز لوى رقبته فى اتجاه غازى داوود وفتح فمه ليقول شيئاً وفي عينيه ضراعة ، إلا أن غازى داوود غمز له غمزة تحذير مفضوحة إذ ضغط بأسنانه على شفته السفلى بحركة ذات معنى صار واضحاً بوضعه إصبعه السبابة فوق شفتيه آمراً إياه بألا يفتح فمه بأية كلمة، ثم إن غازى داوود تبادل نظرات جانبية مع صديقه مختار الشربتلى ، الذى اعتراه ارتباك مفاجىء ، فمشى وراء المتهم ويصنعة لطافة

أخذ يتكلم همساً مع الشرطي ثم ارتد عائداً بنظرة موجهة إلى غازى دواد تعني بوضوح أن الرسالة وصلت ..

حين استمع عمى أبو السعود إلي ملاحظة أبى بكل هدوء وتدقيق وإمعان ، تفكر لبرهة ثم قال إنها بالفعل ملاحظة جديرة بأن توضع في الاعتبار ومن واجبهم ان يدرسوها على روافة لعلهم يعرفوا ما نوع هذه العلاقة التى تربط بين غازى داوود وقاتل زوج بنت خالتهم زقلة أبو زربة .. إلا أنه - عمى أبو السعود قد لاحظ ما هو أهم من ذلك فى نظره ، فلقد أطلعه الأستاذ حامد عبد العزيز المحامي على أقوال المتهم الذى لم يجد أمامه مفراً من الاعتراف بالجريمة ، فلقد بررقتله لزقله أبو زربة بأنه - القاتل - قد ترك لدى زقله كنزاً على سبيل الأمانة ليحفظه فى مكان مأمون إلى أن تجيء الفرصة الملائمة للتصرف فيه بالبيع لمن يفهم قيمته ، إلا أن زقلة أبو زربة الذى أوهمه بأنه تاب إلى الله عن أمور الشقاوة وقطع الطريق وسرقة المواشى منذ أن تزوج بامرأة صالحة ، اتضح انه لا يزال ضلالياً خرب الذمة لأن ذيل الكلب ما ينعدل لو علقوا فيه قالب طوب، لقد طرمخ زقلة ابو زربة على الكنز سنوات عدة، وحينما ألح عليه فى طلبه زعم أنه كان قد دفنه فى ركن خفى فى مزرعته اكتشفه اللصوص فتسللوا اليه فى غيبته وسرقوه ، القاتل لم يأكل من هذا الكلام، فاللص لا يسرق من اللص مطلقاً ، لجأ إلى تهديده بإبلاغ الشرطة، لكن لأن زقله أبو زربة يعلم أن ابلاغ الشرطة مستحيل تماماً فقد قابل التهديد باستخفاف ، فلم يقو القاتل علي إطفاء النار المشتعلة فى قلبه جراء الخيانة والبلطجة إلا بقتله وإقتحام بيته للتفتيش عن كنزه، فلم يدر إلا وتوحيدة تسقط من السماء فوق رأسه وتمسكه متلبساً فغاب عن الوعى لم يفق إلى نفسه ويعلم بأنه قتل زقله أبوزربة إلا والنيابة تواجهه بالاتهام.. ولما سأله وكيل النيابة عن طبيعة هذا الكنز تردد وتلجلج طويلاً، لكنه تحت الضغط الثقيل قال إن الكنز عبارة عن مائتى فص من الأحجار الكريمة النادرة المثال وعدة شرائح من الذهب

البندقى الأحمر تزن حوالى نصف كيلو جرام.. سأله وكيل النيابة : ومن أين لك هذا ؟ قال إن صديقاً له عثر عليه فى متروكات جده الذى كان فى الأصل تاجراً كبيراً متخصصاً فى مثل هذه الجواهر ، ولأن صديقه غشيم وخواف فقد لجأ إليه يستشيره فى كيفية التربح من هذا الكنز وما إذا كان يعرف أحداً من كبار تجار الجواهر ؟ فقال له : أشوف ، فجاءه صديقه ذاك ذات ليلة وهو بين الحياة والموت ، كان مضروباً برصاصة وقال إن لصاً كان يطارده ليسرق الكنز منه لكنه تمكن من الزوغان وجاءه ، سلمه الكنز ليبيعه بمعرفته على راحته وإلا فإن اللصوص لن يكفوا عن مهاجمته فى عقر داره طالما الكنز عنده . قال القاتل إنه ساعد صديقه فى الذهاب إلي مستشفى المركز حيث تركه فيها للعلاج وعاد من فوره إلى صديقه الأقدم زقلة أبو زربة وفاتحه فى أمر هذا الكنز ، فأبدى زقلة استعداده لتصريفه ولكن بالحكمة والصبر والنفس الطويل، وكان مقنعاً فى قوله ذاك فسلمه الكنز علي بركة الله وقراءة الفاتحة لتوثيق عقد الاتفاق على الذمة والأمانة لكن الكلب كلب وهذا ماكان يجب أن يتأكد منه القاتل وتلك هى غلطته لكن بعد إيه ؟! ..

رفت على شفتى عمى أبو السعود بسمة موتورة شفطت بقايا الدم من خديه المتكورين. اشعل السيجارة التى انطفأت ثم فركها فى الأرض قرفا من طعمها ثم أشعل السيجارة التى انطفأت ثم فركها فى الأرض قرفاً من طعمها ثم أشعل غيرها طازجة ، ثم اعتدل بحركة مسرحية ، أعلن فى سخرية ان القضية تُبدو هزلية كحكايات ألف ليلة وليلة .. تنسلخ من بعضها .. فانبرى عمى جبريل مازحاً :

– «ولماذا لا تكون ألف ليلة وليلة بكل حكاياتها هى التي تشبه حياتنا ؟ .. اسمح لى يا أخى فأنا شخصياً أومن بأن حكايات ألف ليلة وليلة تقليد لما يدور فى حياتنا من حولنا وبعيداً عنا وما هو معبأ فى أمخاخ الفقراء أمثالنا من أحلام خنفشارية !» .

بعد شرود عميق استمر لبرهة طويلة .. نطق أبى عبد العال :

- «أبو السعود ياخوى .. إ .. إ .. » .

وارتعش صوته رعباً ورهباً كأنه يوشك أن يغلط فى حق الذات الإلهية والعياذ بالله ، صارت الكلمات على شفتيه أشبه بأقدام وجلة تلمس الارض وترتد فى الحال خوفاً من الخوض فى أرض رخوة موحلة، أخيراً أمسك جيداً بمقود العبارات :

- «هذا الرجل .. معلهش بقى ! عدم المؤاخذة يعنى .. سامحنى يارب !.. سامحونى ياجماعة .. الرجل غازى داوود هذا .. نحن لم نكرهه من قليل .. نحن ياما تبرأنا منه : .. إنه مثلما قال أبوكم يرحمه الله : وصمة عار لاذمة لا دين ! لهذا قاطعناه كما تعلمون منذ وقت طويل مضى ! بترناه كما أوصى الشيخ المرحوم لننجو من طرطشاته ومصائبه ! واليوم .. صدقونى ولا تلومونى .. أصبحت أتمنى أن يقصف الله عمره ! دمى يغلى منه الآن والسبب فى نفسى لايزال غامضاً لكنه سوف يتضح عن قريب بإذن الله !!» ..

أطرقوا جميعهم إلي الارض إلا عمى أبو السعود ظل رافعاً رأسه مسلطاً عينيه على حنك أبى على أمل أن يسمع منه جملة جديدة تكون محددة ومفيدة . وإذ يئس من المط فى اللجاجة صاح فى أبى بنفاد صبر ليس ينسى أنه يكلم أخاه الأكبر :

«ماذا تريد قوله بالضبط ؟ قل وخلصنا ! ما معنى أن يوقفك الحياء عن القول وأنت قد خرقته بادىء ذى بدء ؟ !» .

رفع أبى ذراعه المشعرانى الطويل فى الهواء صائحاً بلهجة تقريرية حازمة :

«أقطع ذراعى هذا وأرميه للكلاب إن ما كان غازى داوود هو صاحب الكنز الذي تكلم عنه القاتل فى التحقيق ! » .

صار الصمت رنين جواني مرعب . عيون الجميع كلهم صارت كعيون برج الحمام فى بِنِّيَّهٍ دائرية ، خروم تجمدت فوقها الحمائم مذعورة لبرهة وجيزة ثم ما لبثت حتى تطايرت فى نظرات شغوفة فضولية ذات مناقير وحبوب القمح على شفتى أبى وهى تتدافع نحوهما تنقره ، تود لو تثقب رأسه ليخر منه الكلام ..

عمى أبو السعود كان أول من اهتز لدى سماعه قسم أبى، صار يردد كأنما لنفسه ..

«والـ هـ ي ي ي .. ممكن يا عبد العال ! لماذا لا ؟

كل شيء ممكن في الزمن الأعوج ! .. يظهر والله أعلم أن العوج فى أضلاعنا فى أصلابنا والعرق دساس كما تعلمون ، فمن نلوم يا ربى!» ..

قال أبى لمزيد من التأكيد :

«غداً أذكركم عندما تبين الحقيقة !.. ما شفته بعينى فى النيابة يقول ما قلته الآن بالصوت العالى : غازى داوود هو صاحب الكنز الذى فضحه القاتل !» ..

بعد طول صمت وتأفف من انحراف الحديث إلى أرض الأشواك والذنوب قال أخيراً عمى زكريا :

– كفى يا عبدالعال كفى .. ياأخى ! .. سممتم خواطر الولاد بما فيه الكفاية ! .. » ..

وهو يغمز لنا .. نحن المقصودين بالولاد .. علامة على أنه يمازحنا هتف عمى موسى :

«والأولاد كيف يقعدون مع الرجالة أصلاً ؟!.

فيلؤمروا بالقيام إلى النوم حتي نستطيع أن نتفاهم على راحتنا!»..

بجدية من لم يلحظ الغمزة قال عمى جبريل :

« لا يوجد أولاد هنا ياموسى ..القاعدون معنا الآن كلهم رجال محترمون !» ..

قال أبى :

«طبعاً رجال ونصف ومصيرهم يعرفوا » ..

بنظرة استهجان غاضبة فزعة رفع عمى زكريا ذراعه فارداً كفه فى وجـه أبى كـأنه يقـول : عندك إلى هنا والزم حـدودك . الواضح أن أبى استوعب خطورة التحذير فاكتفى بالتشويح المهذب معلقاً :

« علي كل حال للزمن قانون وللأيام أحكام ! » ..

علق عمى موسى :

« حيث كده .. يبقى رجال الغد ينورون .. القعدة .. ونتكلم براحتنا!« ..

هتف عمى جبريل :

«ويشاركوننا فى الكلام ! من المصلحة أن يكونوا ملمين بكل شيء!» ..

رمقه عمي زكريا بنظرة قامعة :

«لاتكن كالقطار السريع يا جبريل ! هناك شيء اسمه محطات! . افهم يا جبريل !» ..

كان عمى أبو السعود يبحث عن علبة السجائر حواليه فى توتر كأن الأرض انشقت وابتلعتها ، جعل يردد :

«الله يجازيك يا عبد العال يا أخى ! بعترت دماغى ! مخي يودى ويجيب .. دخل فى سكك وعرة .. على كل حال ليس وقته !.. أنا مع عمكم زكريا في تأجيل الكلام الآن» ..

وعدل المسند وراء ظهره فسقطت علبة السجائر أمامه، بفرحة كبيرة أشعل سيجارة ثم شوح في وجوهنا :

«من وراءه حاجة يقوم لها ! » .

انفضت جلسة المندرة ، خرج الجميع إلى الخلاء، خرجت أنا إلى مصطبة عمى جبريل وفي نيتى أن أستدرجه قدر الإمكان لعلنى أفهم منه لغز غازى داوود هذا ، ونوع العلاقة التى تربطنا ، أو لا تربطنا به..

(٢٣) حضور الزمن المغدور

جاءت خالتي توحيدة لزيارة أمي . تحلقتها نسوان الدار كضيفة ازدادت معزة بعد أن شرفت بلدتنا بما فعلت . لم تكن القعدة نسائية لتعتزل فى دروة ، إنما كانت قعدة مفتوحة حول مصطبة الجنينة إنضم اليها الصبيان والشبان الذين تصادف وجودهم في الدار لحظتذاك. وباعتبارى صديقها القديم وابن اختها الكبيرة والمدلل عندها فقد اصطفتنى لأجلس لصقها علي المصطبة وتغمرنى بعطفها ودعواتها بالنجاح فى كل الشهادات العالية ؛ ثم قالت إنها - عدم المؤاخذة يا أختي - جاءتنا اليوم خصيصاً لتوجيه الشكر والدعوات بطول العمر ودوام الصحة على ابن خالتها أبو السعود أفندى عقل على سن ورمح لأنه قال لها إنه سيكتب التماساً لوزير البوليس يطلب فيه مكافأة لها جزاء شجاعتها فى القبض على قاتل زوجها وتسليمه للحكام يداً بيد، وبالفعل كتب الالتماس مساء أمس وأرسله بالبريد المسجل المستعجل باسم الوزير ودفع من جيبه أجرة البريد وقال لها ياتوحيدة يابنت خالتي إذا نفع هذا الالتماس وجاء بنتيجة فإنه سيقيم لها حفل تكريم في المدرسة الابتدائية استناداً على مكافأة الوزير لكى تكون قدوة للبنات ومثلاً على الشجاعة ..

انسحبت من لسانى وسألتها :

«هل كان يوجد كنز ياخالتى ! وزوجك المرحوم دفنه فى المزرعة!».

زفرت ، شوحت بيديها في ولولة واستهزاء ووجع :

«كنز ! ما كنز إلا بنى آدم : كنز ماذا وزفت ماذا ؟ .. المجنون ابن المجنونة مكري على زوجى من ناس كانوا طمعانين في المزرعة ولم يقدروا على

طرده منها لأنه أخذها بالشفعة بحكم المحكمة !.. يقول كنز !.. نعم الكنز هو المزرعة نفسها ! صحابها منكادين منه لأنه حرمهم من فرصة بيعها بالشيء الفلاني . أنا كنت متخوفة وقلبي يحدثني بأنهم لن يتركوه في حاله وكنت أقف في البلكونة أحرسه بعيني وهو خارج صباح كل يوم !.. يقول كنز ؟ يجيء الآن ويتفرج على خالي وحال عياله .. عائلته حطت يدها على كل شيء في المزرعة واتضح أنه مديون لطوب الأرض ويعلم الله إن كنا سنلاقي اللقمة غداً أو سنعيش على باب الله !» .

بدا كلامها مقنعاً لي ولكل من استمع ، في المساء أعدت على عمي أبوالسعود ماسمعته من خالتي توحيدة ، فقذفني في عيني بنظرة تأنيب أرجحتني على ألسنة اللهب وأشعرتني بالاحتقار وبأنني صغير تافه .

يبدو أنه أشفق على منظري مما اعتراني من رعب ورعدة ، بأصبعيه أمسك شحمة أذني وغرز ظفر إبهامه فيها ، كاد يقطعها محذراً إياي بسبابة يمناه إن صرخت سيقطعها بالفعل ، سألني :

– «لماذا سألتها هذا السؤال يا غبي ؟ من الذي أذن لك أن تفشي سراً من أسرار العائلة ؟!» .

ثم ضغط غير عابيء بصرخاتي المكتومة ودموعي المنهمرة :

– «هذه أول وآخر مرة ! إياك أن تفشي كلمة واحدة مما تسمعه في قعدة الرجال ! سواء من عائلتنا أو من أي عائلة ! وإلا فأنت عيل تظل مدى الحياة صغيراً حقيراً لا يأمن جانبك أحد .. مفهوم ياولد ؟» .

ثم صفعني بغيظ حقيقي ، وأطلق سراحي ، وظلت نظراته نحوي غير صافية لعدة أيام .

عقب ذلك بقليل بدأت ألاحظ أن لونه ينخطف باستمرار ، تنفتح سمرته الغامقة تصير فى لون الخشب المثقف .

ثم إنه كان يخلد إلى الصمت فترات طويلة يضطجع خلالها فوق مصطبة الجنينة ممسكاً بطرف خيزرانة ينقر بها فوق أطراف أصابع قدميه فى حركة توقيعية عصبية صبيانية ، فيما هو مسبل الجفنين . كان من الواضح أن همّاً ثقيل الوطأ يدوس فوق صدره ..

فى نفس الوقت كانت خالتى تفيدة هى الأخرى قد شحب لونها وازرقت مآقيها وذبلت جفونها من بكاء طال أمده فى الخفاء .

بدأ قلبى ينقبض ثم ينتفض من شك قاتل بدأ يساورنى فى أن تكون عدوى السل قد ضربت دارنا فى عمى وزوجه ، لكننى سرعان ماعزوت ذلك إلى انفجارة جدتى معزوزة يوم ركبتها العفاريت بسبب بلادة صهرنا فرج تراتيرو ، سيما وأن حالة الانكسار هذه لم تطرأ على خالتى تفيدة إلا بعد عودتها من دكان جدتى الحاجة زهرة فى ذلك اليوم المشئوم .

حدست أن يكون حدث بينها وعمى معارك ليلية طاحنة أدت إلى ما يكاد يكون خصاماً بينهما أدى بدوره إلى هذا الكدر الواضح على كل منهما لدرجة أن أحدهما لم يعد ينظر فى عينى الآخر وهو يكلمه إذا اضطر إلى أن يكلمه !..

إلا أن الشيخة تيسير بنت عمى زكريا كان يبدو عليها أنها مثلى مهمومة بحالة عمها وزوجه . كانت تقضى وقتاً طويلاً فى حجرة زوج عمها ، تقوم نيابة عنها بالأعمال التى من المفترض أن تقوم هى بها حسب ترتيب نظام العمل بين نسوان الدار .

كثيراً ما أراها خارجة داخلة بكوبات من الينسون أو عصير الليمون مع حبتي أسبرين ، أو طبق شربة خضار ..

دبرت للانفراد بالشيخة تيسير على مصطبة الجنينة حوالى قرب أذان العصر . فى شعور بالتوتر والخوف سألتها عن حالة خالتى تفيدة وما الذى يجرى لها ؟.. طمأنتنى إلى أن الأمر لايعدو أن يكون شوية زعل ، لكنها حكت لى مشهداً أذهلنى ، بلبل خواطرى وأفكارى ..

ذلك أن خالتى تفيدة حينما وصلت مع نسوان الدار إلى دكان جدتى زهرة فى ذلك اليوم المشئوم ، وأخذت مجلسها بحذاء جدتى زهرة وراحت تواسيها وتبكى لها ، فوجئت بأفندى كفلق الخشب يدخل عليهن ومعه سنيورة بتدرية شقراء بملابس الفرنكة ، تقدم الأفندى من خالتى تفيدة فاتحاً ذراعيه هاتفاً :

– «إزيك يا تفيدة يا أختى !» .

حملقت فى وجهه مأخوذة ، تبنيت أنه أخوها من أمها فريد عمرو المقيم فى الإسكندرية عاملاً فى مصانع الهلباوى للغزل والنسيج ، تلقفته فى حضنها فرحة به كأنه ابنها . ثم إن فريد وضع يده على كتف السنيورة ونظر لأخته فى غبطة :

– «أعرفك بخطيبتى سهير ! جئت بها لكى تتعرف على أمى وتتعرف عليها أمى قبلما نكتب الكتاب !» .

أخذتها فى حضنها ، أجلستها بجوارها تحت إبطها . تقول الشيخة تيسير إن خالتى تفيدة انخطف لونها فى تلك اللحظة فلم يعد إليها .

تقول إن خالتى تفيدة نظرت فى رقبة سهير خطيبة أخيها فريد فأبيض وجهها كورقة الرسم وقد عبث بها طفل غشيم فرسم ما يشبه العينين والحنك والأنف معالم منفصلة مستقلة لا علاقة لها ببعضها .

شـهـقت دون أن تدرى شـهـقـة فـزع ، كـانت نظرتـهـا قـد وقـعت على «بنتـانتيف» ملفوف حول رقبة سهير ومفروش على صدرها يخطف الأبصار يملأ العيـون ، إنه عبارة عن شبكة منسوجة من خيوط سميكة من الذهب الطليانى مرسوم على شكل خريطة الدلتا بفرعيها دمياط ورشيد يلتقيان حول رقبة العروس . تقول الشيخة تيسير إن خالتى تفيدة ركبتها الرعشة ، مدت يدها ، قبضت على البنتـانتيف ثم خففت قبضتها راحت تتحسسه بإعجاب :

- «الله على جماله ! من أين جاءك هذا البنتانتيف ياسهير ؟! إنه سمين ! ومعمول خصوصى يعنى ثمنه الشىء الفلانى !» .

انخضت سهير وارتجت ، لاذت بقارب الصراحة ، تبسمت ، قالت :

- «البركة فى نينتى ربنا يخليها !» .

- «نينتك من ؟!» .

- «أم فريد !.. ست عمره على سن ورمح !» .

- «وهى التى أعطته لك ؟!» .

- «حتى إسألى فريد !.. فريد وأنا كنا زعلانين من الخبر الشؤم وعزمنا على السفر !.. صالحتنى به ! وقالت : عشان تعرفى حتناسبى مين وحماتك تبقى مين !» .

- «من أين أتت به يا ترى ؟!» .

- «من صندوق هدومها !» .

- «كان عندها من الأساس يعنى !» .

- «قالت إنه كان شبكتها وهى عروس !» .

- مبروك ياحبيبتى !» .

ربتت على كتفها فى حنان . عينها ظلت تحوم حول رقبة سهير فى انبهار. سرعان ما ضجرت سهير من القعدة النائحة فوقفت :

- «عن إذنك يا تانت !» .

مشت تتقصع برغمها حيث تعين عليها أن تمرق بين كتل من الأجساد تسد كل المنافذ . زحفت الشيخة تيسير فلاصقت زوج عمها ، همست فى أذنها :

- «بنتانتيف يشبه بنتانتيفك يا امرأة عمى الخالق الناطق !» .

- «يخلق من الشبه أربعين !» .

تقول الشيخة تيسير إن زوج عمها لاذت بالصمت من لحظتها . ثم إنها لاتنى تذرف الدمع ليل نهار ، والرأى عند الشيخة تيسير أن زوج عمها قد صعبت عليها نفسها وأفاقت على أمها التى حرمتها من حنانها وعطفها وأعطته بسخاء لخطيبة ابنها .

(٢٤) الصاعقة

أصفى أصفياء مختار الشربتلى فى بلدتنا كلها - على الرغم من أنه ليس يصفو تماماً لأى أحد - هو المعلم غازى داوود صاحب أفخم دكان فى بلدتنا من حيث طرازه العصرى الذى صممه البناء بحيث يكون سوقاً ذات أبواب متعددة ، كل باب يختص بركن يبيع صنفاً من أصناف العطارة أو المحاصيل الزراعية والخضروات والفواكة .

وفى زمنه الأول فى ثلاثينيات القرن العشرين كان الدكان هكذا بالفعل يشغى بالزبائن والحركة يبيع بالجملة لتجار صغار من بلدان مجاورة .

وكان المعلم غازى داوود ثرياً بمعنى الكلمة بصورة كانت مثيرة للريبة بين الناس على الرغم من أنهم يفهمون شخصيته ويعرفون أنه مغامر جسور ميت القلب يضرب ضربته على طريقة : يا أصابت يا خابت ، إلا أنها كانت كثيراً ماتصيب فإذا هو قد انتقل نقلة أكبر فى لمح البصر .

وقد وقر فى أذهان الناس ، من فرط متانة العلاقة بينه ومختار الشربتلى على امتداد مايزيد على ربع قرن من الزمان ، أن مختاراً هو الذى يملك أسرار غازى داوود التى لايعرفها حتى عياله وأقاربه .

ونظراً لأصالة وجدعنة مختار الشربتلى كما يشاع بين الشبان والصبيان فى قعدات الأجران المنتشية بخيال الليل القمرى فوق أكوام

التبن، فإنه كالبحر يتلقى أسراراً من كل حدب وصوب باعتباره من العياق المخالطين لجميع صنوف البشر من المغامرين وأولاد الليل قطاع الطرق ولصوص المواشي ومهربي المخدرات والقتلة المأجورين ، فتبتلع أمواجه هذه الأسرار المروعة تبددها في نثار الماء كأن لم تكن ، وأبرع ما في شخصيته أنه لايترك أية حسابات معلقة مع أي شقي من الأشقياء يشترك معه في صفقة أو عملية ، بارع هو في التخليص أولاً بأول ، بحيث إذا التقى أحدهما الآخر بعد ذلك فكأن أحدهما لايعرف الآخر من قريب أو بعيد ، إلا غازي داوود ، كلاهما بالنسبة للأخر ستر وغطاء .

في طفولتي لم أكن أرى أحدهما مسافراً وحده أو عائداً وحده ، أو حتى ساهراً وحده ..

منذ عدة سنوات تدحدرت الأحوال بغازي داوود ، فرغ دكانه تماماً إلا من فوارغ الأجولة والأقفاص والصناديق والرفوف ، وفرشة صغيرة تحت تندة بكية الدكان تعرض القليل من أصناف العلافة : فول وعدس وذرة ونشا وفاصوليا ولوبيا وترمس نيء وحلبه حصى وينسون وقرفة وشطة وكمون وما إلى ذلك من تحبيشات يجلس أمامها ابنه الكبير بدير يبيعها لحسابه الشخصي للإنفاق على عياله ، وابنه بدير هذا هو الذكر الوحيد على ست بنات من ثلاث زيجات ، وهو في الثلاثينيات من عمره إلا أنه من فرط جديته ووقاره وحزنه الدفين على الثروة التي بددها أبوه فيما لايعرف من سكك المغامرات أصبح في نظر الأغراب يكاد يكون أكبر سناً من أبيه ..

قادتني محاولات بحثي الدءوب لفك لغز غازي داوود وعلاقته بعائلتنا فنجحت في التودد إلى مختار الشربتلي باعتباره بوابة الدخول إلى غازي داوود ، شجعني على ذلك أن مختار الشربتلي من جُلاّس مصطبة عمي جبريل الملاصقة لباب دكان الحبوب ، بينهما علاقة ود متينة لدرجة أن

الواحد منهما إذا رزق من باب الله بسنة أفيون أو قطعة حشيش ادخرها فى محفظته ليقتسمها مع الآخر فى قعدة الأصائل الساحرة على هذه المصطبة، حيث قصعة نار القوالح سخنة على الدوام وعدة الشاى حولها والسخان فوق النار لايفرغ من الشاى المطبوخ عى نار هادئة تعطى الشاى نكهة مثيرة للنشوة ..

كنت أظن أن مختار الشربتلى صندوق مغلق لايستطيع شاب صغير مثلى أن يفتحه ويستخرج منه مايريده من أسرار ، فإذا بى أفاجأ بأنه شخص فى غاية السلاسة بل خيل إلى أنه مفتوح الأبواب والشبابيك ولسانه يجرى بالكلام بغير تحفظ .

كان عمى جبريل داخل الدكان يستمتع بمناكفة إحدى زبوناته له ، فى حين كان مختار متربعاً على المصطبة يحتضن الهاون النحاس الثقيل بين فخذيه ، يده ممسكة بيد الهاون وراحت تدق وتطحن بلحة جوزة الطيب المخلوطة بملعقتين من السكر ..

أردت أن أجىء بسيرة غازى داوود بأى شكل . ألهمنى الله سؤالاً وجيهاً يستحق أن أسأله لمختار : ما سر هذا الثقب فى رقبة غازى داوود ؟ ولكنى اندفعت :

– «خال مختار !.. غازى داوود..» .

قاطعنى بنظرة استنكار لطيفة باسمة رشقنى بها فى عينى :

– «غازى داوود حاف كده ؟!» .

– «كل الناس تقول غازى داوود ! من غير لقب !» .

– «لكن أنت بالذات وإخوتك وأعمامك لا !» .

– «لا أفهم !» .

– «ما داهية إلا أن تكون تخين المخ !!» .

– «ليه بس يا خال مختار ؟!» .

ترك يد الهاون معلقة فى يده وقال بلهجة من يضع خطاً أسود تحت كلماته :

– «لأن غازى داوود هذا يا أستاذ يابتاع المدارس هو خالكم !.. أبوك وأعمامك وعماتك يقولون له ياخال !» .

نشف ريقى ، لكأنه ضربنى بيد الهاون فوق رأسى بعنف ، الضربة فتتت دماغى فصرت كأننى أحاول تجميع أشلائه :

– «يعنى غازى داودد شقيق جدتى معزوزة ؟!» .

– «وجدتك زهرة وأم حمادة الخريجى ! إيه ؟ ألست تعرف ؟ أم أنك تستهبل ؟!» .

لكأننى صرت أشلاءً من جثة تعفنت تحت الرديم وحفر الكلاب حتى أخرجوها ومزقوها .

صرت فزعاً ، الأرض تدور بى ، الدمع يتجمع فى حلقى يتجمد ، رغبة فى البكاء بصوت عال أحاول مقاومتها لأبدو أمام مختار كأننى كنت أستهبل بالفعل ، إلا أننى كنت فى حالة غثيان واشمئزاز ، داهمنى السخط على العائلة والاحتقار الشديد لهولاء القوم برمتهم ، حاولت أن أستوعب الموقف لكننى عجزت تماماً عن فهم أى شىء ، وكان مختار يرمقنى من تحت لتحت بنظرة استغراب واستهجان تكاد تتهمنى بأننى أحاول العبث به بمثل هذا الاستعباط ، مع ذلك لا أدرى كيف اعتذرت له عن استهبالى ، أو ما بدا بأنه استهبال ، ثم رجوته أن يحدثنى عن رقبة المعلم غازى داوود الخال الأوحد للعقالوة والعماروة والخريجية ، ذلك الذى لم أسترح لمنظره حتى بعد أن عرفت صلته بنا .

هكذا حاولت الإيحاء المختار بأنني من شدة قرفي منه أنكرت معرفتي بصلة القربى . فإذا بمختار يكحت مسحوق البلحة في قعر الهاون بظفره فيما يلسعني بنظرة فاتحة فكيها عن أسنان وأنياب كحتك الكلب الشرس حين يزأر على نية غادرة :

– «يلا يا إكسلانس !.. أنت لم تكن تعرف !! تغني على من ؟ على بابا ؟.. عائلتك تقاطع الرجل طول عمرها وتتنكر له !.. خليك شجاعاً واعترف !

أهلك عندهم حق ! هو فعلاً ابن وسخة من يعرفه لا يخلعه من قدميه إنما هو في النهاية خالكم الوحيد وإن تستطيعوا خلعه من دمكم !» .

ثم ضحك ضحكة قصيرة بدت كأنه تعثر في مطب :

– «ثم قُلْ لي : لماذا أنت قرفان من شكله ؟!» .

قلت له إنه من النماذج القليلة التي لا يجد الأطفال وحتى الصبيان والشبان أية مشاعر تربطهم به .

إن شكله منفر حقاً ، نحيف كالعصا الخيزران ، طويل بشكل مزعج ، يلف حول رقبته منديلاً محلاوياً لا يخلعه مطلقاً ولابد أن لديه أكثر من منديل يغيره إذ إن المنديل جزء أساسي في شكله منذ وعيت على شكله قبل أكثر من عشر سنوات مضت ، وجهه مثل كوز من الصفيح قبضت عليه يد عفية عجنته في بعضه كيفما اتفق فصارت كتلة من النتوءات المتكورة والمدببة والمنفرجة والملتوية والمشروخة ، يتكلم بلا صوت ، بلا حنجرة، حنكه يسفسف الكلمات كأنها تراب مبلل بتثارات اللعاب ، كل كلمة يشد لها نفساً جديداً من الهواء يجاهد ليظل ممسكاً به حتى نهاية الكلمة ، الذين يعاشرونه فحسب هم الذين يفهمون كلامه ، ومع ذلك يلفت نظري أنه مبتسم على الدوام حتى وهو يعاني في التحدث ، أو هكذا خيل إليّ ..

ضحك مختار الشريتلي بعمق حتى دمعت عيناه وصار يتلفت حواليه بحثاً عن عمي جبريل فيجد أنه لايزال يستمتع بمناهدة المرأة فيه حتى بدا كأنه نسي وجودنا على المصطبة . أخيراً دلق مختار مسحوق البلحة في طبق صغير ثم ركنه تحت كتاب السيرة الهلالية تحت المسند إلى أن يجيء عمي جبريل .

كان مزاجة رائقاً وعلى سنجة عشرة كعادته كلما التقى عمي جبريل ، انبرى يحكي عن صديقه غازي داوود كما يحكي عن طفل شقي غريب الأطوار .

قال إنه طول عمره دماغه طاقق ، لا أحد يستطيع إيقافه عما يريد فعله ، يخرج من مغامرة إلى مقامرة ، ومن حفرة إلى دحديرة ، من شهبندر التجار إلى بلبوص لا يجد ورقة توت تستره ، كان ذات يوم بعيد قد سافر في مشوار سرى لم يعلم به أحد ، اختفى حوالي عشرة أيام وعياله يبحثون عنه سلقط في ملقط ، اشتغل الصوات في داره ليلاً ونهاراً ، فين وفين جاءهم الخبر من مستشفى المركز بدسوق أنه يرقد فيها بين الحياة والموت .. سافروا إليه مذعورين ، تبين لهم من محاضر الشرطة وسجلات المستشفى أن دورية ليلية عثرت عليه عند ترعة البدالة مضروباً برصاصة في رقبته ، نقلوه إلى المستشفى والروح لاتزال فيه ، بعد أن أسعفوه اتضح له أن الرصاصة قد مرت من تحت ذقنه فأخذت في طريقها تفاحة آدم التي هي أشبه ببلكونة الحنجرة ، ركبوا له حنجرة صناعية مؤقتة أشبه بماسورة من البلاستيك بمقاسات معينة يرن فيها الصوت فتتوضح حروف الكلام أما علاجه التام فبعملية جراحية ، لابد أن يسافر إلى الخارج لإجرائها وسوف تتكلف مبالغ باهظة ، وعلى كل حال فإنهم يستطيعون مساعدته على العيش بهذه الحنجرة البلاستيكية المؤقتة بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف طبي مباشر لوقت طويل .

فى محاضر الشرطة واستجوابات المستشفى قال إنه كان يحمل كيسة فيها فلوس كبيرة فى طريقه إلى لوكاندة يبيت فيها لكى يتسوق من صباح الغد بدرى بدرى ولكن ولدين بلطجيين طارداه بدراجة بخارية وأطلقا عليه الرصاص فارتمى على الأرض فهجما عليه ، نزعا الكيسة من جيبه وفرا هاربين .

ولم تكن الحكاية مقنعة لأى أحد ولكنه أصر عليها ، المهم أنه رجع إلى البلد مهزوماً ومكسوراً ، استعوض الله فيما ضاع منه ، ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم وهو يعيش بدون حنجوة ولا حتى البلاستيكية التى لفظها حلقه ، بقى مكان تفاحة آدم ثقب خبيث يتسرب منه الهواء بوسخه إلى حلقه ، فيصدر صوتاً كرفيف الأجنحة المتكسرة أو زفيف الريح على ورقة معلقة ، ينز مادة لزجة من البلغم تتراكم فوق الثقب ، ولولا أنه يعقد المنديل بإحكام حول رقبته ليمنع الهواء ما أمكنه إصدار صوت ..

حتى هذه الحكاية اتضح لى بعد حين أن الجميع يعرفها ، غير أنهم – كما لو كانوا متفقين على ذلك – دفنوها فى بئر النسيان هى الأخرى . ولكن الصدمة كانت أقوى من احتمالى فى تلك السن الحرجة ، كان ثم سؤال خبيث يلح على خواطرى يكاد يوقعنى فى عقده نفسية : كيف يحق لى – وبأى عين أو روح معنوية – أن أفخر بانتسابى لعائلة تملك هذه القدرة على إنكار الخال إلى حد المحو من ذاكرة العيال ؟!

فلئن كانت بهذه القسوة فهل يوثق فى عواطفها الإنسانية ؟.. العجز عن الجواب الشافى يقودنى إلى الإغراق فى البكاء حتى تشرخت نفسيتى، لولا أن التقانى – محض صدفة – الشيخ محمد زيدان عباس ، أعظم العميان فى بلدتنا ، مثقف كبير جداً فى كل شىء ولا أحد فى البلدة يقدر على مطاولته أو طول نفسه فى النقاش السبابي أو الديني أو

الفلسفى أو حتى فى أغنيات أم كلثوم وعبدالوهاب ، كنت أحبه جداً وألتحق به كلما التقيته ماشياً فى الشارع وحده برفقة عصاه المبصرة ، كان خارجاً من المسجد فى طريقه إلى مجلس صلح بين فرعين من عائلة واحدة تقوم بينهما جدران ومتاريس من القطيعة والعداء المستحكم الذى يتفجر من حين لآخر عن كوارث ، لدرجة أن أحد فرعى العائلة شطب من شهادات ميلاد عياله لقب العائلة نكاية فى الفرع الأخر وبات إذا ماذكر أمامه لقب العائلة صاح صائحهم : نحن لسنا منهم .

كنت واثقاً أن الشيخ محمد زيدان عباس قادر على حقن الدماء على مستوى الدول وليس العائلات، مشيت معه نتكلم فى أمر هذه العائلة ، فقال على سبيل التعليق العابر :

- «إياك أن تتصور أنهم وحوش مفترسون ينهشون لحم بعضهم بعضاً !.. لا يا ولد .. إنما هم ناس طيبون جداً مثلنا وربما أطيب منا !

لكنها ضريبة الحب والإخلاص !.. إن الخصام بين الفرعين خصام حاد وعنيف على قدر ما كان الحب والإخلاص عنيفين !

إن الواحد منا قد لايزعل إذا شتمه أو أهانه شخص ليس يعرف من هو! ومن لايعرفك يجهلك !.. ولكن من تحبه وتخلص له إذا قال مجرد كلمة تؤلمك وهو لا يقصدها تزعل منه زعلاً شديداً لأنه يعرفك وليس يجهلك !.. إن القطيعة أحيانا تكون مشروعة كنوع من التقية !.. فحتى لو كان الشخص من لحمك ودمك بل ومن صلبك إذا كان سيصيبك منه عار أو ضرر أو ذنب فالقطيعة تقيك منه !» .

نزلت عبارته على صدرى كأنى شربت إبريقاً من الخروب المثلج فى لحظة كنت فيها صديان شرقان .

(٢٥) قانون المصادفة

فيما كنت جالساً عصر ذلك اليوم تحت رف الراديو على رصيف دكان رضوان البقال فى مواجهة مصطبة بسطويسى لكى أكون تحت نظر عمى أبوالسعود طالما هو جالس وفى نفس الوقت أكون قريباً من الراديو لأسرح بخيالى مع مسلسل (سمارة) تلك الزهرة البرية اليانعة التى نشأت وترعرعت فى جو أسود رهيب كما يصفها المذيع ديمترى لوقا بصوته الساحر فى مقدمة التمثيلية كل يوم .. إذ بى أفاجأ بالواد حفناوى التملى ، الذى يوصل جودت أفندى إلى محطة السكة الحديد ويستقبله بالركوبة يومياً يتقدم نحو مصطبة بسطويسى قاصداً عمى أبوالسعود مباشرة، ثم يتردد فى وجل، فيشجعه عمى أبوالسعود بابتسامته المشهورة باتساعها وغمزة طابع الحسن فى ذقنه عندها؛ فمال على أذنه ليهمس؛ لكن يبدو أن الاضطراب قد حبس صوته فحاول انتزاعه بالقوة فتدفق عالياً كالماء المحبوس فى الصنبور حين ينزاح العطل من سكته فيندفع؛ وهكذا سمعنا طرطشة الكلام بكل وضوح، علمنا «أنهم» عثروا على صندوق خالتى تفيدة .

انتفض عمى أبوالسعود واقفاً شاحب اللون يمعن النظر فى خلقة الواد حفناوى بشك واستهجان :

– «أنت جننت يا ولد ؟! صندوق ماذا ، هذا الذى يعثرون عليه بعد حوالى عشر سنوات من ضياعه ؟!»

لكن الواد حفناوى حلف بالطلاق ثلاثاً أنه يتكلم الجد، وأن الخبر آت من بزّ أمه ، أتى به جودت أفندى بجلالة قدره يعنى لا مجال للشك فيه ؛ ثم حكى الحكاية بالتفصيل فلم نجد منفذاً للشك فى صحة ما سمعه بأذنيه اليوم منذ دقائق معدودة..

جودت أفندى هو آخر من تبقى من رجال سمو الأمير فى بلدتنا . هو من أصل تركى وإن كان قد ولد وتربى فى مصر ويتكلم العربية المكسرة متأثراً بلهجة بلدتنا التى عاش فيها معظم عمره ولكن فى غطرسة واستكبار وعنجهية . إنه آخر من التحق بخدمة الأمير وآخر من تبقى من الخدم على قيد الحياة . كان كرارجياً فى المعية ، والكرارجى هو المسئول عن إطعام العائلة، يجمع المواد الغذائية بجميع أنواعها ويدخرها فى حجرة الكرار وهى مخزن كبير ملحق بالمطبخ مفاتيحه فى يد الكرارجى الأول . هو الآن فوق الثمانين من عمره ولا يزال قوياً صاحى الدماغ، قد شهد رحيل الأمير فالأميرة فالأسرة العلوية الحاكمة برمتها بالموت أو بالهجرة . بعد قيام ثورة يوليو ألحقوه بوظيفة ذات طبيعة مخزنية فى وزارة التموين، ثم أحيل على المعاش ، فأسفر عما كان قد سرقه من خيرات المعية الأميرية أيام كان مسئولاً عن إطعامها طوال فترات إقامتها فى الضيعة وهى قد تصل أحياناً إلى ما يقرب مجموعه من ستة أشهر ولكن على فترات متقطعة حسب نضج محاصيل الحدائق والمزارع .. شارك أحد أثرياء بندر دسوق فى مصنع للحلوى بجميع أنواعها المصرية والشامية والتركية، يتولى الإدارة بنفسه، ويبيت كل يوم فى البلدة فى دار اشتراها ورممها فصارت فيلا قائمة بذاتها قرب شاطئ السلمونية محاطة بأشجار الكافور والجزورين، وقد استطاب العيش فيها مع أولاده الثلاثة الذين تعلموا فى بندر دسوق ، فكان طوال

العام الدراسي يرافقهم وأمهم في بيت مستأجر من شريكه إلى أن تجئ الإجازة الصيفية فيعودوا جميعاً إلى داره في البلد، ثم استكمل الأولاد تعليمهم في الإسكندرية، وفيها أيضاً توظفوا في وظائف مرموقة لا أحد من بلدتنا يعرف عنها أو عنهم أي شئ ولا هم يحبون أن يعرفوا لإحساسهم اليقيني بأن جودت أفندي يستكبر على الفلاحين ولا يعطيهم أي فرصة للتقرب منه إذ هُم في نظره أوباش رعاع . يسافر إلى دسوق صباح كل يوم دون كلل ، ويسمي السفر فركة كعب .. إيه يعني ثلاث محطات قطار لا أزيد ولا أقل ؟ .. ويعود في قطار الخامسة مساء ..

رفيقه الدائم في طريق الذهاب والعودة هو محمد أفندي عمرو، الموظف بمصلحة المساحة في دسوق . مع ذلك فإن العلاقة بينهما غاية في الغرابة والطرافة معاً ويعرفها جميع الناس ويتندرون بها . محمد أفندي عمرو، إبن عم عبدالرحمن عمرو والشيخ عرفات عمرو وتوحيدة عمرو وسنة عمرو– أمي – وأمه ست عمره ؛ قصير القامة ، قمحي اللون كأمه ، ورث عن وجهها بعض وسامته وحدة ملامحه المنغلقة على نفسها كانغلاق شفتيه بشكل دائم حتى وهو يشفط نفس الدخان من السيجارة لا يكاد يرفع شفة عن الأخرى مكتفياً بلثم السيجارة فحسب وتلك حركة يقلد بها أولاد الذوات في التدخين برقة وشبع ليكون ثم فرق بينه والمخانجية . إنما شكل وجهه الشبيه بفطيرة الغربال، يوحي بأنه من السواهي الذين تحتهم الدواهي ؛ إنه ماء من تحت تبن، فكل قصير مكير كما يقول المثل الشائع . ومحمد أفندي عمرو يكاد يكون هو المكر بذاته في بلدتنا . ثم إن الغموض يحيط به إحاطة السوار للمعصم، لا أحد يدري كيف يغتني في اضطراد واضح . يشاع أن حجم

الرشوات التى يتقاضاها كبير، وذلك من خلال عمليات نصب أتقنها وعلمها للمهندس الذى يرافقه . إن شغلته الرسمية : مساعد مساح ؛ المساح وهو يتحركان معاً دائماً، بآلة قياس ورصد عبارة عن نظارة معظمة يتم نصبها على ثلاث قوائم كسنبية الجزار، يفردها المساعد ، يرصد بها الحدود - أى حدود - والمهندس ، أى المساح ، يقيس بالقصبة ويدون فى ورق . يقال فى قعدات مص القصب وقعدات التبن فى الأجران آخر الليل، حيث تدخين البانجو السودانى أو الحشيش فى سجاير مبرومة سراً - وكما يبلغنا فى الصباح على ألسنة من قالوا وزعموا أنهم سمعوا - إن المهندس المساح ومساعده ينزلان إلى أى أرض فضاء، فى أية قرية بعيدة عن العمران، ينصبان النصبة، يتلكآن فى العمل حتى يتجمع ناس من بينهم أصحاب الأرض، يحاولون معرفة ما هذا الذى يحدث فى أرضهم ؟ إنهم فى توجس دائم من رجال الحكومة وحركاتهم المريبة دائماً؛ يبتعدون عن شخصية المهندس المتجهم الذى يفتعل الانشغال، يرون أن لابس الجلباب والطربوش أقرب إليهم ويمكن أن يكون بينهم لغة مشتركة مفهومة ؛ فى توجس وحذر يستفهمون من محمد أفندى عن طبيعة ما يحدث ؛ فى توجس وحذر أكثر منهم يهمس فى آذانهم بأن الحكومة ستشق ها هنا مصرفاً، أو طريق سكة حديد، أو أى مشروع حكومى سيترتب عليه نزع ملكية جزء - قد يكون كبيراً - من هذه الأرض ؛ وإذ يرى أن السائل قد انهارت قواه وكركبت بطنه يهمس فى أذنه بأنه لو تفاهم مع الباشمهندس فربما يمكنه زحزحة المشروع عن أرضه وكتابة تقرير فنى يفيد بأن هذه الأرض غير صالحة للمشروع . فى الحال يتم التفاهم على مبلغ فى حدود الممكن بالنسبة لصاحب الأرض حيث إنهما يجمعان تحريات عن المكان وصاحبه ومدى قوته من عدمها ..

إلخ ؛ يستقضيه صاحب الأرض بالدين أو ببيع ذهب أو محصول أو بأي شكل، المهم أنه في بحر يومين ثلاثة يذهبون إلى محمد أفندى فى المكان الذى يحدده لهم، يعطونه المبلغ فى السر والكتمان ؛ يستجيبون لنصحه بإغلاق أفواههم عن الكلام فى هذا الموضوع نهائياً وإلا انقلب الوضع عليهم فتؤخذ منهم الأرض ويدخلون السجن بتهمة الطعن فى ذمة موظف حكومى كبير يعنى يكون موتاً وخراب ديار معا ..

ذلك ما يشاع ولكن أحداً لم ير بعينيه، إنما رأى الجميع هذه السراية المحترمة التى أقامها وسط حديقة منزوية فى الحقول البعيدة تبعد عن دارنا بمشوار يحتاج لركوبة ، وأطقم الجلابيب الصوف والطرابيش والركايب المطهمة، ورغد العيش الذى يرتع فيه عياله الكثار . أصغر أبنائه يوصله إلى المحطة .. وينتظره فى قطار الخامسة جنباً إلى جنب حفناوى التملي المنتظر عودة جودت أفندى فى نفس القطار..

الطريق وحده هو الذى يجمع بينهما فى صداقة مؤقتة ومدهشة؛ يركض بهما الحماران جنباً إلى جنب ، من خلفهما الولدان يلهثان يستحثان الحمارين على سرعة العدو .. فى هذه المسافة فحسب يحلو لجودت أفندى أن يتنازل قليلاً عن شموخ قبعته المعووجة ، وأنفه الطويل الشاهق الارتفاع، وخدوده الحمراء المرغددة، ونظارة الشمس الخضراء القاتمة فوق عينيه الخضراوين أيضاً، يتنازل عن شخطه ونطره المعتاد فى كل من حوله، تختفى من حديثه كلمات الخرسيس والكلبة والحيوانة، ينعدل لسانه التركي يصير لطيفاً وإنسانياً، يخرج صوته عارياً دون ردح أو جعير، يحكى عن ما صادفه اليوم من متاعب ونكت وأخبار، حتى ليستريب كل من حفناوى التملي وابن محمد أفندى فى أن يكون هذا الرجل الوديع

هو نفسه جودت أفندى حامل كرباج السلطة الأميرية يستلب به ما يشاء من دجاج وأرانب وقطعان ضأن من أصحابها بأبخس الأثمان أو بدون ثمن ..

يظل كل منهما يحترم الآخر ويخطب وده حتى مدخل البلدة عند مفترق الطرق، حيث يتعين على جودت أفندى أن ينحرف يميناً على ترعة السلمونية مواصلاً الطريق إلى فيلته الواقفة على ربوة بحذاء كوعة الترعة يتقدمها صفان متقابلان من أشجار الكافور والجزورين . ينحرف جودت أفندى إلى طريقه ذاك دونما استئذان من محمد أفندى؛ يشد اللجام لاوياً عنق الركوبة دونما كلام أو سلام كأن أحداً لم يكن سائراً بجواره طول الطرق؛ ولو تصادف أن تقابلا بعد ذلك فى البلدة فإن جودت أفندى لا يبدو عليه أنه يعرف محمد أفندى بل إنه يروح ينظر إلى طربوشه فى اشمئناط وغيظ . فى كل يوم يتلقى محمد أفندى هذه الصفعة الموجعة عند كوعة الترعة ويستمر فى الطريق العمودى مخترقاً المزارع على المدقات والقنوات . المفروض أن يمشى من وسط البلد إلى سرايته ولا الحوجة لهذه اللفة الطويلة التى تضطر ابنه المهرول على قدميه إلى أن يخوض فى طين أراض مروية حديثاً، إلا أنه منذ ابتنى هذه السراية وبيضها بالبوية ودهن بلكوناتها وشبابيكها بالألوان الزاهية أصبح يتجنب المرور من وسط البلد نهائياً ؛ يقول لمن يسأله عن السبب فى هذه اللفة الطويلة إنه ليس يحب خوتة الدماغ ؛ ذلك لأن مروره فى وسط البلدة راكباً سيفرض عليه الذوق أن ينزل عن الركوبة كلما مرّ على ناس مهمين يجلسون على المصطبة خارج الدار ؛ وهؤلاء قد يسامحونه إكراماً لطربوشه ووظيفته الحكومية ولسوف يحلفون عليه مقدماً بأن لا ينزل إذ إنهم على يقين بأنه لن يعبرهم وينزل سواء حلفوا أو لم

يحلفوا فليحلفوا إذن أكرم لهم ؛ هو أيضاً يعرف أنهم يعرفون بأنه لن ينزل لهم بأى حال من الأحوال ومع ذلك ما يكاد يقترب من قعدتهم حتى يرفع إليته اليمنى ليوهمهم بأنه يهم بالنزول احتراماً لهم ، فما يكاد حلفانهم يرتفع حتى يعتدل فى ابتسامة متقنة الخجل قائلاً : دستوركم ، ثم يمضى ؛ لكنه لو صادفه شخص كالعمدة مثلاً أو شيخ البلد أو أحد رءوس العائلات المرهوبة الجانب فإنه لابد وأن ينزل مرغماً ، بقفزة واحدة سريعة ، وما دام قد نزل فليسلم بالمرة ، ولربما يلمح شخصاً آخر مهما قادماً من بعيد فيبقى ماشياً على قدميه حتى يبلغه ، وقد يرى أن المسافة إلى سرايته قد صارت يسيرة فيمشيها وأمره إلى الله. هذه الخوته - فيما يقول - لم يعد يطيقها.. ولكن هذه السيرة إن جاءت فى قعدة الشاى فى دكان رضوان على مصطبة بسطويسى ، يعلق الحصاوى خفير جنينة العمدة والمسك بسلطنة الشاى فيما هو يرفع البراد ليصب الشاى فى الكوبات الصغيرة رافعاً يده ما أمكن حتى يكون الصب رغوة يتلذذ منها الشاربون، قائلاً إن محمد أفندى يخشى أن يمر على أمه ست عمرة أوزوج عمه زهرة إذ إنه يستعر منهما وهو الأفندى وهما الجربوعتان، فيعقب عليه أبو سليمة الصياد وهو ماض فى عقد خيوط شبكة صيد لا تنتهى أبداً ، قائلاً إن محمد أفندى ليس يقوى على النظر فى وجه أمه من يوم مابصقت فى وجهه أمام جمع من الكبراء فى دارها يوم إصراره على تقسيم الميراث والانعزال وحده فى عيشة تليق بمركزه أفلا تتذكرون ؟ عندئذ يتفجر رضوان البقال ضاحكاً على غير انتظار وقد انكمش فى بعضه ، يصيح :

- «فكرتنى يا رجل ! تصور أنه لايزال إلى اليوم يمسح البصقة عن

وجهه! ومن لايعرف يقول إنه يختم الصلاة!»

يضحكون مجاملة لرضوان إذ إنهم يدركون من جانب خفى أن رضوان حاقد على محمد أفندى لأنه لا يشترى طلباته من دكانه.

وحينما همس الحفناوى بذاك الخبر فى أذن عمى أبو السعود وبصوت مسموع تحولت المصطبة ورصيف الدكان إلى دوامه صاخبة اختلط فيها الضحك الملتاث بالسخرية المرة من أحوال الدنيا والاستعبار بحكمة الله فى أن يعود الحق إلى صاحبه ولو بعد حين طويل..

غير أن عمى أبو السعود سرعان ما انتبه إلى شئ، فاستوقف الحفناوى، راجعه فيما قال، طلب منه أن يعيد حكاية الخبر لكى يتأكد ويتأكد معه الشهود الحضور مما سمع قبلاً..

قال الحفناوى:

- «جودت افندى كان يمشى ساكتاً ! وفجأة لقيناه يقول: يا محمد افندى أما علمت بأننى اليوم شفت صندوق أختك تفيدة الذى ضاع منها منذ مدة ولم يعرف البوليس كيف يجئ به؟..

محمد أفندى كأنه قرصته عقربة! راح يتنطط فوق الحمار ويقول: ماذا قلت ياجودت أفندى !

ما هذا الكلام الفارغ عدم المؤاخذة ؟ إيش عرفك أنه صندوق أختى تفيده؟! شفته فين؟ ..وكان وشه أصفر كالليمونة.. جودت أفندى بعت له واحدة من بصاته التى تفلق الحجر! قال له : خبيبى أنا لا أتوه عن علبة المجوهرات الملكية المكتوب عليها اسم الأميرة واسم .. اختك تفيدة!... شفته فى مركز البوليس يا خبيبى ! البوليس أخيراً قبض عليه! وكمان يا خبيبى

البوليس طلبنى لأتعرف عليه ! إنهم يعرفون تاريخ علاقتى بالأمير والأميرة يا خبيبى! فخمتم خبيبى؟.. طب تصدقوا بالله يا جماعة أن محمد أفندى من ربكته جعل الحمار يلف حول نفسه ! أنا انخضيت يا جماعة تصورت أن محمد أفندى يريد قتل جودت أفندى مع أنه كان من المفروض أن يفرح بخبر العثور على صندوق أخته!.. المهم .. قعد طول السكة يترجى فى جودت افندى ويكاد يبوس رجليه ويقول له: اكفى على الخبر ماجور ! اعمل معروف يا جودت أفندى اتركنى أتصرف فى السر من غير دوشة دماغ لعلنى أتعرف على الفاعل الأصلى ! لو طاوعتنى يا جودت أفندى فلن أنسى لك هذا الجميل طول عمرى!.. جودت أفندى من خبثه قعد يهش الذباب عن نفسه بالمنشه وهو قاصد أن شعرها يلسع وجه محمد أفندى ! وكان باين إنه غير معجب بمحمد أفندى ولا كلامه ! لم يرد عليه ! تركه وحود على سرايته من غير إحم ولا دستور!»

فى المساء وعمى أبو السعود يعرض الخبر على العقالوة شاركوه جميعاً نفس الاسترابة فى تصرفات محمد أفندى وانزعاجه من الخبر . ونزلوا على اقتراح عمى زكريا بأن يتجاهلوا الخبر كأن لم يكن حتى يجيأهم بلاغ رسمى . وفى تلك الليلة بقى القمر ساهراً يتربع فوق جريد النخيل كأنه كلوب إلهى مخصص لهذه السهرة وحدها بهذه العائلة وحدها .. فظل يؤنسهم وينير لهم جخانيق الذكريات البعيدة التى انهارت عقالاتها فتدفقت بغزارة تغمر الجميع وتضرسهم كطعم الحصرم والمياه المالحة..

(٢٦) أحكام الأيام

قالت جدتي معزوزة إن ست عمره بعد أن مات زوجها ، ابن عمها ، وتزوجت من سليم الغرغاني تراتيرو الذي كان أرمل هو الآخر ويكبرها في السن بعشرين عاماً حملت منه للمرة الثانية في ابنتها تفيدة فكانت وش السعد عليها؛ ففي نفس الأسبوع الذي ولدت فيه تفيدة تصادف أن كانت الأميرة الكبيرة في شهرها الأخير فجاءها المخاض أثناء إقامتها في المنتجع فجيء لها بالطبيب متأخراً بعد أن شافت الداية شغلها وأنتعتها بالسلامة، وطوال أسبوع والأميرة تعاني من جفاف صدرها، مما دفعهم إلى البحث عن مرضعة بصحة جيدة، فأخبرتهم الداية أنها أولدت امرأة أحد عمالهم في الجناين واسمها ست عمره زوج سليم الغرغاني تراتيرو؛ فجيء بها على الفور، كشف عليها الطبيب بدقة وقرر أنها سليمة وصحتها كالبمب قوية، فرتبوها لإرضاع الأميرة الصغيرة بمقابل سخي، وأن تأكل ست عمره من طعامهم لكي يكون اللبن الذي سترضعه الأميرة من نفس غذائهم. وقد لفت الأيام وكبرت الأميرة الصغيرة صارت عروساً مثل تفيدة يكاد الشبه بينهما يكون متطابقاً، جاءت بدورها إلى المنتجع إثر عودتها من بعثة تعليمية في فرنسا بمجرد وصولها طلبت أن ترى أختها في الرضاعة ومرضعتها ست عمره . الأميرة استلطفت تفيدة ووقعت أسيرة حبها، صارت توقفها بجوارها أمام المرآة وتقول إنها انقسمت إلى شخصين واحدة أفرنجية صرفة

والأخرى فلاحة صرفة، وتقيس عليها فساتينها فتجدها لائقة ساحرة سيما وأن جسميهما كأن خراطاً خرطهما على قالب واحد. يوماً بعد يوم باتت تفيدة سميرة للأميرة ذات صفاء ولطف وبراءة حيث كانت حافظة للقرآن كله ولبقة وتجيد التحدث في مسائل الحلال والحرام والشرائع السماوية وإن بشكل بدائي كما أن لديها موهبة كبيرة في تفسير الأحلام بشفافية يقشعر منها بدن المستمع فما بالك بصاحب الحلم؟ وكذلك قراءة الطالع في الفنجان وفي كف اليد ، كانت قد تعلمت كل ذلك من أمها ست عمره ومن الحاجة زهرة وقعدة رصيفها الذي يؤمه الغجريات والمشعوذون كل يوم؛ إلى جانب ذلك كانت تطبخ للأميرة أطعمة فلاحية حريفة تفتح الشهية؛ الأهم من كل ذلك كانت أمينة عفيفة النفس ذات كبرياء فطرى بصورة لم تعهدها الأميرة في أحد غيرها؛ كانت أختاً للأميرة بحق وحقيق والأخوة عندنا يافلاحين لا تقبل القسمة أو الفُرقة أو الخيانة؛ مما جعل الأميرة تفرح بها كأنها عثرت أخيراً على الأخت الملائكية أو القرين الملائكي؛ لا تجد من تحكى له أسرارها وهمومها سواها فتجد من الدفء الحقيقي ما يعينها على تفتيت هذه الهموم وحل جميع المشاكل ببساطة؛ جاء حين من الدهر كانت الأميرة تأخذها في معيتها إلى القاهرة مرات وإلى إستانبول مرتين وإلى أنشاص والقناطر والسويس والإسماعيلية مرات عديدة شاهدت خلالها استراحات وقصور العائلة المنتشرة في كل مكان فلا يبين عليها حقد ولا حسد؛ وكانت الأميرة تتمنى لو تطلب منها أي طلب فيه منفعة لها فلم يحدث؛ ودائماً أبداً تقول لها: مش عايزه حاجة ياتفيدة؟ فتقول لها نفس الرد : عايزه سلامتك ياأختي، وكانت كلمة «ياأختي» تعجب الأميرة على لسانها الفلاحي. ويوم مات سليم الغرغاني جاءت الأميرة بنفسها لتقديم واجب العزاء لمرضعتها ست عمره .

هكذا باتت ست عمرة ذات نفوذ قوى فى البلدة. ركبتها الغطرسة حتى ضاق بها جميع الأهل والجيران والصحاب؛ انصرفوا عنها جميعاً. انعزلت، صارت كائناً عدوانياً يخانق الذباب والتراب والهواء. فلما تقدم عمى أبوالسعود بخطبة تفيدة كان كأن العناية الإلهية بعثته لإنقاذ الصبية من نار جهنم التى كانت فيها، وإذ تعرفت عليه الأميرة وأعجبت به وقدرته وخلصته من تعنت ست عمرة وغطرستها، أصرت الأميرة على أن تخرج أختها العروس ليلة الدخلة من سرايتها. بالفعل بدأت الزفة من سراية الأميرة بالطبل والمزمار البلدى، لفت شارع داير الناحية من منتصفه مختصرة الطريق إلى دارنا، فى حين امتثل العقالوة لإصرار محمد أفندى عمرو على أن يستحم العريس فى داره ليخرج بالزفة الكبرى من باحة الدار على شارع داير الناحية من أوله فتأخذ الزفة لفتها عائدة إلى جرن العقالوة ليجد العروس فى انتظاره فى حوش الدار وبرفقتها سمو الأميرة شخصياً.. فكانت دُخلة عمى أبوالسعود تاريخية بمعنى الكلمة رفعت من قدر العقالوة إلى مكانة يحسدون عليها.

أطقم الفساتين والقمصان الشفشتى والأحذية والجوارب والسنتيانات التى دخلت بها العروس كانت فرجة لسنوات طويلة سيما وأنها بقيت طول عمرها للفرجة فحسب لأنها لم تكن تلائم الحياة فى دار العقالوة بأى حال من الأحوال.. إنما كانت المفاجأة الكبرى هى ذلك المسمى بالصندوق؛ هو إذن لم يكن صندوقاً بمعنى الصندوق إنما كان عليه مجوهرات تسمى بالشكمجية وهى تأخذ شكل الصندوق الصغير، طوله ثلاثون سنتيمتراً وعرضه عشرون وارتفاعه عشرة سنتيمترات؛ وصفه كل من رآه من كبار العقالوة بأنه تحفة ملكية ثمينة مبهرة، مصنوع من أرقى أنواع خشب الجوز أو ما أشبه، مبطن من الداخل بالذهب الإبريز، ومطعم من الخارج بأحجار

كزيمة من الدر والياقوت والزبرجد والعقيق والكهرمان وأنواع أخرى غير معروفة الإسم إلا للخبراء؛ وهذه الفصوص ذات الأحجام والأشكال والألوان المختلفة كانت تبدو كحديقة من الألوان المبهجة يشعر من يشاهدها كأن أصالتها قد انتقلت إليه. قيل إن الأميرة كان لديها من أمثاله الكثير مما أهدى إليها من ملوك وأمراء وسفراء ووزراء وأهل وأصدقاء، وإذ أغدقت على أختها في الرضاعة في شراء مصاغ لها على الذوق الأميرى اختارت هذا الصندوق الشكمجية ووضعته فيها، ولصفاء نفسها وجمال روحها أرادت أن تضفى على هديتها لأختها قيمة تاريخية تشرفها بين الناس، أوصت أحد جواهرجية العائلة العلوية بأن يكتب في بطن الصندوق، بالحفر على البطانة الذهبية كلمة من سطرين تفيد بأن الأميرة فلانة قد أهدت هذه العلبة بمجوهراتها لأختها في الرضاعة تفيدة سليم الغرغاني، ثم وقعت بإمضائها وسجلت تاريخ الإهداء بليلة الزفاف وقالت لعمى أبوالسعود وهي تريه هذا التوثيق إن ذلك يؤمن العلبة ويحفظ حقكم فيها لأن وجودها عندكم وهي ذات مستوى ملوكي قد يثير الريبة. المصاغ كان أكثر من اللازم فوق شبكة عمى أبوالسعود، أشكال مما يلبس في الرقبة، أنواع مما يحيط بالمعصم كالأساور، ألوان مما يتدلى في الأذنين، ومما يزين الأصابع، وتشبك على الصدر، ويربط جدائل الشعر، ومنها ما هو للسهرة وما هو للبيت وللمناسبات والحفلات كأن تفيدة أميرة بالفعل ذات علاقات وسهرات ومناسبات وما إلى ذلك مما يلزمه لبس وزينة.

لم يعد للناس ثمة من حديث سوى هذا الكنز الإلهي الذي هبط من السماء على بنت تراتيرو وكأنها الأميرة ولكن بلا إمارة. كان الذين يأتون للصباحية على العروسين يقضون وقتاً طويلاً في الفرجة على الصندوق وعلى ما فيه تلمع في عيونهم نظرات الحقد والحسد بشكل لا يقوون على إخفائه.

كان الجميع يخلبهم ذلك المكتوب فى بطن الغطاء إذ إنه يعنى أن تفيدة قد صارت بالفعل أميرة بموجب هذه الوثيقة .. ..

.. ..

طالت لحظة الصمت وامتلأ الفضاء القمرى بنقط سوداء تبدو كأنها كلمات ضمرت من طول الصمت والجفاف ترسلها إلى الأفق عيون الكبار بنظرات يعتريها هلع قديم تعرفه طفولتى جيداً، كل ما كان يصيبنى بالاضطراب النفسى والكآبة فى طفولتى البعيدة بسبب هذا الهلع القديم يعترينى الآن كأننى ارتددت إلى عالم كنت قد نسيته مع انداياح الهلع فى عيون الكبار طوال السنين الفائتة؛ وكان ذلك الهلع القديم يقف وراءه ضياع شىء ثمين جداً من العقالوة انقلبت له الدنيا فى دارنا لأيام طويلة نرى خلالها الطرابيش والبرانيط من أفندية وعسكر يمطرون الجميع بالأسئلة الرهيبة، يأخذون ناساً ثم يعيدونهم بعد أيام، وكأن كابوساً أسود خيم بأجنحته على دارنا فيما نحن الصغار لا نفهم مما يدور شيئاً ولا نعرف حتى كيف نسأل؛ وآخر ما أذكره من هموم ذلك الهلع الكابوس القديم كلمة قالتها خالتى تفيده وهى تنظر لأخيها فرج المريض بالسل فى أوائل ظهور المرض عليه فيما تبكى بحرقة:

– «لو كان الذى ضاع لم يضع كنت صرفته كله على الحكماء من أجل شفائك يا حبة قلبى يا أخى»؟

تؤكد عدسات طفولتى اللاقطة أن خالتى تفيدة كانت محروقة الكبد من ألم دفين، ولم أكن أستطيع أن أعرف هل هذا الألم العميق فى صوتها ودموعها بسبب ضياع ما ضاع أم بسبب من مرض أخيها الشقيق الوحيد؟..

فى تلك الليلة القمرية حكت نفيسة بنت عمى زكريا - وهى أكبر بنات الدار قاطبة - كيف كانت هى السبب فى اكتشاف ضياع الصندوق: كانت تلعب مع العيال فى الجنينة فعثرت علي خاتم خالتى تفيدة ذى الفص الياقوت، طلعت تجرى صارخة:

- «يا أمرأة عمى! يا امرأة عمى لقيت فى الجنينة خاتماً يشبه خاتمك»!

- «يشبهه»؟!

ولبسته فى أصبعها ناظرة للبنت فى تشكك:

- «إنه خاتمى يابنت! من أين جئت به يامقصوفة الرقبة»؟!

شهد العيال كلهم بأنها عثرت عليه أمامهم فى هذه الحتة؛ وسحبوها إلى المكان فإذا هو الممر الموصل إلى باب الحديقة؛ مشت على الممر إلى الباب فوجدت «السقاطة» - لسان الكالون الخشبى - مرفوعة عن مبيتها؛ هذا الباب لا أحد يفتحه على الإطلاق إلا من داخل الجنينة وهو فى العادة لا يستعمل لأن الزريبة لها باب خاص على الحارة ولها ، مثل المخزن ، باب داخلى يفتح على حوش الدار؛ عندئذ لعب الفأر فى عبها وانقبض قلبها، ارتدت مهرولة إلى حجرة نومها، فتحت الدولاب، لم تجد للصندوق أثراً ، صرخت، صوتت، لطمت، أصابتها لوثة كالثكلى راحت تخربش فى الأرض وتشد شعرها وهى لا تنى تردد فى فجيعة:

- «الهدية»! تروح المجوهرات فى داهية بس الصندوق! اسمى! اسم الأميرة! التاج الملكى! ياما جاب الغراب لأمه!.. جاتنى ستين نيلة! أنا برضه كنت وش هدية ملوكى؟!.. هى قلة الأصل حتسيبنى فى حالى؟!.. يادى الوقعة السودة! ياخرابى! يافضايحى! ياعار العقالوة»!

ويومها رفض عمى زكريا وعمى أبوالسعود أن يتهما أحداً بعينه درءاً لذنب الافتراء بغير دليل.. وكان من الواضح أنهما اختلفا حول هذه النقطة، اتضح ذلك من خلل الحكاية التي حكاها أبى تعقيباً على حكاية نفيسة بنت عمى زكريا. قال أبى وهو يعصر جبهته بين إصبعيه فى لهجة انتصار:

– «أنا قلتها من يومها.. عين فرج تراتيرو كانت تبخ شراً.. أنا لست تائهاً عنه عدم المؤاخذة يا أمرأة أخي! لعن الله قوماً ضاع الحق بينهم»!

ثم أعاد علينا تفاصيل المشهد؛ قال إنه فجر ذلك اليوم الذى ضاع فيه الصندوق كان آتياً من المسجد عقب صلاة الفجر فرأى فرج تراتيرو آتياً من وراء جنينتنا مضطرباً مرتبكاً يحتضن عباءة مطوية؛ وما جعل الشك يساور أبى علمه بأن الدار تقريباً فى تلك الليلة خالية من الرجال، فكل من عمى جبريل وعمى موسى كانا بائتين فى الغيط، وعمى زكريا وعمى أبوالسعود يذهبان إلي المسجد قبل آذان الفجر بوقت طويل إذ أن عمى زكريا كثيراً ما يتورط فى الأذان والاستغاثة لكثرة غياب المؤذن، وعمى أبوالسعود هو الآخر متورط فى درس قصير قبل أذان الفجر بقليل، وفى تلك الحصة كانت خالتى تفيدة يومها منوطة بجلب البهائم ، أى أن حجرتها المطلة على الجنينة كانت خالية؛ ولأن أبى غير مستريح فى الأصل لعلاقة صهرنا تراتيرو بصهرنا عبدالرحمن عمرو الحلاق ذى السلوك المعوج، لذا فقد كان لابد أن يسأله:

– «مالك يا تراتيرو؟! ومن أين جئت فى هذه الساعة ؟!»

أجابه لاهثاً وهو يهرول فى اتجاه دار محمد أفندى عمرو على الشاطىء المقابل لترعة خلاف:

– «أطارد ثعلباً أكل فراخ الجيران !»

وفى الضحى تم اكتشاف ضياع الصندوق. وبناء عليه انبرى أبى – وخالتى تفيدة تنصت إليه بإمعان وقد بدا عليها أنها الآن تتمنى معرفة اللص حتى وإن كان أخاها وأنها ليست تستبعده وها هى تتلهف على دليل يقنعها – مؤكداً فيما يشبه التقرير الحاسم بأن الصندوق قد خرج من دارنا بمعرفة صهرها فرج تراتيرو فجر أن التقاه يحتضن العباءة المطوية. تلقائياً – بفعل الغضب الذى تجدد الليلة – أيده عمى زكريا قائلاً إن الله منتقم جبار

أصـاب تراتيـرو بمرض السل يـأكل فى رئتيـه عقـاباً لـه على مـا فـعل. أيدته جدتى معزوزة كالكورس يعزف نفس الترجيع بكلام آخر:

- «حـسـرة على عـبـدالرحـمن ولد أخـتى! أدخله الله جـهنم وهـو حى! سبحانه! يمهل ولا يهمل»!

لاذت خالتى تفيدة بالصمت مقهورة بائسة، فيما راح عمى أبوالسعود - ترضية لخاطر زوجته التعيسة - يحاول التشبث بأهداب الأمل فى أن يكونوا مخطئين فى تصوراتهم ويكون صهرانا بريئين.

عقب صلاة الفجر وقد شأشأ الضوء على أوراق الشجر والرجال على وشك التوجه إلى أعمالهم أو استئناف النوم للضحى، فوجئنا بطرق على باب المندرة. وارب عمى موسى باب المندرة، فإذا هو فرج تراتيرو؛ كعادته بمجرد انزياح الباب يدخل ملقحاً جثته على الكنبة طالباً - إمعاناً فى العشم - لقمة يشق بـهـا ريقـه. رمت له أختـه - خـالتى تفـيـدة - بـالطبق الخـوصـى، عليـه رغيفان وقطعة جبن قريش وصحن لفت ثم تركته ومضت دون أن تنظر فى وجهه. جاءه عمى موسى الشقي المكشوف الوجه؛ جلس على مبعدة منه ، جعل يحملق في عينيه متغمداً إرعابه لعله يكتشف مافى داخله . ناديته بأمر من عمى أبوالسعود الذي وقف فى الحوش متخفياً؛ قال لعمى موسى:

- «لا تفتح معه أى مواضيع! فاهم ؟!»

قال عمى موسى:

- «فـاهم! هو آت يتـجـسس! يريد أن يعرف مـاذا سنفـعل بعد انتشـار الخبر!.. أنا قرأت فى عينيه كلا ما كثيراً شبه مشطوب !!»

شدد عليه مرة أخرى:

- «لا تفتح معه أى مواضيع !»

- «سأوزعه! يطفح اللقمة وأمشيه !»

– أترك له المندرة وامش! دع باب الشارع مفتوحاً وسنكر باب الدهليز من هنا !»

إلا وهو آت من باب الدهليز حاملاً الطبق الخوصي بين يديه وقد مسح ماكان عليه من خبز وجبنّ ولفت:

– الطبق يا أولاد !»

اصطدم بنا في وقفتنا في عمق الدهاليز، تقدم نحونا هاتفاً:

– «ياصباح الخير ياللي معانا !»

لم يرد عليه أحد، رماه عمي أبوالسعود بنظرة حراقة تقطر اشمئزازاً. وضع تراتيرو الطبق على الأرض:

– «أنا سمعت أنكم مسافرون إلى المركز قلت ما يصح أن أترككم تذهبون من غيري.. أنا جاهز للسفر معكم حالاً !»

لأول مرة في حياتي أرى عمي أبوالسعود يفقد أعصابه ويتعفرت؛ صرخ فيه صرخة نفضته عن الأرض نشفت دمه:

– «لا مركز ولازفت! لا رايحين ولا جايين !»

دفع عمي موسى، ثم دفعني، ثم مشى إلى حجرته يستغفر ربه ويتوب إليه. قال عمي موسى بغمزة ذات معنى:

– «مع السلامة أنت الآن يا سي فرج !»

سحبني فمضينا معاً إلى الزريبة، قابلتنا خالتي تفيدة في طريقها إلى حجرة عمي أبوالسعود، تلكأت أمام أخيها:

– «روح أنت يا فرج لا تقف لنا هكذا على الصبح كالعمل الردى !»

– «ماشي ياأختي !»

ارتد خارجاً. ودخلت هي إلى عمي. سمعناها تقول بصوت كمواء القطط:

– «نفضها سيرة ونريح دماغنا يا أبوالسعود أفندي!.. ما راح راح وانتهى! ماذا سنفعل بالصندوق الفاضي؟ سنجدد مافات من عذاب ونحن ما

صدقنا أن نسينا؟! ياربى لماذا أرجعته؟ ياربى ياترى ماذا نويته لنا وكتبته علينا؟!.. إننا يارب غلابة! يكفينا مافينا! عوضنا عليك وخلاص! كلمة قلناها ولن نرجع فيها فأزح عنا المصائب سايقه عليك النبي وأهل بيته والإمام علي !»

– «بس ياولية اسكتى !»

– «أعمل لك شاي يا خويه ؟»

– «إعملى»!

– «حاضر يا خويه !»

سبقها خارجاً إلى مصطبة الجنينة . إن هى إلا دقائق وجاءه عمى زكريا، ثم أبى، ثم عمى جبريل، فعمى موسى، فأنا والشيبة. جاءت الشيخة تيسير بنت عمى زكريا، وضعت الطبلتين الكبيرتين أمامنا، وكانت رائحة فطير الذرة باللبن والقشدة قد فاحت من دويرة الفرن وفتحت شهيتنا. أخذت صوانى الفطائر تتوالى قادمة من الفرن رأساً . أثناء شرب الشاى قال عمى أبوالسعود:

– «يكون فى علمكم! نحن لا نعلم أى شىء عن الموضـــوع ولا نريد أن نعرف! إذا فاتح أحدهم أحدكم فى الموضوع فليشترى منه دون أن يبيعه أى شىء !»

أيده الجميع، قال أبى:

– «سنجمع القطن بعد أيام !»

– «يلزمك أنفار طبعا»!

– «لا تشغل بالك! سأتصرف !»

قاموا وغادروا، اضطجع هو على المصطبة، فرك عقب السيجارة فى الأرض، أغمض عينيه في غفوة، انطلقت خارجاً لأنتظر قدوم أبوحواس بالجرائد كى أعود بها إلى عمى.

(٢٧) مشروع محو الأمية

كان عمى أبو السعود أفندى قد أمضى شهوراً طويلة من العام الدراسى السابق يخاطب وزارة التربية والتعليم داعياً إلى فتح فصول جديدة فى القرى طوال أشهر الإجازة الصيفية لمحو أمية الذين فاتهم قطار التعليم. ولم يكن يدرى أن الوزارة التى نامت على مكاتباته طوال تلك الأشهر يمكنها أن تستجيب فجأة لبدء المشروع وفى هذه الظروف العصيبة بالنس بة للعقالوة . أما وقد تلقى تعليمات ببدء تنفيذ المشروع – وعلى نطاق القرى كلها – فإنه قد انتفض فى الحال من هزة الفرح بالعثور على عمل يستغرقه ويشغل وقته الطويل الممل ؛ بدا كأنه قد صغر فى السن عشرين عاماً . ما أن تلقى الإشارة حتى سارع باستدعاء ابن خالته الشيخ عرفات ؛ شرح له موضوع النداء ، شاركه فى صيغته :

– « يا أهالى بلدة الضبعة الكرام ! .. أخيراً
جاءكم النور ويسر الله لكم سبيل العلم بالمجان
لكل من فاته قطار التعليم ! .. من بعد غد السبت
إن شاء الله ستفتح جميع فصول المدرستين
الإلزامية والابتدائية لكل من يريد أن يتعلم
القراءة والكتابة بالمجان .. ولسوف يمنح

الناجح شهادة محو الأمية يمكن أن تفتح
له أبواب الوظائف .. يا أهالى بلدتنا الكرام
لايجب أن تفوتكم هذه الفرصة النادرة!»

ولكن الشيخ عرفات عندما بدأ النداء الفعلى فى الشوارع أطاح بالصيغة المتفق عليها وارتجل صيغة جاءت أكثر حيوية وطرافة وجاذبية كأنها قطعة فنية تتوسل بالهزل تكريساً للجد ؛ وحيث أنه يعرف جميع البقاع الاستراتيجية فى بلدتنا ، مصطبة فلان فى الشارع الفلانى، مندرة علان فى الحارة الفلانية ، وكذلك الأماكن التى يتجمع فيها الناس لأى سبب من الأسباب .. فعند كل منها يتوقف، يتكىء علىَ عصاه بيد ، واليد الأخرى على كتف الصبى الذى يسحبه؛ إنه فى حد ذاته فرجة ، بجسده الضخم العريض المنكبين الجارم العظام، وجلبابه البيسة الأزرق الجربان، وطربوشه المغربى المبطوش فوق رأسه الأصلع كالزلطة ؛ ثم يطلق عقيرته ببراعة استهلال لابد وأن تجذب الآذان من أول وهلة فتنصت إلى ما سوف يقول :

– « يا أهالى الضبعة الكرام .. باسم الله الرحمن الرحيم
نون والقلم وما يسطرون .. هكذا يحلف الله بحياة
الكتابة .. واقرأ باسم ربك الأعلى الذى علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم ! هكذا يأمر الله نبيه وجميع
المؤمنين بأن يتعلموا القراءة والكتابة حتىَ لايكونوا
كالبهائم .. فمن كان منكم يحب أن يكون بنى
آدم فليذهب إلى فصول محو الأمية فى أى
مدرسة تعجبه من المدرستين ! من يوم السبت
القادم إلى ما شاء الله وسيأخذ شهادة يتوظف
بها ! .. أما من يتقاعس ! فليبق طول حياته

ثور الله فى برسيمه !»

حين تناهى صوته إلى عمى أبو السعود انزعج فى البداية لكنه سرعان ما انفجر فى الضحك ؛ فلما خرج إلى الخلاء فوجىء بالناس مهتمين بالأمر، راحوا يستفسرون منه عن مدى صحة المثل الشائع : بعدما شاب ودوه الكتاب .. فأدرك عمى أنه مطلوب منه جهوداً كبيرة ؛ وبالفعل بدأها . بعد صلاة العصر استمهل المصلين قليلاً ؛ ثم جلس بينهم وراح يشرح لهم كيف أن الله سيحاسب المرء على جهله يوم القيامة فضلاً عما يراه فى الحياة من شقاء نتيجة جهله، وكيف أن مجرد فك الخط يفتح أمام الإنسان سككاً سالكة للحياة ، ثم حمل حملة شعواء على من ألفوا هذا المثل السخيف القائل بعد ما شاب ودوه الكتاب، اعتبره دسيسة شريرة تريد للشعب أن يبقى راسفاً فى أغلال الجهل طول حياته فيتوقف نموه ويسهل على المستبدين اقتيادهم كيفما يشاءون كالأغنام ؛ إنما الحقيقة أن الإنسان قابل لتلقى العلم فى كل وقت وآن .

انتقل إلى الجامع الكبير لصلاة المغرب فيه ؛ عقب الصلاة ألقى نفس الدرس على المصلين بصيغة أكثر إيجازاً أقوى تأثيراً . فى الحال انتقل إلى جامع سيدنا هارون فى غربى البلد حيث يتمركز كبار العائلات ووجهاء البلدة ممن يوقرون عمى أبو السعود وجدى حسن وعمى زكريا توقيراً عظيماً، سعدوا به فى الجامع ، هيأوا له المجلس ، ساعده المستنيرون منهم فى توجيه كلمته بقدر هائل من الوضوح والفعالية حيث كان الدرس عندئذ حواراً حياً بين عقول وإن جهلت القراءة والكتابة وهبت القدرة على الاستيعاب والفهم بل إن بعضهم يتحدث بالفصحى الفطرية بالسليقة التى ورثها عن القرآن الكريم المتداول بينهم ليل نهار . وفى صبيحة الجمعة امتلأ مسجد العقالوة عن آخره وفرشت أرضية الباحة الخارجية بالحصر والأجولة لاستيعاب أعداد هائلة من المصلين جاءوا شغوفين بالاستزادة من المعلومات

التى تقوي من عزيمتهم التى باتت واضحة الرغبة فى محو أميتهم . يومها جلجل صوت عمى أبو السعود على المنبر يحث الناس على اللحاق بركب الحضارة والعلم الحديث بعد إذ تحررنا من الاحتلال الأجنبى وحكوماته البغيضة . من فرط صدقه وحرارته وبلاغته كان الناس مبهورين فى نفس الحال من الورع التى تعتريهم حين يعرج الخطيب على الحديث عن النبى وآل بيته الكرام ؛ غير أن الحديث عن آل البيت كان هذه المرة كاشفاً للقوم عن حقيقة أذهلتهم ، تلك هى أن الطريق إلى آل البيت لن يكون مفتوحاً إلا بمعرفة القراءة والكتابة، لقراءة تاريخهم ، وقراءة القرآن ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

مساء السبت امتلأت فصول المدرستين عن آخرها بالبشر الراغبين فى محو أميتهم ؛ شباناً وصبايا ، رجالاً كهولاً وسيدات كباراً ؛ تم توزيعهم على الفصول وتسجيل أسمائهم فى دفاتر رسمية ؛ وبدأ المدرسون دروساً تمهيدية عن أشكال الحروف الأبجدية وربطها بأشياء مألوفة للناس فى الحياة، فالراء مثلاً شكل الهلال، والنون شبه الحلة وفى قلبها نقطة ؛ وما إلى ذلك من تشبيهات، ولكى يخفف عمى العبء على المدرسين وبخاصة الأغراب المقيمين فى بلاد مجاورة ويجيئون بالركايب كل مساء ، فرض على جميع طلاب بلدتنا، من حملة الشهادة الابتدائية فما فوق، أن يأخذوا حصصاً على سبيل التطوع فى مشروع وطنى كهذا . سارع بمخاطبة المديرية فى طلب كمية من كراريس الوزارة؛ وإلى أن تستجيب الوزارة لطلبه فتح باب التبرعات فى صلاة الجمعة فى جميع مساجد البلدة ، كل واحد يضع فوق المنديل المفرود قرشاً أو حتى مليماً . فى صلاة العصر كانت الحصيلة مبلغاً لا بأس به ، تم انتخاب لجنة من أعيان البلدة سافرت إلى دسوق واشترت صفقة من الكراريس وأقلام الرصاص ذات الأستيكة منه فيه، وبرايات ، تم توزيعها على طلاب محو الأمية ، بدأ التدريس عملياً، المدرس يكتب الحروف

الأبجدية على السبورة بالطباشير بالخط الثلث الكبير مرة وبالنسخ مرة وبالرقعة ثالثة ، تحت بعضها ؛ وهم ينقلونها بخط أيديهم فى الكراريس مع ترديد أسمائها فى تتاليات التشكيل وصوتياته وعلاماته : الفتح والكسر والضم والتسكين . كان جميع الطلاب كباراً وصغاراً فرحين جزلين بنطق الحروف إذ يستكشفون عالماً جديداً من خلالها .

كنت سعيداً لأننى كلفت بجدول مكون من ثلاث حصص كل يوم فى المدرسة الابتدائية فى مرحلة تحويل الحروف إلى كلمات وأسماء . كان عمى أبو السعود لا يكف عن التجوال بين الفصول فى المدرستين يفتش ويبدى الملاحظات ويمتحن ويصحح ويشجع؛ يداعب الفلاح بقوله :

– « بكره تنجعص وتقرأ الجرنان بنفسك !»

وللصبية الفلاحة بقوله :

– « إن شاء الله تبقى ست بيت يتمناكى ناس

محترمين ! وتخلفى عيال محترمين !»

وللشاب :

– « بكره تلاقى وظيفة عايزة قراية وكتابة !»

كل ذلك وهو يرتدى بدلته العتيدة العتيقة ، يتصبب عرقاً ، والمنديل الأبيض فى يده صار مسود اللون .

رغم أن الدراسة مسائية فإن عمى حريص على الذهاب إلى مكتبه صباح كل يوم لاستقبال رسائل من المديرية أو إرسال مكاتيب إليها . ثم إن مكتبه فى المدرسة يحتل موقعاً ساحراً تحيطه أشجار التوت والصفصاف وذقن الباشا، يغرى بالجلوس لوقت طويل خاصة أيام القيظ . وقد اعتدت بمجرد أن أصحو من النوم أن أجيء إليه فى المكتب لعله يحتاجنى فى أى مشوار ، أو يعهد إلى بكتابة بيانات دفترية أو أقرأ عليه أخبار الجرنان المطبوعة ببنط دقيق يزغلل عينيه .

(٢٨) ظهور بدر اليمن

فى عز اندماجنا فى مشروع محو الأمية، وأبى وعمى موسى يمضيان الليل فى تدبير أنفار لجمع القطن فى أرضنا ؛ جاء شيخ الخفراء إلى دارنا وقال لعمى أبو السعود أن العمدة يريد أن يشرب الشاى عندنا .

أهلا وسهلا مرحباً . بعد صلاة العشاء استقبله عمى أبو السعود على مصطبة الجنينة تقديراً لخصوصيته باعتباره صاحب بيت وليس ضيفاً تلتقيه المندرة، ثم إن عمى أبو السعود استشعر أن فى الأمر ما يستدعى السرية فابتعد عن المندرة وما قد تتلقاه من مفاجآت بضيوف وافدين يعطلون البوح والتشاور المكين .

شرب العمدة الشاى وقبل يد جدتى معزوزة طالباً منها الدعاء له فكان له ما أراد فى الحال . قال العمدة لعمى إن السيد ضابط النقطة تحرج من استدعاء عمى خشية أن يكون المشهد غير لائق فى نظر الناس ، فطلب من العمدة أن يزور عمى ليشرب معه الشاى ويبلغه بأن الست حرمكم تفيدة هانم سليم الفرغانى مطلوب منها الذهاب إلى مديرية الأمن لكى تتعرف على صندوق المجوهرات الأميرى الذى كان ضاع منها ولقيه البوليس ..

قال عمى أبو السعود فى دهشة بالغة :

– « مديرية الأمن حتة واحدة ؟! يا أخى قل المركز تكون مبلوعة ! » .

هكذا كررها عمى على مسامعنا وسط الليل وهو يحكى لنا ما دار بينه والعمدة . ولكى يقنع خالتى تفيدة بضرورة السفر معه بدون مناهدة قال إن العمدة مال على أذنه هامساً بلهجة خطيرة .

– «يظهر أن الموضوع كبر أكثر مما هو كبير من حاله وأنا شممت خبراً بأنهم أمسكوا بالولد الذى سرقه من السارق الأصلى ! .. المهم أن التحقيق يتم بمعرفة رئيس مباحث المحافظة لكى تروح القضية إلى النيابة جاهزة مما جميعه !»

برغم هذه السرية انتشر الخبر فى البلدة كلها بسرعة البرق حتى الأطفال قد سمعوه ورددوه . كان عمى أبو السعود قد رتب للسفر إلى كفر الشيخ بعد غد، نبه على خالتى تفيدة بأن تكون مستعدة نفسياً وبدنياً من الآن لمواجهة ما قد يتمخض عنه الأمر من مفاجآت صادمة أو قاسية . وفيما كان عمى جالساً إلى مكتبه فى ضحى اليوم التالى لوصول خبر الاستدعاء ، وأنا جالس أمامه على الكنبة الجلدية ؛ فى مواجهته باب الفراندة مفتوح على الأشجار؛ قد انتهى من تصفح جريدة الأهرام وأزاحها نحوى فتناولتها لأتصفحها بدورى؛ فإذا به يرفع رأسه مسدداً بصره على الشجر عاقداً ما بين حاجبيه فى تكشيرة مفاجئة غاضبة ، جعل يغمغم :

– « عجايب ! .. الوليه دى إيه إللى جابها هنا ؟!»

نحيت الجرنان ونظرت؛ إنها «بدر اليمن» الملاية ؛ اسمها هكذا : بدر اليمن، فى حوالى الستين من عمرها لكنها عفية من كثرة المشى ودوام

الشقاء . كان عمى أبو السعود محقاً فى تكشيرته الغاضبة؛ ذلك أن هذه المرأة كانت الملاية الخاصة بدارنا و فجر كل يوم تبدأ فى نقل بلاليص المياه من حنفية المكرر القريبة من جرن العقالوة ، عشرين نقلة فى اليوم أو أكثر لشربنا وطبيخنا وخبيزنا واستحمامنا وغسيل ثيابنا أما الزرع فيشرب من ترعة خلاف على مرمى حجر من الجنينة بواسطة قناة رفيعة متصلة بشادوف - وأحيانا طنبور - وكانت بدر اليمن تأكل وتشرب من دارنا ، وتكتسى بهدومنا وفوق ذلك تأخذ بعض أقداح من المحاصيل .. إلا أنها تمردت علينا فجأة بغير سبب مفهوم، أصبحت تتملعن، تجىء يوماً بعد يوم ثم انقطعت نهائياً ؛ كان ذلك - تقريباً - بعد اكتشافنا ضياع صندوق خالتى تفيدة بعدة أشهر، ويبدو أنها استشعرت أننا بتنا نشك فيمن يتعاملون معنا عن قرب ؛ يبدو كذلك أن واحدة من نسوان الدار آلمتها بكلمة أو لوحت باتهامها ..

ها هى ذى تقترب من باب الفراندة ثم تظهر بحجة أنها تسقى أصص الزرع فى أركان الشرفة، إلا أن من الواضح أنها تتلكأ لعل أحداً منا يناديها ، برطم عمى أبو السعود :

- « هذه الولية تريد قول شىء !»

- «أناديها ؟» .

- « لا تعبرها !» .

ثم أضاف كأنه يعتذر عن هذه القسوة :

- «ولية خسيسة ! ماعدت أعطيها الأمان!»

أهملتها وانصرفت إلى تصفح الجرنان؛ لكنها تجاسرت شيئاً فشيئاً حتى صعدت درجات سلم الشرفة ثم اقتربت من الباب .

– « إتصبحوا بالخير .. إزيك يا أفندى! »

– « أهلاً ! .. أنت إيه إللى حدفك علينا هنا ؟!»

– «الفراش بتاعكم طلبنى لأسقى الزرع!»

زام وهو يسلقها بنظرة فاحصة بارقة كأنه يراها لأول مرة .

– « وسقيتيه ! شكراً ! أعطنا عرض أكتافك ! »

– « جئت أقول لك ألف مبروك؟!»

– «على إيه إن شاء الله ؟!»

– «رجوع الأمانة – علبة المجوهرات ! أهى رجعت لكم كما يقول الناس ؟ ألف مبروك : الحمد لله أن ربنا يبين الحقيقة وينصف المظلوم اللهم الـ ..»

– «من هو المظلوم يا وليه ؟» .

– «أنا يا سعادة البيه !»

– « يا وليه هل لمسك أحد! أهو تلقيح جتت ؟ أنت التى قطعت رجلك عنا وتبطرت على النعمة !»

– «اسألنى لماذا قطعت رجلى؟»

– « لماذا ؟!»

– «إمرأة أخيك اتهمتنى ! والست تفيدة تبص لى بصة توجعنى ! .. وعيالكم البنات يمشين ورائى فى الدار خطوة بخطوة ! .. وأنا بنى أدم من دم ولحم !»

بقى محملقاً فيها لبرهة ثم صاح بها فى نظرة ثقبت عينيها :

– « أنت يا وليه ! .. مازلت تملأين للست ست عمرة ؟!»

وبقيت نظرته كالمبرد تغوص فى عينيها تشرخهما ؛ فارتبكت وانخضت ، اضطربت الألوان على وجهها .

– «نصيبى ! .. لكن خلاص .. ما عدت أملأ لها !..
الله الغنى عنها ! .. ست غدارة وعشرتها صعبة !
.. على العموم كل واحد منه لله ! ربنا لايسكت
على الظلم ومصيره يكشفها هى الأخرى بما
فعلت فى الناس !».

– « طيب ! إتكلى على الله ! ربنا يسهل لك !» .

– «فتك بعافية !» .

مشت ، اختفت تماماً من الحديقة . أشعل عمى سيجارة واندمج فى تفكير عميق لدرجة أن عروق جبهته وفوديه كانت تنتفخ وتخفق ، أكاد أرى الدم يتدافع بداخلها صاعداً . فرك السيجارة ونادى الفراش ؛ أمره بأن يكلف بدر اليمن بسقى الزرع كل يوم، وأنه يريد أن يراها بنفسه يومياً طوال الأيام المقبلة .

(٢٩) الماحقة

إزاء إصرارى على مرافقتهما وافق عمى أبو السعود ثم استحسن فكرة وجودى معهما وإن كنت سأكلفه ثمن تذكرة كاملة فى القطار . كانت خالتى تفيدة قد انطفأت، انكسرت نفسها بدت ذليلة مهانة كأنها تعيش مكرهة . هزال جسمها أتاح لها ارتداء الملابس العريقة الفخمة التى لاتزال تنضح جدة وأصالة من بقايا هدايا الأميرة. شكلها كان محترماً حقاً وهى تطرح الشال القطيفة على كتفيها النحيلتين وتحيط وجهها بالإيشارب الحريرى البنفسجى اللون .

توجهنا إلى مبنى المديرية؛ تقدمنا عمى أبو السعود فصعدنا إلى الطابق الثانى حيث يوجد مكتب رئيس المباحث. استقبلنا الرجل فى ترحيب يتسم بالحرارة. تمعن فيه عمى قليلاً ثم صاح فيه:

– «حضرتك من سنهور؟»

قال الضابط مع هزة من رأسه باسمة:

– «نعم وكان عمى زميلك فى كفاءة المعلمين!».

جىء لنا بالشاى، جىء بمن سيكتب المحضر ليفتح المحضر. جىء بالصندوق .. ياإلهى .. تحفة مبهرة تخطف القلب من بعيد، مهرجان من الألوان الزاهية المتناسقة كأنها الموسيقى . فلما صار بين أيدينا حزنت

قلوبنا على ما أصابه من تشوهات إجرامية، لقد عبثت به أسلحة المطاوى والسكاكين والمفكات والكماشات فى محاولات فاشلة لخلع الفصوص الكبيرة الثمينة من تعشيقاتها فأزيل بعضها وانكسر البعض الآخر وتفلق الخشب فى شروخ خفية كالعاهات. رفعنا غطاءه؛ نفس التشوهات فى البطانة الذهبية؛ حروف مبتورة من اسم خالتى تفيدة ، اسم الأميرة باق على حاله ولكن من الواضح أنه تم ترميمه بعد تشوه ولكن بشكل غبى إذ ألصقت حروف بعد نزعها؛ ويبدو أن الصندوق تنقل بين عدد من الأيدى الآثمة وأن هناك من انتبه إلى ضرورة بقاء اسم الأميرة كاملاً عليه بوضوح لتبقى قيمة الصندوق ثمينة وأثرية..

دموع خالتى تفيدة تدفقت على يدها وغمرت الصندوق ، فبدا كأنها تحمل بين يديها جثمان وليدها بعد قتله والتمثيل بجثته . كان منظرها تعيساً ، بائساً ، مؤلماً ، لدرجة أننى لم أستطع منع نفسى من البكاء بصوت متهدج..

– «يا ست تفيدة ! هل هذه هى علبة مجوهراتك؟».

بكل صعوبة هزت رأسها بالموافقة ؛ فلما رأته لايزال ينتظر جوابا مسموعا حاولت التحكم فى شفتيها : «نـ .. نعم .. هو بعينه» .

– راح يملى على من يكتب أن الست تفيدة سليم الفرغان الشهير بتراتيرو عاينت العلبة جيداً وأقرت أنها نفس علبتها التى كانت قد أبلغت عن سرقتها فى المحضر رقم كذا وبتاريخ كذا؛ ثم التفت ناحية خالتى تفيدة مستدركاً :

– «ياريت ياست تفيدة تتماسكى وتهدئى حتى نعرف نتكلم بوضوح!».

ولأنها لم تكن تصلح لأى سين وجيم بأية درجة فإن عمىَ أبو السعود قد ناب عنها فى الإجابة عن كل الأسئلة المتعلقة بكيفية حصولها على هذه الهدية من الأميرة وكيف تمت سرقتها وفى أى ظروف ومن هم أعداؤها أو حسادها أو خصوم العائلة و.. و.. و.. إلى أن انتهى تحرير المحضر، واسترد الصندوق ليتم تسليمه بمعرفة النيابة بعد انتهاء كافة الإجراءات..

أخيراً وبعد توهان طويل نجحت خالتى تفيدة فى أن تنطق بشىء من الواضح أنه كان كابوسا يؤرقها ويكتم أنفاسها:

– «عدم المؤاخذة يا سعادة رئيس المباحث! أحب أن أعرف من الذى سرقنى وكدر على شبابى ومرر طعم حياتى!»..

كان رئيس المباحث يرمقها فى إشفاق :

– «ياست تفيدة إنه ليس لصاً واحداً! إنهم حلقة متصلة! واحد أخذه من واحد وأعطاه لواحد!

وهكذا .. الحمد لله أمسكنا بآخر واحد! وإن شاء الله كل شىء سيتضح!».

خلال دموعها الهائلة:

– «كان مليان بمجوهراتى يا أستاذ ! أشكال وألوان حرمت من التمتع بها!».

– «نحن أمسكنا الصندوق بالصدفة! واحد مرشد سياحى ذهب يبيعه لواحد تاجر عاديات وآثار مشهور! التاجر شك فى أن يكون المرشد السياحى مرشداً! فتأكد أن الصندوق مسروق! فأبلغنا! عملنا له كميناً وقبضنا عليه وهو يقبض الثمن من فلوس الشرطة!.. وأخيراً استطعنا أن نعرف من أين أخذه المرشد السياحى المزعوم!».

هتفت خالتي تفيدة:

– «من هو إلهي ربنا يسترك؟».

تبسم رئيس المباحث:

– «سنعرف حالاً!.. والأن بعد إذنكم ! سنطلب منكم أن أن تمثلوا معنا مسرحية صغيرة!».

قال عمى فى مرح مفاجىء:

– «نمثل مانمثلش ليه؟».

وقف رئيس المباحث متقمصاً شخصية المخرج:

– «حضرتك والمدام والأخ تقفون بعيداً وتمثلوا أنكم متهمون! وجوهكم فى الأرض من الكسوف والخوف! ماشى؟».

– ماشى!».

وقد فعلنا . منظر عمى أبو السعود وهو يمثل دور المتهم المقهور واضعاً ذراعيه فوق بطنه متقاطعين ، كاد يصيبنى بنوبة من الضحك لولا نجاحى فى قمعها بالإطراق إلى الأرض وإغماض عينى . صاح رئيس المباحث فى طلب المتهم عبد السميع المنقراوى. رفعنا أنظارنا فى تحفز؛ دخل مكبلاً بالحديد من خلف ظهره، رجل قصير القامة نحيف سفروت . وكان رئيس المباحث قد وضع علبة المجوهرات فوق مكتبه بشكل بارز جاذب للنظر؛ فما أن لمحه المتهم حتى صاح:

– «أهوه!.. هو دا كنزى! بتاعى!».

قال رئيس المباحث:

– «بص فيه جيداً!».

– «أعرفه من غير بص! إنها عشرة عمر!

كم سنة وهو فى حضنى أتفرج عليه كل يوم وأخفيه!.. كنت أستخسره فى البيع لكن منه لله مطرح ما راح!».

– «يعنى هذا هو الكنز الذى أعطيته أنت للقتيل زقلة أبو زربة تاجر المواشى؟».

– «هو بعينه!».

ثم أضاف بعد هنيهة :

– «يعنى ظهر الكنز يا بيه! كنتم تتمقلتون على الكنز تظنونى أخرف!.. عدم المؤاخذة لقيتوه عنده طبعاً!».

قال رئيس المباحث فى تمثيل متقن:

– «لقيناه باعه لهؤلاء المغفلين!».

وأشار إلينا فاحمرت وجوهنا من غضب..

انعوج عبد السميع المنقراوى وطرح فوقنا نظرة كأنها سحابة سوداء هبطت فوق رءوسنا ؛ هز رأسه وزام بلهجة ذات معنى . تجاسر واقترب منا متفحصاً خالتى تفيدة على وجه التحديد ، ثم وجه عمى . زام مرة أخرى، هز رأسه بحركة من يريد القول بأنه كشف التمثيلية من أساسها، لكنه مع ذلك عاد إلى المكتب بحركة استخفاف واستهزاء:

– «وماله ! .. ماشى على كل حال! لكن .. متآخذنيش يعنى .. متهيأ لى إن الست دى هى صاحبة الاسم المكتوب جوه الصندوق يعنى لزمن تكون أخت الأميرة فى الرضاعة.. لأن ملبوسات حضرتها ملبس أمراء من غير مؤاخذة!..»

– «لأ مفتح يا واد!.. طبعاً .. صاحب دفتر سوابق: سرقة ونصب وختمت بالقتل!».

– «كل واحد يأخذ نصيبه يابيه!».

– « لكن بمـا أنك راجل مفتح وذكي وعرفت صاحبة الصندوق فلابد أنك تعرف من الذى أعطـاك هذا الصندوق ؟ من أين جئت به ؟ صندوق عليه شارة ملكية! واسم صاحبته كيف يصل إليك؟ إما اشتريته أو سرقته!؟».

– صراحة ربنا .. لا اشتريته ولا سرقته!».

– «إذن كيف امتلكته؟».

– واحد صاحبى ابن سوق له فىّ عشم ! يعنى أنى لا آكل من الأونطة ولا تأكل منى الأونطة! أقدر أحمى من يلوذ بى قال لى :

الصندوق هذا مثل التهمة! ولصوص بلدتى طمعانين فيه ويطاردوننى فى كل سفر وربما قتلونى ليأخذوه! فخليه عندك أمانة حتى نشوف له صرفة!.. أنا كنت أعرف زقلة أبو زربة من زمـان .. دارهم كـان تحتـها طربة أثرية يغرفون منها ويبيعون لبتوع السياحة! مساخيط على جثث على صناديق على مجوهرات وعملات!.. قلت: بس ! زقلة أبو زربة هو القناية التى تصرف!.. مارأيك يابو زربة؟

قال : أشوفه!.. شافه إتهبل ! قال خليه عندى مدة طويلة!.. ليه ياعم؟.. قال: طيزه ثقيلة فى البيع! يحتاج لترتيب حتى لاينكشف أمره!

.. قلت : ماشى!.. فاتت سنة ! اتنين! ثلاثة ! خمسة! لا حس ولا خبر!.. آخر المتمة كذب علىّ وادعى أنه دفنه فى المزرعة فانسرق!.. ما أكلت من هذا الكلام طبعاً!.. وصاحبى صاحب الصندوق أجارك الله منه ! قلبه بارد يحرق دولة بحالها لتوليع سيجارة! أروح منه فين؟.وأنا؟.. كيف تأكلنى الأونطة؟! حلفت لأخلصن عليه هو وزوجته وأدخل الدار أخذ منها مايعوضنى!.. فإذا بينت الكلب امرأته واقفة فوق دماغى!».

– «وبعدين؟».

– «ولا قبلين!».

– «مَنْ إذن هو صاحب الصندوق والدم البارد؟».

– «واحد وخلاص!».

– «على كل حال نحن عرفناه وقبضنا عليه فجر اليوم!.. ستراه بعينيك الآن!».

وأشار بأن نعود إلى كراسينا ، فعدنا . قال عبد السميع في تشكك :

– «ولكن .. كيف عرفتموه ؟ أحب أن أفهم !» .

ضحك رئيس المباحث ساخراً :

– «المسألة كلها عائلية !.. من كان يدعى أنه مرشد سياحى ليبيع الصندوق لتاجر الآثار هو يسرى أبو زربة شقيق القتيل زقلة أبو زربة!.. هذه واحدة .. الثانية : الذى أعطاك الصندوق له ملف عندنا! راقبناه يوم القبض عليك! المخبر بتاعنا كان فى قفاه وهو واقف يولول مع صاحبه ويقول العوض على الله فى بتاع الناس!

شككنا فيه أكثر!.. رجعنا إلى قضية قديمة كان فيها مضروباً بالرصاص فى رقبته وكانت المعركة بسبب هذا الصندوق.. وأنت كنت معه ليلتها وبالأمارة قال لك خذ الأمانة أنت واجرى .. سمعه ورآكم الشاهد الذى نقله إلى المستشفى وأدلى بأوصاف تنطبق عليك .. وبالطبع لابد أن تكون تلك الأمانة هى هذا الصندوق ! صح الكلام؟».

هز عبد السميع كتفيه فى استخفاف ولا مبالاة . ضغط رئيس المباحث على زر، صاح:

– «هات الرجل الذى قبضتم عليه فجر اليوم!»

إن هى إلا دقيقة وفوجئنا بالداخل؛ لم يكن إلا .. غازى داوود، خال العقالوة كلهم، ياللعار؛ انكمش عمى فى نفسه لدرجة أنه على ضخامته بدا كزكيبة كانت ممتلئة بالهواء ثم فرغت منه فانصفطت. أما خالتى تفيدة فصارت كالفأر فى مصيدة، لاتنى تتلفت حواليها فى ذهول كأنها تقيس حجم الفضيحة؛ عود من القش صارت هى، ثمة من يعصره، أمن العرق أم الدموع كل هذا الانهمار؟.. أخشى أن يصيبها صرع بعد برهة.

غازى داوود تجاهلنا تماماً، تقدم من رئيس المباحث بخطى ثابتة، على شفتيه نفس الابتسامة المقيتة تحت شارب كصرصار متمدد الجناحين . أشار رئيس المباحث إلى الصندوق:

– «تعرف هذا الصندوق طبعاً!».

الهواء المسحوب يشنشن فى جدران حلقه المثقوب، يستعين به الحلق ليطرد صوت الكلام وهو يطرد الهواء مع الزفير:

– «طبعاً صندوقى!».

هكذا بكل بساطة وصفاقة وقوة..

– «صندوقك من أين؟!».

– «اشتريته بحُر مالي!».

– «من الذى باعه لك؟».

– «أمها!».

وأشار بذراعه إلى خالتى تفيدة..

– «أمها؟! أمها مين ياراجل أنت؟!»

– «أمها ست عمرة!».

خالتي تفيدة وقعت مغشياً عليها؛ إلا أنها سرعان ما أفاقت بمجرد أن تلقاها عمي بين ذراعيه وربت على خديها بكفيه..

– «إذا كنت اشتريته بحر مالك! ما الداعي لأن تهرب به ويطاردك اللصوص! من هم؟».

– «رجالة أخيها عدم المؤاخذة!».

– «أخوها من ؟!».

– «محمد أفندي عمرو! أصله من أمها! هو لما علم بأني اشتريته جاءني وقال لي هاته ولا داعي للفضايح وخذ ثمنه!».

– «ولماذا لم تفعل؟».

– «لا! أنا تايه عنه؟ إنه سيبيعه بالغالي!

ماشاء الله سككه واسعه ومعارفه أوسع!..

قلت له أنا أولى بيه وابعد عني أحسن لك!..

وعينك ماتشوف إلا النور .. كل يوم والتاني ناس تنط عليّ جوه داري وتفتش!.. ناس تطاردني كل ما أسافر! الرصاصة التي أكلت تفاحة آدم من تحت ذقني وطارت ، ضربها واحد منهم سوف أضربه مثلها بعون الله!..

هذا الصندوق ثمنه يزداد غلواً كل يوم .. هو الآن يساوي عمري كله!»..

– «وما صلتك بعبد السميع المنقراوي قاتل زقلة أبو زربة؟».

– «شريكي!».

– «في ماذا؟».

– «في كل شيء!.. بيع وشراء .. نبيع أي شيء ونشتري أي شيء .

– «من الذى كان معك ليلة أن ضربت بالرصاص ؟»

– «كنا ثلاثة نحب المشى دائماً مع بعضنا:

أنا ومختار الشربتلى والمنقراوى».

سأله عما حدث ليلتها بالتفصيل فحكي، لكن دماغي كان قد انفصل تحت تأثير الصدمات العنيفة المتوالية ؛ أفقت من دوخة ، كان رئيس المباحث مسلطاً عينيه على غازى داوود متفكراً كأنه يتأمل فى إحدى عجائب الدنيا السبع : رجل بلا حنجرة ويتكلم أسرع من أصحاب الحناجر القوية مما يشى بقوة جبارة فى القلب والرئتين معاً.

– «تعرف طبعاً أن من يشترى شيئاً مسروقاً. يعامله القانون كاللص ؟».

– «أعرف طبعاً : كيف لا أعرف ؟».

– «وما دمت تعرف .. فلماذا فعلت ؟!».

– «وما يدرينى أنه مسروق ؟! وأنا اشتريت من امرأة محترمة واسمها على كل لسان ! يعنى تعتبر من الأعيان ! يعنى الشك فيها عدم المؤاخذة قلة أدب !».

– «ألم تسألها من أين أتت بالصندوق ؟!».

– «ولماذا أسألها وأنا أعرف أصله وفصله ؟!».

– «ألم تقرأ اسم الست تفيده على..».

– «عدم المؤاخذة لا أعرف القراءة !».

– «ألم يقرأه لك أحد ؟».

– «حصل ! .. لكن يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا صنتها ! .. تصورت أن الأم سر بنتها ! .. ولربما تكون البنت تنازلت عنه لأمها ! أو لعل الأم تبيعه نيابة عن بنتها !.. وفى النهاية شغل هو أم بحلقة من غير مؤاخذة ؟!».

حملق فيه رئيس المباحث في مزيج من الحيرة والدهشة والاستفزاز ..

لهفى على عمى أبو السعود أشجع رجال بلدتنا ؛ ها هوذا قد صار أثراً بعد عين كما تقول نصوص المحفوظات . يا ربى إنه يبكى ياللكارثة ، عمى أبو السعود أفندى عقل معلم بلدتنا لأجيال كثيرة يبكى هكذا كطفل يتيم مقهور لا حول له ولا طول؟ .. فلتخرب الدنيا ولا أراه فى هذا المشهد المزلزل . لك الله يا خالتى تفيدة ، لم يعد لك ثمة من وجود فى الثياب ، مجرد شبح أو خيال لفتلة خيط بيضاء طالعة من طوق الفستان تتمرجح فى الهواء بين ثقبين أسودين كعينى البومة تفح ظلمة وحكمة فى آن معاً لعلها حكمة السديم مضافاً إليها خبرة الأديم الذى نبت فيه أبونا آدم عليه السلام.. هكذا يؤوب قتال البشرية على طول الزمان إلى عدم حى ، عدم يفكر مع ذلك ، يشخص نفسه بنفسه فى نفسه عن عمد وبقوة جبارة لعلها صحوة الشعور بفداحة المآب ، فداحة أن نعيش حياة يؤمها الشر وتقودها الخسة والوضاعة والأنانية وأمراض التسلط والتملك .. كل هذا التشخيص رأيته فى عينى خالتى تفيدة ، فكرت من فرط الروع أن أطرشق وأتناثر شظايا..

أصابنى الرهك ، غفلت عن متابعة شهادة مختار الشربتلى وإن كنت أذكر أنى انتبهت لبعض جمل وكلمات أشعرتنى بأننى قد سمعت هذه الشهادة من قبل..

لن أنسى ما حييت رقة هذا الضابط رئيس مباحث كفر الشيخ آنذاك وائل جليل الربيعى ؛ كان مثقفاً ومؤدباً ورجل شرطة واسع الأفق فى تطبيق مفاهيمه ، وكان حليماً يضبط نفسه عند الغضب. يومها أدرك ما نحن فيه فقدر موقفنا وعمل على إزالة الكابوس عنا قبل انصرافنا ؛ أعطى لخالتى

تفيدة أقراصاً لعلها أسبرو ، وأمر لها بليمون ، ولنا بشاى ، قال وهو يعزم على عمى بسيجارة:

– «لن يهدأ لى بال إلا بعد أن أعرف كيف انتقل الصندوق من دولاب الست تفيدة إلى دولاب أمها ست عمرة ؟ هل سرقه أحد لحسابها ؟ حرضته مثلاً ورسمت له الخطة ؟ غررت بواحد قليل الوعى من المتصلين بكم؟ سرقته هى بنفسها ؟ .. كل هذا إن شاء الله سيبَين قريباً جداً !».

إعتدل عمى أبو السعود وقد ردت الدماء قليلاً إلى وجهه ، كان الدخان يخرج من منخريه كالقطار السريع ، كأن سحب الدخان المتدفقة أفكار عرقانة تالفة يزيحها عمى عن نافوخه ليمسك بالجوهر الثمين ، قال ببساطة وثقة تنضحان أسفاً عميقاً لكنه أسف زكى الرائحة بما فيه من العرق الإنسانى الصرف:

– «أسمح لى سيادتك ! .. أنا الآن فحسب ! فى هذه اللحظة ! عرفت بالضبط من هى التى سرقت الصندوق لحساب ست عمرة وبتحريض منها .. وتدبير !».

هتف رئيس المباحث بلهفة ، كذلك دبت الحياة فى عينى خالتى تفيدة ..

– «من هى ؟! »

– «الولية الملاية .. بدر اليمن !».

نطت الروح فى حلق خالتى تفيدة كأنها كانت محبوسة فى حنجرتها منذ مدة فتوزعت كهرباؤها على جميع أنحاء جسدها ، ففى الحال دبت فيه الحركة واستضاء بل صارت قادرة على أن تشهق وتصرخ وتتكلم بوضوح وانفعال حاد:

– «بنت الأبالسة ! طول عمرى وقلبى يشاور لى عليها ! .. نعم هى .. أنا متأكدة !».

نقر رئيس المباحث بسن القلم على زجاج المكتب :

– «عندك دليل محدد يا أبو السعود أفندى ؟».

– «ما عندى .. ولكن متأكد .. وأراهن !».

– «بسيطة ! نقبض عليها !».

نفضت خالتى تفيدة ذراعها كأنها تستغيث :

– «فى عرضك ! ما فى داعى ! ».

– «ما فى داعى يعنى إيه ؟!».

– «أنا متنازلة عن القضية ! أنا من وقت قريب عرفت أن ذهبى عندها ! شفته بعينى على صدر خطيبة ابنها ! .. إنما .. ماذا سنأخذ من القضية سوى مزيد من البهدلة وقلة القيمة ؟.. ذهبى سيعود ؟ لا .. صحتى سترد ؟ ياخى دهده .. سأرى الفرح ثانية ؟ فات الأوان ! .. إعمل معروف يا سعادة البيه أقفل لنا هذه القضية بأى شكل – إلهى يسترك ! أبوس يدك ؟.. حتى الصندوق لا أريده! يغور فى ستين داهية ! ماذا سأفعل به ؟ أبيعه ؟ يادى الفضيحة ! أتفاخر به ؟ على من ؟ ووسط من ؟ .. الزمن تغير يا سعادة البيه ومن كان فوقاً أصبح تحتاً ! وما كان مصدر فخر أصبح مسخرة ونكداً ! أحطه فى دولاب الفضيات يعطى منظراً ؟ جت الحزينة تفرح ما التقت لها مطرح !».

قال رئيس المباحث متأثراً :

– «هدئى نفسك يا أمى !.. على كل حال أنا فى غاية الأسف ! أرهقتكم كثيراً .. تفضلوا أنتم وما يفعله الله سوف يكون !».

نهض عمى واقفاً :

– «عاجزين عن الشكر !».

صافحنا ، ودعنا إلى الباب متمنياً لنا السلامة.

(٣٠) التحرر من التاريخ

فلتبق القضية إذن معروضة على المحكمة ما شاء الله لها أن تبقى فنفس المحاكم طويل والعدل غير مطبق على القضاة أنفسهم فكيف نطالبهم بسرعة التقاضى كما يقول عمى أبو السعود ؟ ..

قد يوفق محامينا الأستاذ حامد عبد العزيز وقد لا يوفق فى تقفيل القضية وفصلها عن قضية مقتل زوج خالتى توحيدة زقلة أبو زرية .. سيان الأمر على كل حال ، على رأى عمى زكريا سيما وأننا لن نقبل مقاضات ست عمرة .. لقد هدأت خواطر أبى وتفرغ لجنى القطن فى أمان الله بعد إذ عرف الحقيقة وتأكدت فطنته وفراسته فى الربط الذكى بين خاله غازى داوود وعبد السميع المنقراوى ..

كان الزمن يمشى بنا رأسياً بالعمق لدرجة أن تغيرات وتحولات مذهلة قد حدثت فى حياة العقالوة فى بحر أيام قليلة جداً . مكث عمى جبريل أياماً كثيرة شبه ذاهل شارد اللب لا يقرأ ، لا يبحث عن آخر نكتة بعد أن قال الزمان نكتته الكبرى فى حياتنا ، كان ثمة شعور بالعار يكاد يعصف بكبريائه ويوقف روحه المعنوية عن مواصلة الغزل فى النسوان من زبوناته. الوحيد الذى بدا وكأنه ضاربها صرمة قديمة هو عمى موسى ، بقى كما هو ذلك الولد الظنى العايق يسحب بهائمه عصر كل يوم ليسقيها ويحممها فى

ترعة خلاف فيما يرقع بالموال ، هنا فحسب حدث التغيير فيه ، مواويله أخذت منحى مختلفاً ، فبعد أن كانت حمراء بلهيب العشق ومرارة الحرمان من ريق الحبيب أصبحت تندد بالخسيس وبالنذل الذى إن قدر لا يعفو ، وبالدنيا المغرورة التى لا يقع فى أحابيل غواياتها سوى الأخساء ناقصى المروة .. إلخ..

جدتى معزوزة أضافت إلى فجرها ورداً جديداً تبتهل فيه إلى الله بأن يسامحها على غلطتها فى حق خالتى تفيدة وأخيها فرج تراتيرو ، لدرجة أن خالتى تفيدة من فرط تأثرها بحالة الندم التى تعانيها حماتها ، استردت صحتها بإرادتها القوية لا لشئ إلا لكى تكون صادقة إذا ما قالت لحماتها:

– «مانى حلوة أهه وزى الفل مزعله نفسك ليه بس ؟».

ذلك أن شعور جدتى معزوزة بالذنب كان نابعاً من شدة إحساسها بأنها اشتركت دون أن تدرى مع ست عمرة فى إذلال خالتى تفيدة وقهرها حتى تدهورت صحتها..

خلال جمع القطن جاءت عماتى وأقمن معنا فى الدار بعيالهن ، ويمر أزواجهن أخر الليل لأخذهن . هن فى العادة يأتين بذريعة المساعدة فى شغل الدار وإطعام الأنفار الجميعة وخدمة الرجال ، فيما هن فى الواقع – ربما بتحريض من أزواجهن جئن لمراقبة محصول القطن لتقدير حجم أنصبتهن منه على أى نحو يكون . ما يكيدنى أنهن يدعين بإصرار غبى أنهن غير محتاجات لأى شئ إذ أن أزواجهن ربنا يعطيهم العافية وطول العمر يكفينهن من كل شئ..

نسى فرج تراتيرو طرد جدتى له ، استأنف تطفله الغريزى على موائدنا وقتما يشاء..

لعل أهم ما حدث من تغيير فى هذه الأيام القليلة التى لم تكمل شهراً ، هو عودة النضارة إلى وجه خالتى تفيدة . عاد إليها استقرارها النفسى؛

قالت إنها تخلصت من جبل كان مربوطاً في كتفيها . وذات ليلة من أيام جمع القطن ، وفي ظل الفرحة بجودة المحصول حيث امتلأ مخزننا بالزكائب المعبأة بالقطن ، وفي لحظة روقان على مصطبة الجنينة والعائلة كلها متناثرة حواليها ، طاب لعمى أبو السعود أن يفتح سيرة الصندوق المطعم بالأحجار الكريمة والمبطن بالذهب الخالص محفوراً فيه اسم تفيدة سليم الفرغاني .. فبدا كأن عمى يهدف إلى إغراء خالتي تفيدة بإعادة النظر في موقفها الرافض للصندوق لعلها توافق على استرداده..

بكل هدوء شوحت خالتي تفيدة بيدها في الهواء تزيح هذه السيرة من أمامها ؛ ثم ترجمت حركتها هذه :

– «أنا أزحته من دماغي فتحسنت صحتي !».

– «لكنه قيمة أيضاً ولا يصح إزاحتها بهذه البساطة !».

اتسعت حدقتاها وامتلأتا باللهب :

– «قيمة؟! ذهب وأحجار كريمة ؟! طظ !»

– «إنه تاريخ يا امرأة ! وثيقة تاريخية مهمة جداً ! تخيلي معنى أن يكون اسمك محفوراً بجوار اسم الأميرة على بساط من الذهب في تحفة فنية ذات قيمة مادية وفنية عالية!».

باسم الله ما شاء الله خالتي تفيدة حلت فيها شخصية أستاذ فليسوف يكلم عمى أبو السعود كأنه طفل غرير :

– «يانور عيني ! الله الغني عن هذا التاريخ !

ليس يلزمني ! هل أنت شريكي في نفسيتي ؟!.

أنت شريكي في الحب والحياة فحسب ! لكن هذا الموضوع يخصني وحدي ! وأنا قلت فيه كلمتي لربنا ! ولن أسمع أي كلام يغريني بأن أكون صغيرة أمام ربنا وألحس كلمتي !».

- «أقول مجرد نصيحة أخيرة قبل أن يفوت الأوان وتتعرض للندم ! ونصيحتى أن الإنسان لا يجب أن يفرط فى تاريخه بسهولة!».

- «اتضح أننا لسنا أهلاً لصيانة أى تاريخ ! تظنني جاهلة يا أبو السعود أفندى ؟ يا أخى يكفى أنى عاشرتك هذا العمر الطويل ! .. ملعون أبو التاريخ الذى أحميه ولا يحمينى ! الذى يفرض على أن أبقى مدى الحياة مجرد حارسة له ! .. هذا تاريخ يقلق منامى ! وكلما أبص فيه ألاقينى صغيرة ! .. وألاقيه مشمئزاً من دولابى الذى وضعته فيه ! ؟ من اليد التى قد تخربشه!.. وألاقينى مذعورة من العين التى ستحسدنا عليه ! والنفوس الخسيسة التى تسعى لسرقته ! .. تريدنا يا أبو السعود أفندى أن نكرر ما حصل لنا من أول وجديد؟ .. طالما الصندوق عندنا فالشيطان فى دارنا ! .. كل عيالنا سوف يقتتلون بشأنه ! .. لأ لأ لأ يا أبو السعود أفندى !».

عندئذ بدأ وجه عمى أبو السعود يخلع رداء الدور التمثيلى الذى أتقنه جيدا طوال المشهد السابق : لقد تقمص شخصية الضد أمام خالتى تفيدة ممعناً فى تبنى منطقها والدفاع عنه ، لا لينتصر له فى النهاية ، بل ليؤكد ويكرس المعنى المضاد الذى تمثله خالتى تفيدة . إنه فى حقيقة أمره ضد عودة هذا الصندوق إلى دارنا ، بل يزدريه أيما ازدراء ، بل إنه هو الذى يردد على أسماعنا دائماً أبدا قول المتنبى ، ليس الفتى من يقول كان أبى إن الفتى من يقول ها أنذا .. ولكن لأن عمى أبو السعود لا يريد أن يفرض علينا ولا على خالتى تفيدة رأيه هو باستبداد سلطوى بحكم كونه عميد العقالوة ، لهذا فقد استدرج خالتى تفيدة أمامنا إلى هذا الموضوع ليمهد لنا كيفية الوصول إلى بناء رأى خاص بنا كل واحد على حدة تجاه أى موضوع بوجه

عام وتجاه موضوع الصندوق بوجه خاص ؛ أى أنه استدرج خالتى تفيدة لكى تعبر - بهذه الحرارة - عن موقف هو مؤيد له مؤمن به ، وأن تقول ما كان يعجز عن قوله بهذه الحرارة والقناعة والحسم .. مما جعل عمى أبو السعود من فرط جذله اعترته حالة صبيانية لطيفة ، فرفع ذراعه هاتفاً كقائدى المظاهرات:

- «يسقط التاريخ المنتحل !».

كنا أكثر منه صبيانية ، رددنا الهتاف وراءه فى جدية لها زئير ، فساق فيها وكرر:

- «يسقط التاريخ الموروث !».

رددنا ؛ قال إنه من غد سيكتب عريضة يرفعها إلى وزير الداخلية يفيده بأن السيدة تفيدة سليم الفرغانى الشهير بتراتيرو حرم أبو السعود أفندى عقل المفتش بوزارة التربية والتعليم قد تنازلت عن الصندوق الأثرى الذي كان مسروقاً منها وعثرت عليه الشرطة فى القضية رقم كذا بتاريخ كذا والجارى نظرها الآن فى المحكمة الفلانية ، برجاء متابعته واستلامه وضمه إلى متحف المسروقات التى تضبطها الشرطة أو إلى المتحف الذى يضم جواهر الأسرة العلوية .. هذا ما لزم عرفناكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فى الصباح وقعت خالتى تفيدة على العريضة وهى فى منتهى النشوة . طواها عمى أبو السعود ودسها فى مظروف حكومى محترم ، وأرسلها بالبريد المسجل بعلم الوصول.

(٣١) أمزوجة الرضا

اليوم بيع محصول القطن ، تم ذلك فى حضور الجميع من كافة من ينتهى اسمه بلقب : عقل . عرفوا جميعاً - وبكل دقة - كم جنيهاً وكم قرشاً وكم مليماً دخل دارنا اليوم على الترابيزة أمام أعين الجميع .

كالعادة تم تكفين الفلوس فى منديل محلاوى معقود الأطراف استقر فى قعر دولاب الحائط فى حجرة جدتى معزوزة فى انتظار تقطيع أوصاله وتفتيته على الورق فى كشوف حسابية ستكلف عمى أبوالسعود عناء يوازى إن لم يفق مابذل فى زراعة القطن من عناء .. مطلوب منه الآن تدبير نفقات لعديد من الضرورات الملحة العاجلة ، ثم الأمنيات المؤجلة، لعل أهم ماهو مطلوب منه الآن وقبل كل شىء هو تدبير نفقات كسوات متعددة الأشكال والأنواع والألوان والأحجام لما يقرب من خمسة وأربعين فرداً ، من جلابيب إلى قفاطين وجبب إلى بدل وقمصان أفرنجية وأربطة عنق إلى فساتين وأحذية وبلغ وشباشب ومراكيب وجوارب وفانلات وألبسة وصديريات وتلافيع ولاسبات ، ففى الدار طلبة فى الجامعة وفى التوجيهية والابتدائية ، إضافة إلى عرائس تقرر دخولهن فى موسم القطن ، وصبايا على وش زواج يلزمهن تجهيزات مبكرة .

كان الله فى عون الحاسبين المدبرين ، فبرغم احترام الجميع لكشوف الحساب فإن كل واحد فيهم ليس مستعداً للتنازل عن حلمه الوردى الذى رسمه على ذمة محصول القطن ، ولسوف يسخط ويحتج ويتزربن إذا شعر بأن الواقع سينتقص من حلمه فما بالك لو انسخط حلمه نفسه وآب إلى شىء أقل من أن يفرح به ؟..

أنا وبعض أبناء عمومتى الجامعيين نطمح هذا العام فى تفصيل بدل جديدة تليق بالجامعيين وبالملتحقين بالتعليم الثانوى فى المدينة.

هكذا عقدنا النية والاتفاق الجماعى وجلسنا معاً فى حالة تحفز واستنفار لإعلان الإحتجاج على البدل السوقى الجاهزة التى لاتجىء مضبوطة أبداً ناهيك عن فسولة نسيجها .

لكنها نظرة خاطفة ، وقعت من عينى أثناء تحليقى فى الحلم ببدلة ذات مواصفات معينة .

نظرتى وقعت على عمى أبوالسعود ، الذى اكتسى وجهه بملاءة شفافة من الحرج والكسوف كأنهم ضبطوه فى موقف مشين ، ترتعش الابتسامة المكسوفة على شفتيه كالمذنب يتلجلج بحثاً عن ذريعة .

ظننت لأول وَهلة أن أحداً قد أهانه على نحو ما ، استعدت ما كان يقوله منذ هنيهة حينما عصر جبهته بين السبابة والإبهام ثم قال بنبرة أليمة :

«تعرفوا يا أولاد متى فصلت آخر بدلة فى حياتى ؟.. كانت من حوالى عشرين سنة !» .

فلم يأبه به أحد ، كأنهم لم يسمعوه ، فانفردت ملاءة الكسوف المربدة وغطت وجهه التعيس المقهور النبيل فى آن .

كنت القريب منه طول عمرى وأعرف أن آخر بدلة فصلها كانت فى الواقع منذ ربع قرن مضى من الزمان ، ولمست مدى زهقه من البدلتين الكالحتين العجوزتين .

فى ظنى أنه لو دخل الآن فى الموضوع مباشرة وقال لهم بكل وضوح إنه قرر تفصيل بدلة جديدة لنفسه هذا العام بمناسبة ترقيته إلى مفتش بوزارة التربية والتعليم أو حتى بغير مناسبة ، لوجد من الجميع ترحيباً وتشجيعاً بل وتحريضاً .. إنما .. لا .. فالغريب أنه متأكد من هذا ، لكنه متأكد فى نفس الوقت أن تحريضه على تفصيل بدلة جديدة لنفسه سيكلف العائلة ما لا تطيق ، إنه لواثق أن التشجيع والتحريض ليس نابعاً من قناعتهم بأحقيته فى تفصيل بدلة جديدة بعد طول حرمان من هذا الحق ، إنما هو تشجيع على خلق ذريعة ، فكل واحد سيلوح بأحقيته فى تفصيل جلباب من الصوف ، وسيقدم المبررات المقنعة .

عمى أبوالسعود كان رومانسياً أكثر من اللازم فيما يبدو ، تصور أنه بمجرد تذكيرهم بهذه الحقيقة سيشعرون بالخجل ويطلبون فى كشف الحساب تخصيص بدلة جديدة له خصماً من الميزانية قبل توزيعها ؛ مثلها مثل أنصبة عماتى وأجور الأنفار .. أى لايحق لأحد المطالبة بشىء لنفسه فى مقابلها ..

خيبة الأمل فى عين عمى كانت ومضة خاطفة إلا أنها كانت كشعلة من لهب لسعت الوجوه من بعيد لبعيد ثم انداحت عبر أوراق الشجر إلى الأفق الأبعد ..

كشوف السحاب روجعت عشرات المرات .. أعيد الحساب من أول وجديد مرات عديدة نظراً لاختلاف طرائق الحساب حيث يريد كل منهم حساب

حسابه بطريقته الخاصة فى الجمع والطرح والقسمة والضرب ولملمة الكسور العشرية فى آحاد صحيحة ، تتصادم النتائج بفارق ملاليم ناقصة أو قروش زائدة ، ليدب الشك من جديد حتى فى قواعد علم الحساب نفسها .. تعلو الأصوات حتى لكأن بلدة بأكملها تتعارك مع أنها مجرد مناقشة عائلية ترتبط فيها حرارة العاطفة بعلو الصوت إلى حد الضجيج الهائل إلا أنه على حدته وقوته الشكلية سرعان ماينكتم فى الحال بمجرد حركة غضب مكتوم يفعلها عمى أبوالسعود ، كأن يرمى بالورق والقلم واضعاً يده على خده تعبيراً عن اليأس والاشمئزاز ، يبقى هكذا لبرهة وجيزة ، قد يشعل سيجارة ، أو يمسح عرقه المتصبب ، أو يجأر فى اتجاه الدهاليز فى النسوان طالباً كوبة شاى ..

فى النهاية تم توزيع المحصول على داير مليم ، تم تسكين كل مبلغ فى خانة الغرض المطلوب له ولو على الحركرك يعنى دونما زيادة أو نقصان متعشمين فى ستر الله بعدم زيادة الأسعار كثيراً عن السنة الماضية ، مع تعديلات مقبولة من جانبنا فى مطالبنا ، فبدلاً من البدل التفصيل الثمينة رضينا بالبدل الجاهزة ذات المستوى الشعبى المتواضع .. اختفى ذكر أية بدلة لعمى أبوالسعود مكتفياً بالكسوة المتواضعة من جلابيب وفانلات وألبسه .. سلمت جدتى معزوزة بأن نصيبها فى حج بيت الله لم يكتب بعد فى كشوف تنفيذ المشيئة الإلهية بله أن يكتب فى كشوف عمى .. تنازل أبى عبدالعال عن قماشة العباءة الأمبريال التى يحلم بها منذ ثلاثين عاماً ، وعمى زكريا عن الجبة الجوخ ، وعمى جبريل عن بغلة عفية كان يترصدها عند صاحبها منذ مولدها ويحلم بامتلاكها لتسهيل سفره إلى الأسواق ، كذلك تنازل عمى موسى عن ساعة الجيب التى وعد بها منذ محصول العام الماضى ..

كان الجميع مع ذلك راضين كل الرضا ، يقبلون أياديهم ظهراً لبطن شاكرين الله فى أهزوجة جماعية مرعوشة الأصوات والأبدان تقودها جدتى معزوزة فى إنشاد حقيقى ، حيث قد اطمأنوا إلى أن كسوة العيال فى العيد قد أتت ، وأن مصاريف المدارس قد دبرت ، ونفقات سفر وكتب وكراريس قد وزعت بالعدل والقسطاس ، وليس ثمة من دين فى رقبة العائلة لأى أحد ، وفى حجرة الكرار قمح وبقول وأدام ، وفى البرج حمام ، وفى صحن الدار بط وأوز ودجاج وأرانب ومعيز وخرفان ، وفى الزريبة ماشية وألبان ، وفى المخزن تبن وعليق ، وفوق أسطح الدار أكداس مكدسة من وقود الجلة الناشفة وقش الأرز وحطب القطن ، وفرن الدار مشتعل من صبيحة ربنا لخبز لقمة طرية من فطير الذرة بالقشدة السائحة النائحة لشق الريق فى باكورة الصباح .

تمت

المعادى الجديدة – مساء السبت ٢٢ – ٧ – ٢٠٠٦

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٨٢	دق الطبول	محمد البساطى	أكتوبر ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٨٣	العابرون	محمد إبراهيم طه	نوفمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٤	دموع الچيوكنده	نادية شكرى	ديسمبر ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٨٥	كوكب القردة	بيير بول	يناير ٢٠٠٦	٦,٠٠
٦٨٦	أزمنة من غبار	ناصر عراق	فبراير ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٨٧	ظل الأفعى	يوسف زيدان	مارس ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٨	أبناء الديمقراطية	ياسر شعبان	أبريل ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٩	مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا	صلاح عيسى	مايو ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٠	الحب فى زمن العولمة	صبحى فحماوى	يونيه ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩١	عطر البرتقال الأخضر	شريف حتاتة	يوليو ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٢	أنا الذى رأى	محمود سعيد	أغسطس٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٣	الجميلة حتماً توافق	رأفت الميهى	سبتمبر ٢٠٠٦	٥,٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٨٠١١
I.S.B.N
977- 07- 1218 -3

عن المؤلف



□ مواليد شباس عمير، مركز قلين ، محافظة كفر الشيخ ، فى ٣١ يناير ١٩٣٨ .

□ صدر له سبعون كتاباً.

□ صدرت له الروايات التالية عن دار الهلال :

- صاحب السعادة اللص
- المنحنى الخطر
- فرعان من الصبار
- أولنا ولد
- وثانينا الكومى
- وثالثنا الورق
- صالح هيصة
- صهاريج اللؤلؤ
- منامات عم أحمد السماك

□ حائز على : -

- جائزة الدولة التشجيعية، عام ١٩٨١ .
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ، عام ١٩٨١ .
- جائزة التميز من أتحاد الكتاب ، عام ٢٠٠٣ .
- جائزة نجيب محفوظ عن رواية «وكالة عطية» ، عام ٢٠٠٣ .
- جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٥ .

عن الرواية



في «نعناع الجناين» يعود خيرى شلبى مجدداً إلى عالم القرية المصرية الأثير ، قرية الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ، حيث المجتمع يقوم على نظام العائلة ، فلا وجود للوطن ولا معنى للوطنية إلا فى ظل عائلة متماسكة ، وبنيان العائلة لا يتماسك إلا بوجود مادة بديلة عن الأسمنت المسلح فى المعمار السكانى ، تلك هى منظومة القيم والمبادئ والأعراف والتقاليد التى تربط الأفراد ، وتمد بينهم جسور المودة والرحمة والإنسانية.

فى هذه الرواية يستخدم خيرى شلبى سرداً روائياً نابعاً من طبيعة البيئة الريفية ، إنه سرد فلاحى يعكس ثراء الطبيعة وصراحتها وبساطتها وشاعريتها ، وتتجلى فيه روح الحرث والبذار والإنماء والإرواء والحصاد، وروح القرية المصرية بكل ما فيها من أنس ومودة وخصوصية ، وناس لهم نكهة نفاذة مثل نكهة نعناع الجناين .

أشهر الحوادث والقضايا









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .

أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٦ • نعناع الجناين : خيرى شلبى • العدد ٦٩٤ • الثمن ٦ جنيهات